
الحلاج
شهيد
التصوّف
الإسلامي
طه عبد الباقي سرور

مطبعة نهضة مصر
الفجالة . القاهرة

الثمن ٥٠ م

طه عبد الباقي سرور

الحسين بن منصور



الطبعة الثانية

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفجالة - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى الكتاب

كان الحلاج ، نبأ عظيما ، فى أفق التصوف الإسلامى ، ولا يزال الناس يتساءلون عن النبأ العظيم ، الذين هم فيه مختلفون .

هبط به خصومه إلى هاوية السحر والشطح الآثم ، المتطلع إلى فناء وخلود ، عن طريق الاتحاد والحلول ! !

وارتفع به محبوه ، إلى أفق البهاء المقدس ، وإلى معارج البطولة الخارقة للناموس ! !

فالحلاج عند شعراء ما وراء النهر ، بطل ملحمة الخلود الكبرى ، ورائد الحب الإلهى ، الذى صعد على معارج الشوق والوجد ، إلى سدرة النور السنى ، حيث يغشى هناك القلب ما يغشى من أذواق وهبات ، ومعرفة وتجليات .

والحلاج فى أقلام رجال الاستشراق ، يربطه خط نفسى مضى بالمسيح عليه السلام ، إنه الشهيد الولى الربانى ، الذى تطلع إلى ميلاد كلمات الله المباركة فى قلبه .

أما رواة التاريخ الصوفى ، فقد دندنوا طويلا حول كراماته وآياته ، وتحدثوا فأطالوا الحديث ، عن عجائب مصرعه ، وما اقترن به من خوارق ، ثم ذهب ببعضهم الخيال ، فنسجوا قصة روحية فاتنة ، تدور حول جثته التى أحرقت بعد صلبها ، ثم ألقى فى دجلة برمادها ، فأصبحت كل جرعة ، من ماء هذا الرماد المبارك ، تنجب شيخاً من شيوخ الصوفية فى بغداد ، وتصوغ قطباً من أقطاب المعرفة فى العراق ! ! ؟

لقد أسرف خصوم الحلاج في بغضه وتجريحه ، وأسرفت الخلافة العباسية في اضطهاده وتعذيبه ؛ وأسرفت إسرافاً جنونياً وحشياً فيما أعدت من عذاب غليظ عنيف ليوم مصرعه ، وفيما أقامت من ستار حديدي لحجب سيرته عن الحياة ، وفيما اصطنعت لتشويه تراثه في التاريخ ! !

فأسرف أنصاره أيضاً في حبه وتقديسه ، وفي الحديث عن أسراره ونفحاته وعلومه وعجائبه ! ؟

ومن ثم انطلق الخيال الأسطوري التاريخي ، يوشي هذه الصورة العجيبة المتناقضة ، ويريق عليها مزيداً من الجمال ، ومزيداً من الغموض !!

ثم أخذ ينسج حولها مشاهد ملونة متنافرة ، تتعاقب وتتواكب ، حافلة بأروع ما في الدنيا من عظمة الروح والإيمان حيناً وبأقسى ما في قاموس الضلال ، من إلحاد ومروق أحياناً .

وبعد مرور قرابة ألف عام على المأساة الحلاجية ، لا يزال النبأ العظيم يتساءل فيه الناس وهم مختلفون ! ؟

ولقد فتنت بسيرة الحلاج كما فتن بها غيري ، وصاحبته طويلا في تقلباته ومعارجه ، وناجيته وذهبت معه في انطلاقاته ، وتحسست ما في عواطفه وقلبه ، وحاولت أن أدنو من شوقه ووجده ، وثورته وتفكيره ، وأن أجد الخط الروحي الخفي ، الذي يربط ما بين المتناقضات التي تزخر بها حياة رجل يذيبه ويحرقه الوجه الملح العنيف ، فينطلق في الفلوات والمقابر والآفاق ، مذهولا مأخوذاً ، حتى يتذوق نشوة رياضاته مقاماً من مقامات القرب ، ويرى نوراً من أنوار الأنس والقدس ، ويغرق في بهاء القرب ، وأنوار الأنس ، ويسبح ويسبح في معارج حبه ، حتى يذهل عن نفسه ، وعن وجوده ، وعن كل ما يحيط به ، فلا يرى في الكون الفسيح ، إلا وجه الله القريب الحبيب ، الذي يذوب أمام سبحات كل شيء ، فلا يبقى إلا هو ، ذو الجلال والإكرام ، الأول والآخر ، والظاهر والباطن .

وهو مع هذا الوجد المحرق ، وبعد هذا الفناء المذهل ، يطيل التأمل والتفكر ، فى واقع الأمة الإسلامية ، فيرى انحرافها عن رسالتها ، وابتعادها عن عبادتها ، فيطلق صيحة الثورة على الخلافة المنحرفة ، وينشر الدعوة ، ويعد العدة ، لإقامة حكومة الأقطاب الروحانيين ، التى يسوس أمرها الأولياء والأبدال ، والتى تحيل الكون إلى محاريب للصلاة والتأمل ، وذكر الله .

ولقد عانيت من قبل تجربة الدراسات الصوفية ؛ وأعلم ما تحتاجه من جهد ، وما يصاحبها من إرهاق ، فهى لا تزال بكراً لم تمهد سبلها ، ولم تعبد طرقها .

وأشهد أنى لم أجد رهقاً ونصباً ، فى دراسة صوفية ، كما وجدت فى دراسة الحلاج ، فقد تمزق تاريخه ، وتبعثرت آثاره !؟

وأشهد أيضاً ، أننى لم أجد متاعاً للقلب ، وأنساً للنفس ، وزاداً للتفكير ، كما وجدت فى هذه الدراسة .

وللحلاج سحر فى كلماته ، وسحر فى حياته ، إنه من الشخصيات التى تملك قوة الإيحاء ، وقدرة الاستهواء ، ولهذا فسواء كنت معه ، أو كنت عليه ، فلا تملك نفسك ، من أن تحبه وتهواه .

ولقد حاولت جاهداً ، أن لا تتأثر هذه الدراسة بهذا السحر ، وأن تنطلق إلى هدفها ، مجردة من كل عاطفة ، إلا عاطفة البحث عن الحقيقة ، الحقيقة المجردة لذاتها .

وبعد : فهذا هو الكتاب الأول الذى يصدر عن الحلاج فى لغة الضاد ، نقدم فيه للعالم الإسلامى ، صورة حية ، من صور الحياة الروحية ، فى أزهى عصورها ، ونصور فيه حياة رجل من أئمة هذه الحياة الروحية ، بل لعله نسيج وحده فى هذه الحياة الغنية برجالها وأقطابها .

فإن أوفى الكتاب بعهده ، فقدم الوجه الصحيح ، للرجل الذى تساءل

الناس عن نبأه واختلفوا فى أمره ، فنسجد لله شكراً ؛ على ماهدى وألهم .

وإن عجز الكتاب عن الوفاء بعهده ، فحسبه أنه محاولة أخلصت وجهها لله ؟

طه عبد الباقى سرور

القاهرة { ١٣٨٠ هـ
١٩٦١ م

شعاع على التاريخ

« .. بأية حماسة وحمية وجدانية قامر
هذا العاشق الجسور برأسه كيما يظفر
بجوهرة الجمال الإلهى » .

فريد الدين العطار

منذ أكثر من ألف عام ، تركز سمع الدنيا وبصرها ، على الخاتمة الفاجعة ، لأعجب صراع شهده تاريخ الفكر ، وتاريخ الحياة الروحية فى الإسلام .

وتساءل الناس عن النبأ العظيم ، وهم فى غمرة ذاهلة من هول ما يترامى إليهم من همسات وأحداث ، لقد غامرت الخلافة العباسية وقامرت بوجودها ومكانتها فألقت من أعلى مآذن بغداد برماد جثة رجل ... عذب ، وصلب ، وحرق ، فى مشاهد مسرحية وحشية ، لا تمت إلى الإنسانية ، أو الآدمية ، بسبب أو نسب .

وحملت أجنحة الهواء ذات الرماد الشهيد إلى الآفاق ، ومن ثم بدأ تاريخ عجيب رائع ، ونبتت حياة سامقة شامخة ، فقد تحولت كل ذرة من ذرات هذا الرماد ، إلى مئذنة ومنبر ، يتلى عليهما فى مسمع الدنيا ووجدانها وضميرها قصة هذا الشهيد ، وحياة هذا المصلوب ؟ ! !

ويالها من قصة ، ويالها من حياة ، أراق عليها الخلود فتنته وبريقه ، وأكسبها الاستشهاد سحره ونوره ، وأضفى عليها الحب الإلهى جلاله وعطره ، ومنحها مقام الفناء ، بقاء يعجز كل فناء . . .

ومنذ أكثر من ألف عام ، وقصةهذا الشهيد ، تعيش متلألئة مشرقة متجددة فى قلوب الناس وعواطفهم ، وتحيا مقنعة مبهمة ملهمة ، فى عقول المفكرين وأقلامهم ! ؟ أشبه ما تكون باللحن الذى اهتزت أنغامه وتشابكت أوتاره ، ولكنه مع هذا ، نغم فاتن شجى ، غنى ثرى بالإلهام والخيال والأحلام .

وتحولت القضية والمأساة إلى أسطورة مجنحة ، ترتاد الآفاق المتناقضة ، وتمشى مع الخيال الأسطورى إلى القمم العالية السامقة ، المجللة بالضباب والسحاب ، فتزداد إبهاماً وغموضاً ، كما تزداد سحراً وبريقاً .

يقول المؤرخ الفرنسى — موبزو — : « إن التاريخ هو ذاكرة البشرية ، ولكنها ذاكرة قد تضعف حينا ، وقد تصطنع الضعف أحياناً » .

ولقد كانت تلك الذاكرة ، أضعف ماتكون ، أو فرض عليها أن تكون أضعف ما تكون ، وهى تقدم للناس عبر القرون ، تاريخ الحلاج ورسالة الحلاج ..

لقد زيفت ذاكرة التاريخ عن عمد خبيث ، وعن تدبير هادف ، واصطنعت صوراً خادعة مضللة زائفة ، لأعظم حقبة فى تاريخ المعرفة الصوفية ، ولأخطر رجل فى تاريخ الحياة الروحية .

ولقد عرفت جميع اللغات ، حياة الحلاج ومأساته ، وامتلأت حقائب التاريخ العالمى . بألوان من الأساطير ، حول فلسفته الروحية ، وتعددت فى التراث الإنسانى ، صور حبه ومجاهداته القلبية ، وسبحاته الوجدية ، ولكنها صور وشاها الخيال ، واعتنى فيها المصورون بالتلوين والظلال ، عناية طمست الحقائق ، وغيرت وجهها ، وشوهت لونها ، وانحرفت بها ، عن جوهرها ورسالتها .

ولقد تحاشى مؤرخو الحياة الروحية فى الإسلام هذه المأساة وسرها وما يدور حولها ، تحاشاها القدامى تحت ظلال صيحات الرعب والهول ،

التى أطلقها العباسيون ، مدمدمة حول الحلاج وتاريخه، وحول من يلوذبه ، او يترنم بلحونه وأهدافه ، حتى أن السراج الطوسى ، وهو معاصر للحلاج أو يكاد ، وهو أكبر المؤرخين للحياة الروحية ، وسير أعلامها ورجالها ، أهملها وتجاهلها ، مع جلالها ومكانتها .

وحتى أنه ليستشهد فى كتابه العظيم « اللمع » فى أكثر من خمسين موضعاً بكلمات الحلاج فى المعرفة والتصوف ، دون أن يذكر اسمه ، بل يصطنع تعبيراً عجيباً ، فيقول : قال بعضهم ! ؟ أو قال القائل ! ؟

وكذلك صنع المؤرخ الصوفى ، العلامة الكلاباذى فى كتابه « التعرف » فهو يروى كلمات الحلاج التى ترسم آفاق التصوف ، وتحددمناهجه ، دون أن يذكر اسمه ، بل يصوغ تعبيراً بديعاً هادفاً بقوله « قال أحد الكبراء ؟!! » .

وجاءت كتب الطبقات الصوفية ، فتحدثت فى إسهاب ، وفى إسراف عن كل مايتعلق بالتصوف ورجاله ، وقادته وأعلامه ، ثم مرت سريعة خفيفة ، بسيرة الحلاج ، أو حومت حولها ، فى حذر مصطنع ، وتجاهل متعمد .

ثم جاء المحدثون من أصحاب الأقلام ، فوقفوا حيارى ذاهلين أمام المأساة الحلاجية ، أو العقدة الحلاجية ، فقد زيفت تلك المأساة تزييفاً فنياً رائعاً، فتقنعت أحداثها بالغموض ، واشتبكت صورها بالأهواء، وتضاربت فيها الأقوال ، وامتلأت آفاقها بالأساطير والخيال .

فقد اشترك الجهاز العباسى العالمى بكل قواه ، وبكل عملائه ، من علماء وفقهاء وشعراء وكتاب ، فى هذا التزييف الذى لم يعرف له التاريخ مثيلا .

وجاء رجال التاريخ الإسلامى ، وجلهم من الحنابلة المتزمتين فألقوا بكل مافى صدورهم ، من موجدة ، ومن حقد على التصوف الإسلامى ، على رأس الحلاج وتاريخه ورسالته .

وعجزت كل هذه الخصومات ، وكل هذه الأباطيل والأساطير ، عن أن تطفىء شعاع هذا الروح الكبير ، وظل شعاعه الروحى يومض فى أفق الحياه ومضات تترك آثارها ولمساتها فى القلوب والعقول ، وفى الضمير الإنسانى ، والوجدان البشرى .

والتاريخ كما يقول العلامة — سبنسر — : « لا يموت » فان حقائقه وإن توارت فى زحام الأغراض ، وصيحات الأقزام ، تستعصى أبداً على الفناء .

ومن هذه الحقائق المتناثرة ، التى أثقلت كواهلها أكداس هائلة من التزييف والتلفيق ، نحاول أن نقيم حياة ، وأن نعرض هذه الحياة ، بكل ما أبدعت وابتكرت على الناس ، وأن نجعلها على جبين الشمس واضحة سافرة .

والحلاج شخصية غنية خصبة ملهمة ، شخصية تفتح أبواباً للتفكير ، ومسرحاً للخيال ، ومجالا للعاطفة ، شخصية تعددت جوانبها ، واتسعت آفاقها ، واحتشدت فيها الانفعالات النفسية والوجدانية ، والإلهامات الروحية والقلبيه ، والرياضيات العقلية والجسدية .

كما تمثلت فى وقائعها كافة العناصر التى تصنع بطولات التاريخ ومعجزاته ، بكل ما فى البطولة من عزة وسموق وعظمة واستشهاد ونضال وفداء وقوة .

وفى إطار هذه الشخصية الشامخة ، نعاصر حقبة حاسمة فى التاريخ الإسلامى ، الفكرى والحضارى ، فنرى الصراع المشبوب الأوار ، بين المعتزلة والحنابلة ، والشيعة والقرامطة ، والفقهاء والصوفية .

ونشهد حياة القصور العالية ، وما فيها من إسراف وترف ، وشهوات

وغوايات ومؤامرات ، وكيف تتشابك العواطف بالأحداث ، لتجعل من خلفاء العباسيين الذين دانت لهم الأرض ، ألعوبة فى أيدى العبيد والنساء ، وأشباه العبيد والنساء .

ونرى العالم الإسلامى ، وهو يتمزق بعد وحدة ، وتنتابه انتفاضات فكرية وثورية ، واقتصادية وثقافية .

ونطالع الحياة الروحية ، فى أزهى عصورها ، وأنبل صورها ، عصر النجوم المتلألئة ، عصر المدارس الصوفية الكبرى ، التى دفعت بمناهجها فى المعرفة والسلوك ، إلى ساعات الفكر الإسلامى . وانطلقت فى جو عاصفة الجدل والحوار ، والخصومات المذهبية الجامحة ، أطلقت كلمات جذابة حلوة ، لها إغراء ورنين وبريق ، كلمات الحب ، والوجد ، والشوق ، والأنس فى الحضرة الربانية ، والساحة القدسية .

وما تلهم هذه الكلمات النورانية ، من أدب النفس ، وسمو الحس ، وطهارة القلب ، ونبل الخلق ، وتصعيد الأعمال كافة إلى الله سبحانه ، وإفاضة المعنى الروحى على كل شىء فى الوجود ، وما يترقرق حول هذه المعانى ، من أشواق ورياضات ، وأذواق وإلهامات .

وفى قلب هذا الخضم ، بانفعالاته المتوترة الحية ، وبأفكاره المتدفقة المحلقة ، وبأحداثه الثائرة المضطربة ، وبترفه وشهواته الجامحة .

برزت شخصية الحلاج لتحدث فى الدنيا دويا ، وتحدث فى الجماهير سحراً ، وتلقى على كل شىء مسته حياة وحرارة وانفعالا .

كان الحلاج عبقرية من تلك العبقريات الاستهوائية ، التى يعرفها التاريخ فى لحظاته الحاسمة .

وبلغ من عظمة هذه الشخصية ، أنها غدت النبأ العظيم فى آفاق التصوف والمعرفة ، كما كانت النبأ العظيم فى آفاق الإصلاح والثورة .

كان الحلاج يملك قوة روحية عالية ، من تلك القوى التى يفيضها الله على من يشاء من عباده ، وكانت تلك القوى الروحية تمنحه فيما تمنح ، القدرة الموحية المؤثرة الصانعة فى عواطف الناس وقلوبهم وأحاسيسهم ، وتضفى عليه طاقة تلهم الآمال الكبار ، لكل من يلوذ به ، أو يدنو منه ، بل لقد شهد أمناء أتقياء ، بأنه كان يؤثر بروحانيته العجيبة ، فى الجماد والنبات والحيوان .

ومن هنا توهم أعداؤه فيه السحر والشعوذة ، وتوهم أحبابه فيه القدرة الخارقة على صنع المعجزات ، حتى لقد نسبوا إليه ، إحياء الموتى ، وبعث من فى القبور !!

ويحدثنا شيخ الصوفية الأكبر محي الدين بن عربى . فى الباب الثالث والستين وأربعمائة . من كتابه — الفتوحات المكية — « إن الحلاج كان يدخل بيتا عنده يسميه بيت العظمة ، فكان إذا دخله ملأه كله بذاته بأعين الناظرين ، حتى أن بعض الناس ممن لايعرف تطورات أحوال هذا المقام ، نسبه إلى علم السيميا ، لجهله بأحوال الفقراء فى تطوراتهم .

ولما دخلوا عليه ليأخذوه للصلب ، كان فى ذلك البيت فما قدر أحد أن يخرجه من ذلك البيت ، لأن الباب يضيق عنه ، فجاء الجنيد وقال له : سلم لله تعالى ، وأخرج لما اقتضاه وقدره ، فرجع إلى حالته المعهودة . فخرج فصلبوه » .

ويقول صاحب الفهرست[1]: « حرك الحلاج يده يوماً فانتثر على قوم مسك . وحرك مرة أخرى يده ، فنثر دراهم » .

ويقول العلامة البغدادى[2] : « ووقع له عند الناس قبول عظيم ، حتى حسده جميع من فى وقته » .

---

(١) ص ٢٦٩

(٢) ماضى الاسلام وحاضره ص ١٧٢

ويهتف خلصاؤه وتلاميذه يوم صلبه : « لم يمت الحلاج بل ارتفع إلى السماء .. وسيعود !! » .

لقد عجز الموت فى أبشع صوره ، وأقسى ألوانه ، أن ينتزع الهالة الكبرى ، التى تحيط بتلك الشخصية الشخمة الرائعة .

ويمشى سحر الحلاج وجلاله ، وتأثيره القوى الغلاب ، إلى رجال الاستشراق ، فيتحدثون عنه كبطل أسطورى ، من رجال الغنوص الشرقى[1] وكشخصية مكررة من شخصية المسيح عليه السلام جاء ليعيد مأساة جبل الجلجلة[2] وليكرر فكرة الفداء . فداء البشرية من الخطيئة الأولى .

ولكن هل حشدت الخلافة العباسية ، كل قواها لقتال الحلاج . وأعدت كل ماتملك من وسائل الجبروت الوحشى ، والعنف البربرى فى عذابه ومحاكمته وصلبه ، من أجل مواجيده وألحانه فى الحب الإلهى ، ومن أجل إلهاماته وفتوحاته ، فى مقامات الغناء الصوفى ، وعجائبه وقدرته على الإيحاء والإلهام ، وصنع الكرامات والمعجزات ! ؟

يقول المؤرخ الكبير صاحب الفهرست : « لقد كان الحلاج جسوراً على السلاطين ، يروم انقلاب الدول[3] » .

ويروى لنا إمام الحرمين — الجوينى — : « إن الحلاج كان يريد قلب الدولة ، والتعرض لإفساد المملكة » .

---

(١) الغنوص : كلمة يونانية الأصل . ومعناها : العلم أو المعرفة ، ثم أصبحت اصطلاحا على المذاهب التى تتوصل إلى المعرفة بطريق الكشف ، ثم اتسع مدلولها حتى أصبحت علما على المذاهب الشرقية ، الفارسية والهندية التى تضم إلى جانب منهجها فى المعرفة الأسرار والسحر .

(٢) الجبل الذى قالوا عنه : إن عيسى عليه السلام صلب عليه .

(٣) ص ٢٧٠

ويقول المستشرق نيكلسون فى كتابه — الصوفية فى الإسلام : « إن قتل الحلاج أملته دوافع سياسية لاتعرف الرحمة » .

ويقول العلامة — جولد زيهر — فى كتابه — محاضرات عن الإسلام : « لقد أثرت صيحة الحلاج الصوفية : معرفة الله تأثيرا عميق الأثر ، فى الحياة العلمية الإسلامية » .

ثم يقول : « لقد أخذ الحلاج يتدخل فى حياه المجتمع الإسلامى تدخلا شديد الوطأة » .

ويقول العلامة المستشرق — ماسنيون[1] — : « كان الحلاج يحرك الجماهير ، وينادى بالإصلاح ، ويبشر بفكرة الحكومة المثالية التى تقيم الشريعة على نغمات المحبة والعبادة الخالصة لله » .

وإذن فصيحة الحلاج الصوفية الإصلاحية ، ودعوته إلى إقامة حكومة ربانية ، هى سر المأساة الكبرى ، أو إحدى أسرار تلك المأساة الكبرى .

ومأساة الحلاج ، كونتها عناصر تاريخية ونفسية وخلقية ، وفى طليعة تلك العناصر ، الرهبة التى استشعرها العباسيون من القوى الصوفية النامية ، التى أخذت تهيمن على العراق فى القرن الثالث الهجرى .

يقول العلامة ابن الأثير بعد أن شرح الموقف فى الإمبرطورية العباسية والصراع الناشب بين الفرق والطوائف[2] : « ولكن فرقة واحدة بقيت بعيدة عن التعصب ، ألا وهى فرقة الصوفية ، فقد كانوا يمتازون بسلامة الفكر والعفة والأخلاق الحميدة كما كان أفق تفكيرهم أوسع بكثير من غيرهم فأكسبهم هذا حب كثير من الناس ، وأخذ نفوذهم يزداد ويقوى ، وهرع

---

(١) شخصيات قلقة .

(٢) نظام الكنجوى ص ٦٥ .

كثير من الناس إلى حظيرتهم بعد أن رأوا جور الزمان وقسوته ، وكثرت مجالس الصوفية وأقبل الناس عليها » .

تلك هى مكانة التصوف فى العراق خلال تلك الحقبة من التاريخ ، لقد غدا أتباعه ، القوة الحية النامية فى المحيط الممزق المضطرب .

وكان فى بغداد ، عمالقة من الأئمه الروحانيين ، وزعماء من القادة الصوفيين . . . كان هناك أبو القاسم الجنيد ، والشبلى ، وسهل التسترى ، وعمر المكى ، والسرى السقطى وغيرهم من الأقطاب الكبار .

ولكن الحلاج ، كان أقواهم شخصية ، وأوسعهم نفوذا ، وألصقهم بالجماهير ، وأكثرهم قدرة على حمل راية الكفاح والنضال .

كان الحلاج يحمل روح ثائر ، وقلب قطب ، وعقل زعيم ، وروح محب عابد ، وكان يؤمن بالتصوف القرآنى الإيجابى ، الذى يسهم فى الأحداث ويوجهها ، ويترك طابعه عليها .

وكان يبشر عن عقيدة ثابتة لا تتزلزل ، بحكومة الأقطاب الروحانيين : كما كان يؤمن بأثر الصلاة والعبادة ومحبة الله ، فى إصلاح المجتمع ، والارتفاع بالجماهير إلى أفق أنبل وأعلى .

ومن هنا كان الحلاج فى نظر الخلافة العباسية ، هو الزعيم الصوفى الذى يهدد سلطانها ونفوذها . ويؤلب الجماهير ضد مظاهر الترف والإسراف والشهوات العالية الصوت فى محافلها وقصورها .

يقول الاصطخرى : « إن كثيراً من علية القوم فى بغداد رأوا فى الحلاج . أنه هو الرئيس القطب المنقذ .

وفى طليعة من آمن به من الوزراء : على بن عيسى . وحمد القنائى ، والدولابى ، ونعمان ، ومحمد بن عبد الحميد .

ومن الأمراء : الحسين بن حمـــدان ، ونصر القشورى ، ومن ولاة الأمصار أبو بكر الماذرائى ، ونجح الطولونى ، ومن دهاقين فارس وأشرف الهاشميين ، ابو بكر الربعى ، وأحمد بن عباس الزينبي .

ثم يقول : وكانت له معهم مراسلات مما هيأ لهم الهداية ، وهيأ له الخوض فى السياسة ، وواجبات الوزراء » .

وتلك الصورة التى رسمها لنا الاصطخرى ، تدل دلالة كبرى على مدى الأثر الكبير ، والنفوذ الواسع ، الذى ظفر به الحلاج ، فى الدوائر العليا للخلافة العباسية .

يقول ـ ماسنيون ـ : « لقد طالب الحلاج بإصلاح الإدارة الحكومية فى جرأة غير مسبوقة . ونادى بإقامة حكومة إسلامية حقا ، ووزارة كما يقول : تحكم بالحق والعدل بين الناس ، وهاجم عمال الخراج ، وطالب كما يقول : بخلافة تشعر بمسئوليتها أمام الله جل جلاله ، مما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض دينهم ، من صلاة وحج وصيام » .

تلك بعض الومضات التى تومىء إلى بعض جوانب الرسالة التى نهض بها الحلاج ، والتى سنعرض لها بالتفصيل والبيان .

ولن يضير الحلاج ، أن النجاح لم يكتب لرسالته ، وأنه قدم حياته فداء لتلك الرسالة ، فقد يكون الاستشهاد فى سبيل الفكرة والعقيدة ، أسمى ألوان النجاح ، وأعلى ضروب النصر .

أو كما يقول ابن أبو الخير فى ملحمته الحلاجية : «إن الموت على مصلب الحلاج ، ميزة الأبطال » .

ويقول حافظ الشيرازى ، شاعر التصوف الإسلامى ، فى إحدى قصائده

« أن تصلبني الليلة ، فإن دمي يخط على الأرض ــ أنا الحق . مثــل منصور الحلاج » .

ولما أراد جلال الدين الرومي ، عبقري الشعر الفارسي الصوفي . أن يصعد بفريد الدين العطار . في معارج الحب الإلهي . وفي مجالات البطولة الخالدة قال : إن روح الحلاج تجلت في العطار » .

ثم عقب بقوله : « لقد بلغ الحلاج قمة الكمال والبطولة . كالنسر في طرفة عين » .

لقد كانت تضحية الحلاج هي سر خلوده . فقد صعد الحلاج بتلك البطولة الفدائية إلى قمة الكمال كالنسر الجبار الجناح . وغدا في قلوب المتصوفة وعقولهم . محجة ومنارة ترشد إلى المثل الأعلى في إشراقاته وإلهاماته .

وأصبح الحلاج بهذا الاستشهاد الأسطوري الملهم الأكبر لمواجيد الشعراء وألحانهم وأغانيهم في الأفق الصوفي .

فهو في الشعر التركي . الولي الأكبر . وهو لدى الهنود : شهيد الحق وهو الملهم الأول لعباقرة الشعراء الفارسيين العالميين . حافظ الشيرازي . وجلال الدين الرومي . وفريد الدين العطار .

وامتد إلهامه عبر القرون ، فنشأت الفرق الصوفية الكبرى . على وقع نغماته ودعواته . وهدى تفكيره وآدابه . حتى أن البكتاشية التي هيمنت على تركيا وألبانيا . قروناً عديدة . ترجع في أصولها إلى الحلاجية .

يقول الدكتور عبد الوهاب عزام[1] ــ فكان عند الصوفية ولاسيما صوفية العجم والهند . كالمسيح عند النصارى . واتخذوا كلماته شعاراً ودثارا . وأشادوا بذكره . وجعلوه مثلا للصوفي الفاني في الله » .

ويقولة المستشرق ماسنيون[2] « إن أقوال الحلاج ترسم له حياة بعد

(١) كتاب فريد الدين العطار والتصوف . ص ٣٠

(٢) شخصيات قلقة ص ٨٥ .

عوته . ذات طابع حضارى عميق . وأكثر صدقاً من الناحية الاجتماعية . من الشهرة الأدبية التى نالتها نماذج . مثل الإسكندر . او قيصر لدينا فى الغرب » .

ثم يقول: «كان الحلاج نموذج الولى الذى مجده الشعب التركى المجاهد الذى اقبل على الإسلام فى أعقاب مصرع الحلاج » .

. ويتحدث فريد الدين العطار عن مدن العشق السبع ثم يقول : «الحلاج ذلك الشهيد العالمى . الذى قدم للدنيا صورة الولاية الكبرى ، وقد بلغت أوجها فى تضحية حربية ، مليئة بالرجولة . مليئة بالإلهام » .

ويستعرض ماسنيون الامتداد الروحى للحلاج . فيقول : إن دم الحلاج يعتبر بذرة روحية تضمن استمرار الإلهام لمحبيه . ثم يقول : « والحلاج يدعى فى الدعوات الشخصية ، خصوصاً فى بلاد الترك لوقف بكاء الأطفال الصغار . ولا يزال قبره التذكارى الخالى من رفاته الذى أقيم له فى بغداد . كعبة الزائرين .

والمزمار الرئيسى فى الحفلات الموسيقية الروحية عند المولوية يدعى باسمه — ناى منصور » .

لقد كان الحلاج دائماً يقول فى دعواته : « يا معين الفناء علىّ أعنى على الفناء » .

وسواء كان يقصد فناء الحب . أوفناء الامتداد الروحى . فقد استجاب الله الدعاء ، فاستعصى الحلاج على الفناء . وحلق خالداً فى آفاق الشهداء . وستبقى قطرات دمه بذرة روحيـــة . تضيف فى كل يوم إلى التصوف الإسلامى قوة ونماء .

وذلك خلود من ظفر بجوهرة الحب الإلهى . واستشهد فى سبيلها .

عصره وحياته

الفرس والتصوف :

يقول عبقرى الفكر الإسلامى العلامة الفيلسوف البيرونى : « العلم شجرة أصلها بمكة ، وثمرها بفارس » وهى كلمة من الكلمات التى تلقى بالأضواء على التاريخ .

لقد كان فجر البعث القرآنى بأم القرى ، وعلى قيثارة الوحى ، تفتحت مشاعر العرب للهدى ، فحملوا كلمات الله إلى آفاق الدنيا ، يخرجون الناس من الظلمات إلى النور ، ويهدون الإنسانية صراطاً مستقيما .

وتسلم الفرس من العرب تراث الوحى غضاً مشرقا ، بكل ما فيه من نور وقوة ، وإلهام وحياة .

وتفجرت فارس عيوناً ، وتفتحت آفاقاً ، وربت فيها الثقافة الإسلامية وتلألأت ، وأينع ثمرها ، وأتت أكلها ، وتبعثت قواها ، مبدعة وصانعة ، لأكبر نهضة ثقافية عرفها التاريخ ، حتى رأينا عجبا ، وشهدنا إعجازا ، ففى كل قرية ، عباقرة كبار ، وفى كل أفق ، نجوم وأقمار ، وفى كل مكان أئمة عمالقة ، يبدعون ويبتكرون وينشئون ، ومن هنا جاء الخبر المأثور : « لو كان العلم بالثريا ، لناله رجل من فارس » .

وأبناء فارس كما يقول ابن النديم : « مشبوبو القلب والعاطفة والخيال ، فيهم استجابة فطرية ، للمعارف الروحية ، والأذواق الوجدانية ، ومن ثم

وجد التصوف الإسلامى ، فى أرض فارس أفقه ومجالاته ، والينابيع التى تمده بالزكاء والنماء ، والقلوب التى تتفتح له وتقتات به .. وكما يقول المستشرق — ماسنيون[1] : « أصبحت فارس الملهمـــة ، المركز الأكبر للتصوف الإسلامى ، الذى يوافق فطرتها وملكاتها » .

ويحدثنا الدكتور عبد الوهاب عزام عن أثر شعراء فارس فى تشكيل الحياة الروحية وتعميقها فى الإسلام فيقول[2] : « وبلغ شعراء فارس فى هذه السبيل غاية لم يدركها شعراء أمة أخرى، فأخرجوا المعانى الظاهرة والخفية، والجليلة والدقيقة ، فى صور شتى معجبة مطربة ، وقد فتح عليهم فى هـذا فتحاً عظيما ، فكان شعرهم فيضاً تضيق به الأبيات والقوافى والصحف والكتب ، حتى ليقف القارىء حائراً . . كيف تجلت لهم هذه المعانى ، وكيف استطاعوا أن يشققوا المعنى الواحد إلى معانى شتى ، ثم يخرجوا كل واحد منها فى صور شتى عجيبة ، كأنها أزهار المرج ونباته تزدحم فى العين ألوانها وأشكالها ، وماؤها واحد ، وترابها واحد :

ثم يقول : « . . لقد تحول الشعر الفارسى كله ، إلى شعر صوفى ، فلا يخلو شاعر فارسى من نزعة صوفية تظهر فى شعره ، لشد ما سيطر شعراء الصوفية على الشعر الفارسى » .

وبقيام الدولة العباسية ، انتقل النفوذ السياسى، والثقل المادى ، وترف الحضارة ونعيمها وجلالها إلى فارس، فغدت محور الحياة الإسلامية السياسية والعلمية ، بل غـــدت فارس أفقاً عالمياً تتشابك فيه وتتصارع التيارات الفكرية والقلبية ، وتلتقى فيه وجها لوجه ثقافات الأمم شرقية وغربية .

ويصف لنا المؤرخ الكبير ياقوت : المكتبات العلمية العامة بمدينة « مرو » إحدى مدن فارس التى لا تبلغ مرتبة العواصم فيقول[3] : « يوجد

---

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام .
(٢) التصوف وفريد الدين العطار ص ٤٢ .
(٣) معجم البلدان ص ٣٥

بها عشرة خزائن للكتب لم أر فى الدنيا مثلها ، منها خزانتان فى الجامع . إحداهما يقال لها « العزيزية » وفيها اثنى عشر ألف مجلد . للناس كافة، وكانت سهلة التناول لمن يريد . . ولا يفارق منزلى مائتا مجلد ، وأكثرها بدون رهن . . ثم يقول : وأنسانى حبها كل بلد ، وألهانى عن الصحب والولد ، وأكثر فوائد كتبى من تلك الخزائن » .

ويصف الإمام « الجوينى » أرض فارس فيقول : « مطلع السعادة والمبرات ، وموضع المراد والخيرات ، ومنبع العلماء ، ومجتمع الفضلاء ، ومرتع العظماء » .

أما ابن خلكان . فيحدثنا فى كتابه « وفيات الأعيان » عن فارس حديثا يحلق على أجنحة حبها وتقديرها ، حتى يصفها بأنها الجنة التى وعد بها المتقون ، فيها متاع الأعين والعقول ، أو كما يقول : إنها نموذج الجنة يلاقين فيها ما تشتهى الأنفس ، وتلذ الأعين . وتزكو به القلوب والعقول » .

وفى جو تلك الحضارة العلمية الشامخة ، وفى عنفوان هذا الترف الثقافى والحضارى ، كان قلب فارس ، يخفق بالتصوف سلوكا ومعرفة ، وكان أبناء فارس ينظرون إلى التصوف نظرة الإجلال والإكبار والتقديس ، ويجدون فى مناهجه القلبية والروحية ، صدى لما يضطرب فى أعماقهم من أشواق وأذواق ، وما يتلألأ فى معارفهم من إشراقات وإلهامات. بل يرون فى التصوف وجه القرآن وعلومه وأنواره ، وأسرار هذه العلوم والأنوار ، ويرون فيه فوق هذا وذاك ، مجالا ومسرحا للقلوب المتعلقة بعرش ربها ، القلوب التى تقتات بذكره وحبه ، وتتلقى من إلهامه وفيضه .

فجر التصوف وضحاه

ومع مكانة التصوف الكبرى في الفكر الإسلامى ، وما قدمه للحياة الإسلامية فى شتى مراحلها ، من مناهج فى المعرفة والأخلاق ، والسلوك الاجتماعى ، وما أفاض على الثقافة الإسلامية من معان مشرقة عالية ، فى كل ما يتصل بالروح والقلب ، وصلة الإنسان بخالقه ، وسيره إلى محبته ورضوانه ، وما أبدع فى هــــذا السير من أحوال ومقامات وأذواق ومشاهدات وإلهامات ، سهمت فى تعميق المعانى القرآنية واتساعها وشمولها كما سهمت فى تكوين تلك الحياة الروحية التى أصبحت من أكبر العناوين المتلألئة فى جبين الدعوة الإسلامية ، وفى أفق رسالتها العالمية .

مع هذه المكانة الضخمة ، لا تزال الأقلام قلقة مضطربة ، تتناول نشأة التصوف وتدرجه وأثره فى التاريخ الإسلامى .

وسر هذا الاضطراب ، إن كتب الطبقات الصوفية ، لم تضع منهجاً علميا لتاريخ الحياة الروحية فى الإسلام ، فقد اعتبرت أئمة الصحابة جميعا من رجال الطبقات الصوفية ، ومن ثم ، اعتبرت بداية الإسلام ، هى بداية التصوف ؟

وجاء رجال التاريخ الإسلامى ، وجلهم من الحنابلة الذين خاصموا منهج التصوف فى المعرفة والسلوك ، فلم تتجه أقلامهم إلى تدوين تلك الحياة الخصبة المثمرة ، بل ألقوا عليها ستارا ، ولم يرجو لها وقارا !!

ثم جاء رجال الاستشراق فى عصرنا ، فبذلوا جهودا ضخمة فى دراسة التصوف الإسلامى ، ورجاله وتراثه .

ولكن هذه الجهود الضخمة ، شابها وشوه من جلالها . عقدة نفسية تحملها أقلامهم ، وتستقر فى أعماق قلوبهم ، وتدفعهم دفعاً إلى تصوير التصوف الإسلامى ، فى أثواب مستعارة من الملل والنحل الروحية ، شرقية وغربيه ، وتدفعهم دفعاً إلى تحميل الكلمات والآراء أكبر مما تطيق ، وأوسع مما تحتمل ، ليضفوا على التصوف الإسلامى ، صوراً غنوصية غامضة . من صور الغنوص الشرقى ، الذى يستهوى رجال الاستشراق ، وشعوب رجال الاستشراق .

وتابعهم وجرى فى ساحتهم فريق كبير من كتابنا ، بحكم التلمذة لهم حيناً ، وبحكم التشدق بآراء مفكرين أوربيين أحياناً ، وبحكم جهلهم بالإسلام والتصوف أولا وقبل كل شيء .

ولسنا هنا بصدد التاريخ لهذه الحياة ، وإنما نحاول أن نرسم خطوطاً لها فى نموها وتطورها ، تعنينا على تفهم منهج الحلاج الروحى ، وصلة هذا المنهج الحلاجى . بالإسلام والتصوف ، أو مجانبته لهما .

لقد وجد الروح الصوفى مع الإسلام منذ يومه الأول ، وليس معنى هذا ، أن الأذواق والمواجيد القلبية والروحية ، والمناهج الصوفية سلوكا ومعرفة ، كانت واضحة جلية ، فى أيام الإسلام الأولى ، وفى حياة أئمة الصحابة رضوان الله عليهم ، ففى هذا الزعم إسراف ومجانبة للحقائق .

ولكننا لو تأملنا فى آيات القرآن المحكمة ، وفى حياة الرسول الطاهرة ، وسير صحابته المشرقة ، نجد البذور الأولى ، للسلوك الصوفى ، وللمعرفة الروحية ، مبينة متلألئة .

وليس التصوف بدعا فى هذا فكل منهج من مناهج المعرفة فى الإسلام انبثق كما انبثق التصوف من روح القرآن ، وجوهر رسالته ، وبدأ كما بدأ

التصوف مع الإسلام ، ثم نما وتطور ومشى مع خطو الحياة ، وسنة الله .

فإننا مثلا نستطيع أن نقول مع الفقهاء ، إن الفقه نشأ مع الإسلام وليس معنى هذا القول أن التفريعات الفقهية ، والاستنباطات والمصطلحات الفنية ، كانت صدر الإسلام . . وفى الكتاب والسنة ؟ وإنما كانت هناك البذور الأولى ، والمادة الأولى ، التى نمت وتطورت ومشت مع الحياة .

كان التصوف موجودا فى صدر الإسلام بروحه وهديه ، وآدابه وخلقه ، وترفعه وزهده ، وعباداته وطاعاته ، وذكره ومناجاته ، كان موجودا بجوهره لا بمصطلحاته ، وقائما بكلياته لا بجزئياته.

كان التصوف فى صدر الإسلام . هو هذا الروح الدينى المهيمن المسيطر على حياة المسلمين كافة ، الموجه لحركاتهم وسكناتهم ، الصاعد بأعمالهم ونواياهم ، إلى خالقهم ومولاهم .

كان هذه الرقابة الحية اليقظة التى أقامها كل مسلم فى أعماقه ، ليراقب ماتوسوس به نفسه ، وما يصطرع فى قلبه ، وما يتواثب فى نفسه ، ومايخفى صدره ، وما تطرف به عينه .

كان هذا الترفع الشامخ عن شهوات الدنيا وزخرفها ، والإعراض عن بريقها وفتنتها ، والزهد فى ترفها ومظاهرها ، والتسامى بكل ما فيها إلى وجه الله ، حتى يظفر بحبه ورضاه ، وقربه وهداه ، لأن الدنيا لا تزن عنده جناح بعوضة ، ولأن الآخرة خير وأبقى .

ثم مشت الحياة بالمسلمين ، وفتحت عليهم الدنيا ، وابتعدت مسامعهم عن نغمات الوحى ، وتفرقت قلوبهم عن الميثاق والعهد ، وانحلت العزائم ،

وفترت الهمم ، وتسارع الناس إلى المال والجاه ، ولهو الحياة ، ونشأت الفتن ، واختصموا على الملك ، وتصارعوا وتباغضوا ، وتشعبت بهم السبل .

ونشأت تبعاً لذلك ، حركات مضادة ، ورسالات مجاهدة ، صمدت فى وجه العاصفة . . ويحدثنا تاريخ النصف الثانى من القرن الأول للهجرة ، عن وعاظ ومرشدين ، وقفوا على أسوار القرآن ، ومعالم السنة ، ينذرون الناس ويدعونهم إلى ربهم ودينهم ، تميزهم شجاعة نفسية عالية ، أعانتهم على مواجهة الجبروت والاستبداد الذى بدأت طلائعه فى أفق الحياة الإسلامية .

وبجوارهم رأينا طائفة من الزهاد ، الذين وقفوا فى وجه فتنة الترف والإسراف ، وأخذوا يديرون لحونهم وأحاديثهم ، حول فضائل النفس ، وآداب الحس ، وتزكية الجوارح ، والزهد فى الدنيا ، وهوان أمرها ، وزوال نعيمها ، وضلال شهواتها .

ثم رأينا العباد المتبتلين ، الذين انقطعوا إلى طاعة الله ، وعبادته وذكره ، وأحالوا الكون إلى محاريب للصلاة والمناجاة ، ومنابر للتحدث عن نعم الله ، وعن عظمته وجلاله ، والأنوار التى يفيضها على الساجدين المتطهرين .

ومن هؤلاء وهؤلاء ، تكون الرعيل الأول ، من الصفوة الربانيين ، الذين عرفوا فى التاريخ باسم الصوفية ، أو كما يقول ابن خلدون : « اختص المقبلون بأنفاسهم على الله باسم الصوفية » .

ثم ابتدأت تتكون لهذه الطائفة ثقافة إيمانية ، لها لونها وطابعها وخصائصها الفنية .

ثقافة تدور حول ذكر الله وإلهاماته ، ومجاهدة النفس ، وما ينبثق من هذه المجاهدة ، من آداب السلوك ، ومقامات السير ، ويتوج كل هذا الصلة بالله سبحانه ، وما يترقرق حول هذه الصلة ، من أذواق ولحون ،

ومواجيد وأشواق ، ثم ثمرة هذا كله ، وهو المعرفة الباطنية ، وما تفيض هذه المعرفة من علوم وأنوار .

ومن ثم بدأت الحياة الروحية ، تنفصل عن الحياة العامه ، وتستقل بمناهجها ومعارفها ، وابتدا الصوفية يصطنعون كلمات تحدد أذواقهم ،وتعبر عن شعورهم . . وأخذ أفق هذه الكلمات يتسع لمعان متعددة ، وكانت كل كلمة تضاف إلى التصوف ، تفتح أفقاً جديداً ، وتكون نبعاً متدفقا ، وتتناولها السنة الصوفية ، فتفتقها وتبتدع لها صوراً وألواناً وأذواقا .

ثم أخذوا يكونون لهم فلسفة فى الأخلاق ، وفى السلوك ، وفى العبادة وأخذوا يجردون الأسباب من قوتها ، ويرجعون كل شيء إلى الله سبحانه ، فأكسبهم ذلك عزة خلقية ، وسعادة روحية ، قوامها الرضا بقضاء الله وقدره ، واليقين بأن لاسلطان لقوة من قوى الأرض على مصائرهم وحياتهم ؛ أوكما يقول إبراهيم بن أدهم : « نحن فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيف » .

كما أفاضت عليهم الثقة بالله والتوكل عليه ، شجاعة نفسية ، وقوة إيمانية ، لا تسامقها قوة ولا شجاعة ، يقول إسحق بن إبراهيم السرخسى : « سمعت ذا النون المصرى ، وفى يده الغل ، وفى رجليه القيد ، وهو يساق إلى المطبق ، والناس فى بغداد يبكون حوله ، وهو يقول : هذا من مواهب الله تعالى ، ومن عطاياه ، وكل فعله عذب حسن طيب » .

تلك الشجاعة الصوفية الشامخة التى ستبلغ ذروتها فى البطل الشهيد الحلاج ، حينما صمد للمأساة صموداً لايطاوله فى التاريخ صمود .

هذه خلاصة سريعة للمعارف الصوفية ، فى القرن الثانى للهجرة ، ثم جاء القرن الثالث ، فبدأ معه العصر الذهبى للتصوف ، أو عصر النضوج العلمى للحياة الروحية .

تطور المعارف الصوفية

فى القرن الثالث الهجرى

وفى مطلع هذا العصر ، أخذت معانى الحب الإلهى ، الذى سمعنا جرسه لأول مرة فى ألحان رابعة العدوية ومواجيدها ، أخذت معانى هذا الحب تتسع ، وتتلون بها المقامات والأحوال ، وأخذت كلمات الأنس والبسط والرجاء والخوف ، واليقين والمشاهدة ، تشيع وتؤتى ثمارها ، وتدرجت على أجنحة الحب ومعارجه حتى وصلت بالصوفية إلى مقام الفناء ، وهو أخطر مقامات التصوف وأبعدها أثراً فى تاريخه .

والفناء هو غاية الصوفية ففيه يشربون رحيق الحب الأعلى ، وينعمون فيه بمتع ولذائذ روحية تنسيهم دنياهم وأخراهم ووجودهم ، وكل شىء سوى المحبوب .

والحب أساس الأحوال الصوفية ،وقد اعتبر كما يقول « السهروردى » أساسا للأحوال ، كالتوبة بالنسبة إلى المقامات ، فمن صحت توبته على الكمال، تحقق بسائر المقامات ، من الزهد والرضا والتوكل ، ومن صحت محبته ، تحقق بسائر الأحوال ، من الفناء والبقاء والصحو والمحو[1] .

ومن الحب تنشأ المعرفة والمشاهدة ، ولذة المعرفة والمشاهدة ، وفى الحب يتمتع المحب بالجمال المقدس، وياله من جلال وجمال ؛ ونشوة الحب الكبرى تسمى سكرا ، والسكر علامة الصدق فى الحب ، وهو نشوة روحية لا يمكن تصورها إلا بالتجربة ، كما يقول الإمام الغزالى ، ولذلك قالوا من ذاق عرف[2] :

---

(١) عوارف المعارف ص ٣٥٠

(٢) إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٩٦

وهذا السكر الروحى ، حدقة يرى بها الصوفى ، حقيقة الكون ، وسر الخلق ، يقول معروف الكرخى : « إذا انفتحت عين بصيرة العارف نامت عين بصره . فلا يرى إلا الله » .

ونهاية السكر هو الفناء ، وفيه يغنى المحب عن الموجودات ، ويتجه بكليته لمطالعة وجه المحبوب .

والفانى كما يقول الصوفية : لا يحس بما حوله ، ولا يحس بنفسه ، فقد فنى عما سوى الله ، ومن هنا جاء كلام الصوفية الذى لا يفهمه ولا يتذوقه سواهم ، حينما يقولون ، فى نشوة الفنـــاء ، ووقدة الحب : « ليس فى الوجود إلا الله » .

إنها تجربة عليا ، تجربة ذاتية فى عالم الروح والسر ، تجربة كان أقوى وأجرأ من تحدث عنها « الحلاج » حينما بلغ الذروة العليا لمقام الفناء ، أو مقام الاتحاد ، وحينما ابتدع الحلاج من هذا المقام معارف صوفية ، تتحدث عن وحدة الأديان ، والنور المحمدى ، ووحدة المحب والمحبوب .

ويأتى بعد مقام الفناء ، مقام البقاء ، ويأتى بعد الوحدة ، مقام الجمع ، وبعد الجمع ، مقام التفرقة .

ومقام الجمع ، هو رؤية الحق بلا خلق ، وهى حالة وجدانية ، أو حالة دهشة وغيبة ، مع فقدان الإحساس بالأشياء وبالنفس .

والمحب هنا يعزل نفسه عن صفاتها ، بأن ينظر ، وكأنه بمثابة النُظر لا الناظر ، ويسمع ويعى وكأنه بمثابة السمع والوعى ، لا السامع والواعى ويتكلم وكأنه بمثابة الكلام لا المتكلم .

إنه مقام إشارة ، إلى حق بلا خلق . . . وحالة الجمع هذه هى الحالة التى قال فيها الصوفية ، الكلمات الجريئة التى عرفت ، باسم « الشطح » والتى

هو جم التصوف والصوفية من أجلها ، وتضرب الأمثال بكلمة أبى يزيد البسطامى « سبحانى » ويقول الحلاج : « أنا الحق » .

وقد قيل لشيخ الطائفة الجنيد : « إن أبا اليزيد يسرف فى الكلام فقال : وما بلغكم من إسرافه فى كلامه ؟ قالوا : سمعناه يقول : سبحانى .. سبحانى .. أنا ربى الأعلى .. ؟

فقال الجنيد : إن الرجل مستهلك فى شهود الإجلال ، فنطق بما استهلكه لذهوله عن رؤيته إياه ، فلم يشهد إلا الحق تعالى ، فنعته فنطق به[1] .

ويعتبر كبار الصوفية ، مرحلة الجمع هذه ، أدنى مما يجب أن يكون عليه الكمل من المخبين الذين يجب أن يتحققوا بما يسمونه : جمع الجمع : أو « صحو الجمع » أو « الفرق الثانى ؟ ؟ » .

وهى مرحلة تعقب الجمع السابقة ، ويجمع الصوفى فيها بين الجمع والفرق معا ، لأنه لابد للعبد منهما ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له .

وحالة جمع الجمع هذه ، حالة وعي وصحو وإدراك ، مع بقاء المعرفة الصوفية ، التى كانت فى حالة السكر فلا يزول عن صاحب المقام إدراك الوحدة ، إذا نظر إلى الكثرة ، أو إدراك الكثرة إذا نظر إلى الوحدة .

وهذه حالة فيها جمع من وجه ، وتفرقة من وجه ، فالجمع باعتبار الشعور بالوحدة ، والفرق لإدراك الخلق ، وصور الكون كما هى .

ومن المتحقق بهذا المقام أبو القاسم الجنيد . ويقول فى هذا المعنى .

وتحققتــك فى السر فنــاجاك لسانى

فاجتمعنــا لمعــان وافترقنا لمعــان

---

(١) شطحات الصوفية ص ٦٨

إن يكن غيبـــك التعـ ظيم عن لحظ عيانى
فلقد صيرك الوجد م من الأحشاء دانى

فالجنيد يجمع لمعان ، ويفرق لمعان ، وهذا هو جمع الجمع ، وحال العارفين الكمل ، المحلقين على أجنحة الوجد .

* * *

ومقامات التصوف ومعارفه ومناهجه ، أفق يتلألأ جمالا وكمالا ، أفق صاغه الإلهام ، وفتق جوانبه الإيمان ، وشيد سماواته الحب الإلهى ، ومايفيض هذا الحب من مشاهدة يقينة ، وعلوم فيضية ، ومنح ربانية .

أفق مترامى الأبعاد ، تعجز العقول المادية الأرضية عن ارتياده ، واكتشاف أسراره ، والاهتداء إلى أنواره .

إنه أفق لأصحاب العقول والأذواق ، الذين صفت أرواحهم بالطاعة ، ورقت بالمجاهدة ، وشقت بالمحبة ، وسمت بالاصطفاء ، حتى شهدت بالاجتباء مالا عين رأت ، مالا أذن سمعت ، ونعمت بما لم تنعم به القلوب التى لم تبرح نطاق الماء والطين .

والقرن الثالث للهجرة ، يعتبره الصوفية أكبر وأخطر مرحلة فى تاريخ الحياة الروحيه .

إنه العصر الذى بلغ فيه التصوف ضحاه ، واكتمل نموه ، وشيد صرحه وتدعمت مدارسه .

العصر الذى شهد الأعلام الأئمة الكبار الذين يدين لهم التصوف بخطوطه العريضة المضيئة .. العصر الذى عاش فيه ، الحارث المحاسبى (ت سنة ٢٤٣ هـ) سيد المتحدثين عن دقائق ورقائق المحاسبة والمراقبة ، وذو النون المصرى (ت ٢٤٥ هـ) أكبر المتكلمين عن أسرار المقامات والأحوال ، وأبو اليزيد البسطامى (ت ٢٦٤ هـ) بتحليقاته وإلهاماته فى

مقامى الحب والفناء ، وأبو سعيد الخراز (ت سنة ٢٧٧ هـ) أستاذ مدرسة السلوك القلبي ، والخلق المثالى ، وسهل بن عبد الله التسترى (ت ٢٨٣ هـ) مربى العافين القانتين ، وشيخ الطائفة وإمامها ، أبو القاسم الجنيد (ت سنة ٢٩٧) الحجة الذائق ، الواصل فى مقام التمكين .

وأخيراً الشهيد ، الحسين بن منصور الحلاج ، الذى بلغ به التصوف كما يقول «ماسنيون» أقصى درجاته الفنية ، وتحقق فيه الرمز الأعلى للصوفى المحب الفانى .

والحياة الصوفية فيه فى القرن الثالث الهجرى ، بكل ما فيها من عظمة وإشراق ، وأسرار فى المقامات والأحوال ، وبكل ما اشتملت عليه ، من محبة وفناء ومشاهدة ، وفرق وجمع وفتح ، وجهاد فى سبيل الكمال واستشراف للمثل الأعلى .

كل هذا نشاهده مبيناً واضحاً مصوراً فى حياة الحلاج ، ونضاله ، وصراعه واستشهاده .

بل إن الحلاج ، ليعرض علينا ، آفاقاً قلبية ، ومعارجاً روحية ، وألواناً من الحب الإلهى وإلهاماته ، وما فيه من شوق ووجد ، وعذاب وحرقة ، وتقلب فى ملكوت المشاهد والأنوار ، لا نراها عند غيره .

لقد انبثق الحب الأعلى ، الحب الأعظم فى قلبه ووجدانه ، وحسه ، ودمه وكيانه ، فأذهله وحيره ، وأفناه عمن سواه ، حتى لنراه ، فى أسواق بغداد بقامته الفارعة ، ولونه الأسمر الجميل ، وسمته المهيب ، ومنطقه الساحر ، وهو يهيم على وجهه ، وقد صرعه حبه ، وهو يصيح :

« يا أهل الإسلام . أغيثونى ؟ فليس — أى الله — يتركنى لنفسى فآتهى بها ؟ وليس يأخذنى من نفسى فأستريح منها ، وهذا دلال أطيقه[1] .

---

(١) محاضرات الأدباء ج ١ ص ٢٣٠ .

مولده

فى بقعة من بقاع فارس الجميلة العريقة ، الغنية بخيرات أرضها ، وثمار عقول أبنائها ، وفى ضحى العصر الذهبي للتصوف ، فى مطلع عام — ٢٤٤هـ ٨٥٨ م — ولد الحسين بن منصور الحلاج . فى بلدة « تور » فى الشمال الشرقى من مدينة البيضاء[١] .

وتقدم لنا دائرة المعارف الإسلامية ، روايتين متناقضتين عن نسبه ، فالرواية الأولى تصعد به إلى أبى أيوب الأنصارى الصحابى الجليل ، وبذلك تجعله عربياً خالصاً . وتقول الرواية الثانية : إنه حفيد مجوسى من أبناء فارس[٢] .

والرواية التى تنسبه إلى الأنصار لم تثبت تاريخا ، ولم يقل بها مؤرخ عربى ، فإجماع رجال التاريخ ، على أنه فارسى الأصل ، كما هو فارسى المولد .

يقول ابن كثير[٣] : « هو الحسين بن منصور بن محمى الحلاج أبو مغيث ، ويقال أبو عبد الله ، كان جده مجوسيا ، اسمه « محمى » من أهل فارس من بلدة يقال لها البيضاء . ونشأ بواسط ، ويقال بتستر » .

ويقول المستشرق «ماسنيون»: إن البقعة التى ولد فيها كانت من اعظم مناطق النسيج فى الإمبراطورية الإسلامية . وإن والده كان من عمال

---

(١) البيضاء مدينة مشهورة بفارس . وهى أكبر مدينة فى كورة « اصطخر » وسميت البيضاء لأن لها كما يقول فى معجمه ، قلعة تبين من بعيد ويرى بياضها . وكانت معسكرا للجند الاسلامى ، ومن أبنائها التاريخيين العلامة النحوى سيبويه .

(٢) الجزء الأول من المجلد الثامن ص ١٧ .

(٣) البداية والنهاية ج ١١ ص ١٣٢ .

النسيج ، ولهذا سمى حلاجا ، وهو استنتاج فكرى من « ماسنيون » لم يقم عليه من التاريخ شاهداً أو دليلا .

أما الروايه التاريخية التى أوردها ابن خلكان فى وفيات الأعيان فتروى عن ضميره بن حنظلة السماك قال : « دخل الحلاج واسط[1] وكان له شغل ، فأول حانوت استقبله كان لقطان ، فكلفه الحلاج السعى فى إصلاح شغله ، وكان للرجل بيت مملوء قطنا ، فقال له الحسين : اذهب فى إصلاح شغلى ، فإنى أعينك على عملك ، فذهب الرجل ، فلما رجع رأى كل قطنه محلوجا وكان أربعة وعشرين ألف رطل ، فسمى من ذلك اليوم حلاجا ولازمته هذه الكنية طول حياته » .

وقد أورد ابن كثير[2] أيضاً هذه الرواية ، وأضاف إليها رواية أخرى تقول : إن أهل الأهواز اطلقوا عليه هذه التسمية لأنه كان يكاشفهم بما فى قلوبهم فسموه . « حلاج الأسرار » .

وبعد مولد الحلاج بقليل ، اضطربت أحوال والده المالية ، فرحل من بلدة «تور» إلى مدينة «واسط» ينشد العمل فى ميادينها الاقتصادية الكبيرة .

وكانت واسط ، مركز من مراكز الإشعاع الفكرى والروحى فى فارس أسس بها الأشاعرة مدرستهم الكبرى ، وأوجد فيها العلامة أبو على الجبائى ، نشاطاً ثقافياً ، وتياراً علمياً حراً ، يخضع كل شىء لمنطقه وطرائفه .

كما أقام بها الحنابلة مدرسة للقراء ، ومعهداً للحديث ، واتخذوا من مساجدها مقاعد للبحث والدرس ، والجدل والحوار .

وفى هذا الجو العلمى الحر الحىّ ، نشأ الحلاج ، ولفت إليه الأنظار منذ طفولته ، بذكائه المتوثب اللماح ، وشفافية روحه ، وتفتح قلبه ، وحبه

(١) واسط مدينة بناها الحجاج الثقفى تقع بين البصرة والكوفة — معجم البلدان ج ٤ ص ٨٨١

(٢) البداية والنهاية ج ١١ ص ١٣٣

وإقباله على ينابيع العلم والمعرفة ، حتى ليحدثنا تاريخه ، إنه قرأ القرآن الكريم على أعلام القراء فى عصره ، وحفظه وجوده ، وهو فى العاشرة من عمره ، وتعمق فى فهم معانيه ، تعمقا ليس من طبيعة الطفولة الغضة .

كما اشتهر بالإرادة القوية الموجهة ، والرياضات والمجاهدات الروحية الشاقة ، والزهد فيما يقبل عليه لذاته من شئون الحياة ، ولهو الطفولة ، والاستغراق الكامل فى الصلاة والتأمل والتعلق بالدراسات التى تتناول المعرفة الروحية ، وماتحتوى عليه هذه المعرفة من أنوار وأسرار .

وأقبل الحلاج بكل ما فى قلبه من أشواق ، وما فى روحه من إشراق على علوم عصره من فقه وتوحيد وتفسير وحديث وحكمة وتصوف . ولكنه كما يقول ماسنيون : « سرعان ماراح يبحث عن المعنى الرمزى الذى يرفع دعاء الروح إلى الله :

كان الحلاج يحس فى أعماقه دائماً تلهفاً واشتياقاً إلى معرفة أرق وأدق مما يقرأه فى صفحات الكتب ، ومما يستمع إليه فى دروس العلم والعلماء .

معرفة تدنيه وتقربه من الله ، وتمنحه المعراج الذى تصعد عليه روحه إلى هداه .

كان يحس أن لروحه عند الصفاء والنقاء ، سبحات ملهمات ، تترقرق فيها معان مشرقات .

وأن قلبه عندما يأخذه الوجد الإلهى ، والحب الربانى ، تتفتح فيه منافذ يطل منها على ملكوت رائع الجلال والبهاء ، تلتمع فى آفاقه حقائق أعلى وأسمى مما يتجادل فيه الناس ويتخاصمون .

وإذن فليعمل الحلاج على أن ترتفع روحه بالحب ارتفاعاً يجعلها أهلا لهذه الحقائق التى يهبها الله لمن ارتضى من عباده ، واصطفى من خلقه .

وانقطع الحلاج عن دروسه ، وأقبل على ملكوت السماء والأرض يقلب وجهه فى آفاقهما ، ويتأمل أسرارهما ، ويقرأ بين سطورهما الخفية أسراراً وأسراراً .

وعكف على روحه وقلبه ، بالتصفية والمجاهدة ، حتى أعطيا كنوزهما ، وتفجرا معرفة ونوراً .

ونذر نفسه لربه سبحانه ، وأقبل عليه بكل ذاته ، وقد اشـــتعلت أحاسيسه بالوجد ، والتهبت عواطفه بالحب ، إنه يستهدف ارتباط قلبه بالله ، وقرب روحه منه ، قرباً يفنى فيه عن كل شىء ، ليبقى له بعد ذلك كل شىء .

إنه فنـاء الخالدين بربهم ، وهو فناء وخلود ، لا يعرفه إلا الأفق الصوفى .

وأخذ الحلاج نفسه بهذا المنهج أخذاً عنيفاً قاسياً ، وألزم نفسه به طوال حياته ، حتى غدا طابعه الذى تشكل به وجوده المادى والروحى .

ولقد سئل عن المريد الصادق . فقال : « هو الرامى بقصده إلى الله عز وجل ، فلا يعرج حتى يصل » .

وهى كلمة تصور لنا منهج الحلاج وهدفه الذى عاش له وبه ، لقد رمى بقصده إلى الله سبحانه ، وسخر كل ملكاته العقلية والروحية لتحقيق هذا الهدف ، بل اتجه بكل أذواقه ومعارفه إلى آفاق هذا المعنى .

فكلمة التوحيد ، وهى السطر الأول فى كتاب الإسلام ، لا تكون صدقا وحقا كما يقول الحلاج ، إلا إذا عشنا وتذوقناها ، وفنينا فى معناها ، حتى كأننا حين ننطقها نسمعها من الله جل جلاله ، وحينئذ تنبثق فى شغاف القلب ، وعين الوجدان ، ويموج كل شىء بالجلال والنور والمعرفة

والقرآن الكريم كلام الله فيجب على المؤمن أن يتذوق حقائقه تذوقاً روحيا ، وأن تتمثل فيه هذه الحقائق تمثلا عملياً إيجابياً .

ألم تقل السيدة عائشة رضوان الله عليها ، وهى تصف رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « كان خلقه القرآن » .

ويمشى الحلاج بهذا الفهم خطوات حتى يقول : « إن المؤمن الصادق يصل به الأمر حتى تكون « بسم الله » منه بمنزلة « كن » من الله سبحانه .

أى أن « بسم الله » إن نطق بها من تحقق بحقائق القرآن ؟ وتذوقها وعاش بها تكون « بسم الله » منه ، لها من القوة والأثر ما لكلمة « كن » من الله سبحانه .

ومن كلمات شبابه التى تصور لنا منهجه قوله : « حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك والاتصاف بأوصافه » .

إنها البذرة التى ستخرج منها فلسفة الحلاج فى مقام الفناء !! ؟ ويقول الحلاج : « من لاحظ الأعمال حجب من المعمول له — الله — ومن لاحظ المعمول له حجب عن رؤية الأعمال .

وهذه الصورة المثالية السامية التى تصورها لنا تلك الكلمة ، سنجدها بصور أكمل وأسمى فى جهاد الحلاج وتضحياته .

تلك بعض خواطر الحلاج القلبية والروحية ، وهو فى مطلع شبابه قبل أن يسلك المنهج الصوفى على شيوخه ، وقبل أن ينتظم فى المدرسة الروحية العالمية ، مدرسة التصوف ، التى كانت تهيمن على العراق وفارس خلال القرن الثالث الهجرى .

شيوخه فى الطريق

ولما بلغ الحلاج الثامنة عشر من عمره ، اتصل بالإمام الصوفى سهل ابن عبد الله التسترى ، وتلقى على يديه آداب الطريق ومنهجه .

وأعجب الحلاج بشخصية سهل ، وبادله شيخه الإعجاب والتقدير . وتلازما ليل نهار ، حتى بلغ الحلاج العشرين من عمره ، فاعتزم أن يخرج مع مدينة واسط الصغيرة إلى العالم الفسيح ، فرحل إلى البصرة بعد أن ودع شيخه ، وترك كما يقول جانباً من قلبه معه .

وفى البصرة تتلمذ على شيخ من شيوخ التصوف هو عمر المكى الذى سيكون له أبعد الأثر فى حياته . وفى نكبته . ومن يده تلقى الحلاج خرقة الصوفية وعاش حياتهم .

ثم تزوج الحلاج فى البصرة ، بأم الحسين بنت أبى يعقوب الأقطع من زعماء البصرة وأهل الصدارة فيها .

واتسم هذا الزواج بالحب والإخلاص وصاحبه التوفيق حتى النهاية . فقد وفت له زوجه فى مجده وفى محنته وثبتت إلى جواره . ورزق منها بثلاثة أبناء .

وكان شيخه المكى خصومة ملتهبة مع صهره ، امتدت آثارها إلى الحلاج . فانقطع ما بينهما من مودة ، وقامت مكانها خصومة حادة ، حتى ضاق صدر الحلاج بالبصرة فارتحل إلى مدينة بغداد .

الحلاج فى بغداد

يقول صاحب العبر : « تصوف الحلاج ، وصحب سهل بن عبد الله ، ثم قدم بغداد فصحب الجنيد ، والثورى ، وتعبد وبالغ فى العبادة » .

وفى بغداد تتلمذ على أبى القاسم الجنيد سيد الطائفة ، وشيخها الكبير . وتوثقت صلتهما . واشتكى إليه من شيخه المكى فأمره الجنيد بالصبر ومراعاة حق شيخه . . . ثم أخذ ما بين الجنيد والحلاج يفتر . فلكل منها شخصيته ومنهجه ، وباعدت بينهما أحداث سنعرض لها فى الفصول القادمة إن شاء الله .

ويرى عن الجنيد قوله : « إننى أرى كثيراً من فضول الكلام فيما يقوله الحسين بن منصور » .

ثم اتصل الحلاج برجال مدرسة رسالة القشيرى ، والتقى بصديق عمره « الشبلى » كما اتصل بمدارس التصوف وأعلامه اتصالا لم يطل أجله . . . فقد أخذ الحلاج يكون لنفسه منهجاً ومدرسة وزعامة . ذات أهداف دينية ودنيوية معا . . . وكانت بغداد عاصمة الدنيا حضارة وثقافة ، وكانت تقدم للحلاج الكثير من المعرفة ، ومن الروحية ، ومن دوافع الحركة والنشاط والجهاد . . . وفى بغداد تلاقت الثقافات العالمية ، كما تلاقت المذاهب والملل والنحل المختلفة . وتصارعت كل هذه الألوان الفكرية وتلاحقت وصبغت الحياة الإسلامية بصبغتها وطابعها . . . ورأى الحلاج فى بغداد الصراع الفكرى المشبوب . ورأى فى بغداد العصبيات

القلبية بين الفرس والترك والعرب ، وبين القبائل العربية المختلفة ومثيلاتها .
كما رأى ترفاً ماجناً هلوكا ، ونظاماً فاسداً ظالماً ، وخلافة متكبرة متألهة .

وآمن الحلاج بأن التصوف هو الذى يستطيع أن يهيمن على هذه المذاهب الفكرية المتعارضة . ويوحدها فى منهجه الإيمانى ، كما يملك القدرة على محو هذه العصبيات الجامحة بروحانيته العالية ، وما تشع من أخوة . وما تلهم من محبة ! ! وفوق هذا وذاك : فإن التصوف يستطيع بطبيعته النقية المترفعة أن يحارب الترف والفساد والتأله الذى فرضته الخلافة العباسية على المجتمع الإسلامى .

الحلاج والأخوة الروحية

ومن ثم أخذ الحلاج يفكر فى إيجاد كتلة شعبية تدعو إلى أخوة روحية فى الله ، وتستهدف وحدة العالم الإسلامى ، والنهوض به خلقياً وتعبدياً حتى يعود إلى منهج الصدر الأول وقوته ، وروحانيته وإيمانه .

أخوة روحية تنبثق منها الوحدة الكاملة فى الشعور والمثل ، والمناهج والغايات .

فالمسلمون قرآنهم واحد ورسولهم واحد ، وعباداتهم قامت على النظام والوحدة ، فالصلاة موقوتة بوقت محدد ، وكمالها فى جماعة منتظمة فى صفوف متراصة ، تتجه إلى قبلة واحدة ، وتفنى أحاسيسهم فى استغراق تعبدى مشترك .

والصيام يبدأ بأذان الفجر ، وينتهى بأذان الغروب ، كأنه نفير عام يحشد الجنود ، جنود الروحانية الإسلامية ، ليدربهم على النظام والقوة ، والوحدة الكاملة .

والحج مؤتمر المسلمين الأكبر ، تضمهم بقاع مقدمة محددة ، وشعائر مفروضة مشتركة ، ويرمون عن يد واحدة جمرات موجهة إلى رمز عدوهم المشترك .

ومع هذا فقد اختلفوا وتمزقوا ، وأعرضوا عن رسالتهم الخلقية ، وعباداتهم الربانية .

وأخذت هـــذه الخواطر تراود الحلاج ، فتؤرق جفونه ، وتوقظ أحاسيسه ، وتحرك قواه فأخذ يلقى بنفسه فى تيار الحياة، ويتصل بالجماهير، ويوثق صلاته بطوائف من الجند والقادة والأمراء والزعماء ، اتصالا ، لم يرض عنه المتزمتون من شيوخ التصوف ، ولم ترض عنه الخلافة ، ولم ترض عنه القوى المختلفة التى تحرك بغداد ، وتحكم العراق، وتهيمن بالتالى على العالم الإسلامى .

مجاهداته الروحية

ولكن هذه الصورة التى تمثل لنا الحلاج فى إهاب رجل الإصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى ، لم تكن كل حياة الحلاج ، ولا كل جهاده ، ولا يمكن لهذه الصورة أن تمثله تمثيلا كاملا .

فالحلاج كان ينقلب فى حياتين ، ويعمل فى حقلين ، وكان يملك القدرة على المزج بينهما ، كما يملك الطاقة على النهوض بهما معًا .

كان الحلاجُ خلال معركته الإصلاحية ، ودعوته الشعبية ، يسلك طريقه الصوفى ، ويسلكه فى عنف وقوة .

لقد انفصم ما بينه وبين شيوخه فى الطريق الصوفى ، فلم يتم تدريبه ، ولم يكتمل إعداده ، ولم تمهد له الأيدى المدربة المبصرة . أيدى المربيين الروحانيين طريق الكمال الروحى .

والطريق الصوفى كما يقول المتصوفة ، طريق وعر شائك ، تمتزج فيه البروق الخادعة ، بالأنوار الهادية ، والخواطر المضلله بالهامات المشرقة وفيه الاستدراج الخفى ، والامتحان الربانى ، وفيه العوائق النفسية ، والتيه القلبى ، والخداع الذوقى ، ولهذا اشترط الصوفية جميعاً واتفقوا على أن الشيخ ضرورة فى الطريق لا غنى عنه للسالك المريد . . إنه كالطبيب للمريض ، يعرف المزاج والمرض والدواء ، وكالمهندس للبناء ، إنه النور الذى يرشد ، والمربى الذى يوجه ، والدليل المبصر الذى يفرق ويميز بين الخواطر والإلهامات ، ويملك القدرة على اختصار الطريق ، كما يملك

التجربة الواعية التى ترسم لكل سالك ومريد ما يلائمه ، وما يتفق مع ذوقه واستعداده وطبيعته .

والشرط الأول فى الطريق أن يستسلم المريد لشيخه استسلاما كاملا بلا اعتراض أو توقف ، وهى دكتاتورية لاتتفق مع طبيعة الحلاج الثائرة فتمرد عليها واختصم بشأنها مع شيخه عمرو المكى ، وتجادل فيها مع شيخه الجنيد ، ولم يرض الشيوخ عن هذه الروح الثائرة ؟ !

واستقل الحلاج بنفسه ، وأخذ يسلك الطريق وحده ، وأخذ يجاهد نفسه ويدربها ويكلفها أشق ما فى التصوف من تكاليف ، ويفرض عليها أقسى ما فى المنهج الروحى من وسائل التجرد والزهد والعبادة والرياضة .

وابتدع لنفسه طريقاً حلاجياً استهدف به الكمال القلبى والخلقى ، واتصال روحه بربه اتصال حب وشوق وفناء ، اتصالا سيعرف فى التاريخ باسم « معراج الحلاج » وهو معراج ينفرد فى تاريخ الحيـــاة الروحية . بخصائص وسمات لم تعرف لسواه .

وكان الحلاج فى جهاده الروحى ، وفى نضاله الشعبى ، سريع التقلب والحركة ، إن فى روحه ثورة ، وفى قلبه أهواء متعددة ، وفى وجدانه وأحلامه استشراف وتطلع لآفاق يحسها ويدركها ببصيرته واضحة حيناً ، غامضة أحياناً ! ؟

إن روحه لم تظفر بعد بأفقها المستقر المبين ، وإن قلبه لم يصل بعد إلى مقام الثبات والتمكين . ومن هنا جاء التلون فى السلوك الذى اتسمت به حياة الحلاج فى دورها الأول .

يقول إن كثير[1] « . . . وقد كان الحلاج يتلون فى ملابسه ، فتارة

---

(١) البداية والنهاية ص ١٣٤ ج ١١ .

يلبس لباس الصوفية ، وتارة يتجرد فى ملابس زرية ، وتارة يلبس لباس الأجناد ، ويعاشر أبناء الأغنياء والملوك والقواد ، وقد رآه بعض أصحابه فى ثياب رثة ، وبيده ركوة وعكاز وهو سائح ، فقال له : ما هذه الحالة ياحلاج ؟ فأنشد يقول :

لأن أمسيت فى ثوبى عديم   لقد بليا على حــــر كريم
فلا يغررك أن أبصرك حالا   مغـــيرة عن الحال القديم
فلى نفس ستتلف أو سترمى   لعمرك بى إلى أمر جسيم

كان الحلاج يتلمس طريقه إلى أمر عظيم جسيم . طريقه بشقيه الصوفى والإصلاحى ، وقد اعتزم فى إصرار حاسم ، أن يبلغه أو يملك دونه .

الحلاج يستعرض المنهج والرسالة

آمن الحلاج — وهو يشق طريقه إلى الله على أجنحة من رياضاته العنيفة الشاقة ، وأشواقه القلبية المتقدمة — أن هناك صلات لا تنفصم بين الكمال الروحي الذى ينشده ، والإصلاح الإيمانى الذى يستهدفه .

إنه ليحس بأن فى أعماقه قوى ضخمة ، تفور وتتصارع ، وتتهيأ للحركة والوثوب . . . ويشعر بأن هناك فى أبعد عمق من نفسه وقلبه ووجدانه تتفجر ينابيع ، وتتدفع تيارات وثورات ، يرى بعين خياله وبصيرة أحلامه أنها ستغير وجه الحياة — حياته ، وحياة الناس كافة — ! !

لقد آن للعالم الإسلامى أن يبعث من جديد ، على نور من كتاب الله وحبه ، وشعاع من حياة الرسول وهديه ، وما أروع وأجمل أن تتحقق أحلام الحلاج ! ! فتشهد الدنيا أمة قرآنية تقوم بين الله ورعايته ، يحكمها ويوجهها أقطاب عباد أتقياء أصفياء ، يحبون الله ويحبهم ، ويملأون الكون بمواجيدهم وضراعاتهم ، وأنوار إلهاماتهم ، ويحملون الناس على الجادة والطريق الذى اصطفاه الله وارتضاه ؛ فلا تفترق السياسة عن الصلاة ، ولا الحكم عن الحب ، ولا العمل عن العبادة ؛ فتتحول الدنيا من غاية للشهوات والصراع ولهو الشياطين إلى مساجد للحب والسلام ونجوى الساجدين العابدين .

إنها أحلام الحلاج ، التى تملأ عليه آفاقه ، والتى تعيش فى أعماقه ، وتبعث الحركة والاضطراب فى حياته ، ونرى هل هو أهل لها بعد ؟ وهل يستطيع النهوض بها ، فتتحول الأحلام والأمانى إلى حقائق حية ، تسعى وتعيش وتخلد ؟

وهل تستطيع الصوفية ، وهل يستطيع المنهج الصوفى أن يقدم له القاعدة الصلبة التى يرتكز عليها ، حتى يثب من فوقها ؟ لقد جاهد الصوفية أنفسهم فى سبيل التصفية والتحلية والتطهر جهاداً خالداً لم تعرف صحف الجهاد النفسى مثيلا له من قبل ، وفرضوا على أنفسهم مناهج فى السلوك ، وآداباً فى الطريق ، وواجبات فى العبادات ، وأخلاقاً فى الحياة ، هى أسمى تصورات الكمال التى عرفها هـذا الوجود . . . وامتلأت أيديهم بثروة ضخمة من التجارب العملية الكاملة التى قاموا بها وحدهم وهم يصعدون معارج الوصول إلى أفق الحب الإلهى ، وسموات الإلهام والنجوى ... وتركوا للإنسانية زاداً صالحاً من معارفهم وإلهاماتهم وعطراً زكياً من أورادهم وعباداتهم ، وسيراً وصحفاً لهم تشع هدى ، وترسل نوراً ، وتهدى طريقاً .

ثم عاش الصوفية بعد ذلك حياتهم داخل أنفسهم ، أو داخل حلقات دروسهم ، وساحات مريديهم ،ولم يمدوا أعينهم إلىساحة الحياة الكبرى. وإلى ميادين جهادها الأخرى .

ولقد آمن الحلاج بأن المنهج الصوفى بكمالاته فى الأخلاق والعبادات والجهادالروحى ، وبمواجيده وأذواقه، ومعارفه فى الحب الإلهى ، إنما يمثل وجهاً واحداً منالدعوة الإسلامية ، ووجهاًواحداًمنحياة الرسولصلوات الله وسلامه عليه ؛ إنه يمثل مرحلة الإعداد فحسب ! ! ثم تأتى فى أعقابها مرحلة الكمال ، مرحلة الجهاد العام لتبليغ الدعوة . وحمل الناس عليها . والدفاع عنها . فلو اكتفى الأنبياء والأولياء والصالحون المصلحون والزعماء بأنفسهم ولم يحملوا ما تلقوا وما تعلموه وآمنوا به إلى النـاس ، ولم يجاهدوا فى سبيله حتى تعلو كلمات الله ، وتسود تعاليمه ورسالاته لفسدت الأرض . وامتطاها شياطين الجن والإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف الأرض غرورا ...

ولقد فسد عصر الحلاج فساداً كبيراً ، وتنابذ الناس واختلفوا ، وتفرقت بهم السبل ،وأغرقوا فى الشهوات والملذات والترف الملوك . . . وكانت قمة الفساد قصور الخلفاء والأمراء ، فقد غدت مسرحاً لعبث الجوارى والإماء ، ومرتعاً للمرتشين والمقامرين والملحدين ! !

ومع هذا — فها هى بغداد — عاصمة الخلافة — تموج بالنجوم الكبار من أعلام التصوف وأئمته : الجنيد — التسترى — المكى — الشبلى — الثورى . . . وها هو العراق — فى كل سهل وجبل وقرية — فيه صوفية عباد أتقياء أصفياء ، لهم مكانتهم وأقدارهم . . . ! !

إن سهل بن عبد الله التسترى ليقول : إنه دخل البصرة فوجد بها أربعة آلاف من العارفين ! ! البصرة وحدها يعيش بها هذا العدد الضخم من العارفين الواصلين ، فكم منهم فى بغداد ؟ وفى كل مدينة من مدن العراق؟ ومع هذا — فبغداد والعراق قد أصبحتا علماً عالمياً على التدهور الخلقى ، والانحلال الدينى ، والفساد الاجتماعى . . ماذا فعل الصوفية حيال كل هذا ! ! ؟ ولهم المكانة ولهم الجاه ، ولهم الحب والتقدير عند الخاصة ، والسلطان الشامخ على العامة .

لقد فكر الحلاج فى كل هذا وأطال التفكير ، فلم يرض عنه ، ولم يطمئن إليه ، وعبر عن سخطه بكلمات من لهيب وبرق . . إن الله سبحانه — كما يقول الحلاج — لن يقبل من الناس عباداتهم إذا اختلت سياستهم ، وفسدت أخلاقهم ، ثم استكانوا للبغى والفساد ! ! وإن الله سبحانه — كما يقول الحلاج — لن يقبل من أصحاب الأردية والأكسية دندناتهم وكلماتهم ما لم ينهضوا للحق ويجهروا به ، ويقدموا دماءهم فى ساحة الاستشهاد والفداء

وقد آن لرجل من رجال الله أن يرفع صوته ، ويؤذن بالدعوة ، وإن

الحلاج ليهب نفسه ويرصدها لهذه الغاية الكبرى . وإن كان يمسك نفسه حيناً ، ويقلب وجوه الرأى أحياناً ، فليس عن تردد أو ضعف ، إنه يريد ان يستوثق من نفسه ، وأن يطمئن إلى عدته ، هل كملت رياضاته ؟ وهل نضجت مجاهداته ؟ وهل خلص له قلبه ؟ إن قلبه لينازع عقله فيما يريد ، وإن وجدانه ليصاول تفكيره فيما يحب . . . لقد تعشق بقلبه ووجدانه وروحه المنهج الصوفى ، ورصد كل قواه منذ صباه لحب الله وعبادته ، والجهاد فى مرضاته ؛ حتى يصل إلى فناء كامل ، تفنى فيه إرادته فى إرادة الله ، ونوازع بشرية فى كمالات عبادته ، وأهواء نفسه فى لذة أنسه وجلال قربه .

وإن هذا الجلال ، وهذا الحب . وهذا الفناء ليكاد يسرقه عن نفسه . وعن رسالته حينا وحيناً يخيل إليه أنهما ارتبطا واتحدا . وأصبحا شيئاً واحداً . إنها عاصفة من التفكير المزلزل . المتعدد الألوان والصور ، خلص له منها أمر يقينى اطمأن إليه اطمئناناً لم يجده عند سواه .

إنه فى حاجة إلى خلوة كاملة . يعيشها متحنثاً متطهراً ذاكراً قانتاً . خلوة تؤهله أو تدنيه من الكمال . وتزوده وتعده للجهاد العنيف الشاق الذى اعتزم القيام به فى وجه جميع القوى .

ومن ثم اعتزم الحلاج أن يرحل إلى بيت الله المقدس ؛ ليخلو بنفسه فى أرض الوحى والإلهام ؛ ليزداد قرباً من ربه وكمالا فى نفسه وهما عدته ومعراجه إلى هدفه .

الحلاج فى بيت الله

وفارق الحلاج بغـداد لجأة إلى مكة المكرمة ، وبعد أن طاف بالبيت العتيق ، وامتلأت عيناه بالمشاهد التى شهدت خطو الملائكة وجهاد خاتم النبيين ، نذر البقاء عاما للعمرة فى حرم البيت المبارك للتطهر والنسك ، والتصفية القلبية والإعداد الروحى .

عاش الحلاج فى مكة عاماً كاملا فى صمت مطلق ، وتأمل متصل ، وعبادة ونجوى ، عاش فى — الحجر — لا يستظل تحت سقف ، شتاء ولا صيفاً . عن أبى يعقوب النهرجورى[1] قال : « دخل الحلاج مكة أول دخلة وجلس فى صحن المسجـــد سنة لم يبرح من موضعه إلا للطهارة والطواف ، ولم يحترز من الشمس ولا من المطر ، وكان يحمل إليه فى كل عشية كوز ماء ، وقرص من أقراص مكة ، وكان عند الصباح يرى القرص على رأس الكوز وقد عض منه ثلاث عضات أو أربعـة فيحمل من عنده » .

عاش الحلاج حياته العجيبة القاسية الشاقة عاماً كاملا ، ما هى خواطره؟ وما هى تأملاته ؟ وما هى القوة التى تزود بها فى خلوته ؟ لقد لزمت كتب التاريخ الصمت حيال هذه الفترة من حياته ، إلا أن المستشرق « ماسنيون » يحاول كعادته أن يلقى الظلال والشبهات ، وأن يفسر حياة الحلاج التفسير الذى يصل به إلى الفكرة التى استقرت عنده وهى أن الحلاج كان يحاول أن ينهج نهجاً مسيحياً فى تنسكه ودعوته ، وأنه كان يتشبه بمريم البتول حيناً ، وبالسيد المسيح أحياناً ... يقول ماسنيون : « إن الحلاج فى مكة كان يتشبه بمريم ابنة عمران . وأنه كان يهيء نفسه لميلاد كلمة الله فيه » .

---

(١) ص ٢٦ و ٢٧ أخبار الحلاج ، لعلى بن أنجب الساعى .

إن تأملات الحلاج وأحلامه ، وخواطره ورياضته بمكة ، تصورها لنا أولى كلماته التى نطق بها بعد عام كامل من صمته ، لقد خرج الحلاج من عزلته فتلقاه أتباعه يسألونه عن شأنه ؟ فترجم عن أمره ، بتلك الجملة القصيرة ، المعبرة المصورة لحالته حيث قال :

« لو ألقى مما فى قلبى ذرة على الجبال لذابت » إنه ثائر أو عابد من لون جديد ، تلاقت فى أثوابه خرقة الصوفية بكسوة الجندية ، وامتزجت فى قلبه أشواق الحب الإلهى بثورة الإصلاح السياسى ، واجتمعت فى روحه طهارة العابدين ورقتهم ببطولات المصلحين وصلابتهم ، وكانت هذه الأمشاج من الصفات المتناقضة تعلوها صفة ثابتة تعطى الحلاج طابعه الدائم .

ذلك هو الوجد الصوفى — الذى كان يأخذه أخذاً عنيفا ملحا ، يفنى فيه عن نفسه حينا ، وعن رسالته أحيانا . ويدفع به زمناً إلى الخلوة القاسية والهرب من الناس ، أو يزج به قسراً فى تيار الحياة ومعاركها . . . ذلك الوجد الصوفى الذى سيبلغ قمته فى سنواته الأخيرة ، بل ذلك الوجد الذى سيترك بصماته على تاريخ الحلاج فيملؤه غموضاً واضطرابا ، ويضفى عليه فتنة وخيالا ساحراً .

تنقلات الحلاج فى العالم الإسلامى

غادر الحلاج مكة إلى الأهواز ، ومعركته الباطنية لا تزال مشتعلة ، رغم السلام الظاهرى الذى اكتسبه من رياضاته وخلوته .

لقد رسم فى عزلته خطوطا ، وتزود بقوى ، واعتزم أن يدفع بنفسه إلى ساحة الكفاح ... خرج داعيا إلى الله ، مبشراً برسالته ، واتجه بدعوته إلى طبقة المثقفين من الكتاب ورجال الأعمال ، وإلى الجنود والقواد ، وجماهير الصوفية . . . وقسم الحلاج منهجه إلى خطوط رئيسية : ناحية دينية صوفية ، جوهرها عبادة الله وحبه ، حبا أساسه الوجد والشوق ، حتى يجد الإنسان ربه فى أعماق نفسه : وبذلك يصل إلى الكمال الروحى والخلق ، وإصلاح الأداة الحكوميـــة الغارقة فى الترف والشهوات والانحراف ؛ حتى يستقيم الميزان الموجه لحياة الناس ، ووحدة الأمة الإسلامية التى مزقتها الفلسفات والعصبيات ، حتى تستطيع أن تنهض برسالتها ، وتتجمع لديها القوة اللازمة لحمايتها .

وكان الحلاج فى دعوته يتجنب التسميات المميزة بين الفرق الدينية ، حتى لا يظن به الجنوح إلى فرقة بذاتها — وهى العقبة الكبرى فى وجه كل دعاة الإصلاح — وكانت صيحة الحلاج المدوية هى : أن يعود الناس إلى الأساس الأول ، إلى الإسلام كما جاء ، محجة بيضاء ، وكما طبق فى عهد الرسول توحيداً صافياً وعملا لله خالصاً ، وأن يتخلى الناس عن هذه المذاهب التى حجبتهم عن الجوهر ؛ فالمذاهب — كما يقول — إن هى إلا وسائط يجب اجتيازها إلى روح الإسلام . . . يقول العلامة ابن كثير فى البداية والنهاية : «كان الحلاج فى عبارته حلو المنطق ، فيه تعبد وتأله وسلوك» .

وغضب المتزمتون من رجال التصوف ؛ لاندفاع الحلاج فى التيار السياسى ، وقابل الحلاج غضبتهم بأعنف منها ، فنبذ خرقة التصوف ، ربما يتكلم بحرية مع أبناء الدنيا كما يقول :

وعظم أمر الحلاج فى الأهواز ، وفتنت به الجماهير ، ونسبت إليه العجائب ، وتلونت هذه العجائب بخيال العامة ، حتى غدت ضرباً خارقاً لقدرة الإنسان ! !

وكان الحلاج –كما يقول الاصطخرى– باهر الشخصية، ساحر الكلمة، رائع السمت ، محبباً إلى القلوب . أو كما يقول العلم الحديث : فيه استهواء روحى للجماهير ،.. ثم وسع الحلاج نطاق دعوته ، فارتحل إلى خراسان ، وفى صحبته العشرات من الحواريين ، واستمر – كما يقول ماسنيون[1]– يدعو ويعظ الجاليات العربية فى شرق إيران ، ويبث دعوته فى المدن ، ويقيم على الحدود ، ويرابط مع المرابطين فى الثغور ، وقضى فى ذلك خمس سنوات . ثم يعود إلى الأهواز ، بعد أن ترك دوياً يتردد صداه فى آفاق خراسان .

ثم يدعوه تلميذه العظيم ، الواسع النفوذ – حمد القنائى– إلى الإقامة ببغداد ، فيرحل إليها مع أهله وطائفة كبيرة من مريديه وأتباعه ... ويدخل الحلاج بغداد بعد أن سبقته شهرته وعجائبه ؛ فيحدث فى بغداد هزة ، يتردد صداها فى البيئات الصوفية والعلمية ترددها فى قصور بغداد العالية وأكواخها الساذجة .

ثم يذهب الحلاج إلى مكة للمرة الثانية مع أربعمائة من تلاميذه ، ويعاود الاختلاء والرياضة ، حتى يتهمه بعض خصومه بأنه يقوم بأعمال السحر

---

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام .

وتحضير الجن ؛ لاعتصامه بقمة جبل « أبي قبيس » وانقطاعه عن الناس .
ومن مكة يخرج الحلاج إلى رحلته الكبرى فى سبيل الدعوة ، يخرج إلى التركستان والهند حيث يعتنق الإسلام على يديه خلق عظيم .

واتخذ البحر طريقاً ، وصعد فى السند من « ملتان » إلى كشمير ، ويمضى فى طريقه صاعداً ناحية الشمال الشرقى حتى « طرقان » مع القوافل الأهوازية لقد كان الحلاج — كما يقول « ماسنيون » : يفكر فى هداية الإنسانية كلها عبر الأمه الإسلامية .

وعظم أمر الحلاج فى بلاد ما وراء النهر والهند والصين ، فكانوا يكاتبونه[١] من الهند بلقب « المغيث » ومن بلاد الترك « بالمقيت » ومن خراسان « بأبى عبد الله الزاهد » ومن حورستان « بالشيخ حلاج الأسرار » وسماه أشياعه ببغداد « بالمصطلم » وسموه فى البصرة « المحير » وذهبت الدنيا تردد أحاديثه وقواه السحرية الخارقة ، أو كراماته الباهرة .

يقول صاحب شذورات الذهب[٢] : وبلغ من شأنه أن كان يخرج الأطعمة فى غير وقتها ، والدراهم من الهواء ، ويسميها دراهم القدرة ، وكان يعرف الكيمياء والطب . . . ونشر الحلاج رسائله الكبرى عن السياسة ، وواجبات الوزراء ، مطالباً بإقامة حكومة إسلامية حقاً . ووزارة تحكم بالعدل بين الناس ، وخلافة كما يقول : شاعرة بمسئوليات وظيفتها أمام الله ؛ مما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض دينهم[٣] .

ومن وراء النهر عاد الحلاج إلى مكة ، يدفعه وجد صوفى ، وحنين

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير .
(٢) ج ٢ ص ٢٥٤ .
(٣) شخصيات قلقة فى الإسلام .

غلاب إلى الخلوه ، وإلى رياضاته العنيفة القاسية ، فى أرض النبوة والإلهام، وليتزود فى عزلته الروحية بقوة إيمانية ، قوة تؤهله لمواجهة الحياة فى معركة بطولية حاسمة .

هناك فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية حيث الصراع الفكرى والدينى مشتعل الأوار فى البيئات العلمية ، وحيث الترف والشهوات والفساد يخنق المجتمع الإسلامى . هنالك كانت معركة الحلاج الكبرى التى سوف يقدم روحه قرباناً لها . . . وإلى بغداد يعود الحلاج ! ! ليشعل فيها كل شىء ، وليحترق فى أتونها .

الحلاج فى عاصمة الخلافة

وخفق قلب بغداد للنبأ العظيم ! ! لقد جاء الحلاج إليها تسبقه عواصف مرعدة مذهلة ، من الدعاوى العريضة المتناقضة ، جاء إليها بعد أن طوف بالأرض ، فملأ آفاقها دوياً ، وأسمع آذانها عجباً .

فقد ترك الحلاج فى كل بقعـــة رن فيها خطوه ما يختلف فيه الناس ، وما يتخاصمون فى أمره ، فما رأى الناس من قبل رجلا له سمته وشخصيته وقواه وروحانيته ! !

رجلا يتصدى لهداية الإنسانية كافة ؛ فيطرق أبواب العالم شرقاً وغرباً ، مبشراً وداعياً إلى الله سبحانه ، دعوة أساسها وروحها حب الله ، حباً تذوب فيه شهوات الدنيا ، وينطفىء لهيبها ، وتتضاءل فيه أهواؤها وسحرها ؛ فإذ بكل ما فيها قبض الريح ، وإذ تاجها ونعيمها وفوزها الأكبر فى الاتصال بواجب الوجود ومبدعه ، اتصالا ينير الروح ، ويشعل القلب ، ويوقظ الحس ؛ فإذا بالإنسان فى تجل عظيم مشرق ! ! ! قوة ربانية تملك أسرار الكون ؛ كما تملك معارج الصعود ، إلى حياة النور والخلود ، وتملك فوق هذا وذاك القدرة على تحقيق رسالة الإنسان الكامل ، خليفة الله الذى اصطفى منه كليمه ، وخليله ، وحبيبه .

وفى خلال هذه الدعوة الروحية الربانية لا يفنى الحلاج عن دنياه كما فنى غيره من الصوفية ، ولم تذهله الإشراقات والمعارج والمحبة الربانية عن حقيقة الحياة الأرضية ، بل هو يقرع سمع الدنيا بدعوته الإصلاحية ضد المفسدين فى الأرض من الملوك والأمراء ، ومن يمشى فى مواكبهم من محترفى الدين والدنيا ، فيطالب بخلافة مؤمنة ، مهتدية تحمل الناس على الصراط المستقيم .

وحكومة قرآنية ، تشعر بواجبها حيال الله ، شعورها بواجبها حيال الإنسان . وضد المفسدين فى الروح والفكر والقلب من علماء الكلام والمنطق والتوحيد ، ومحترفى الجدل الدينى ، والحوار اللفظى ، الذين مزقوا دينهم شيعاً ، وأحالوه عوجا ، بعد أن كان شرعة محكمة ، لا تعرف جدلا ولا حواراً ، وإنما تعرف عملا وإيماناً .

وتمتزج شخصية الحلاج بجوهر رسالته ، فيؤثر كلاهما فى الآخر ، تأثيراً هو سر ما يضطرب فيه الناس من امره ، وما يتجادلون حيال سيرته وحقيقة دعوته .

كان الحلاج متوهج النفس ، مشتعل الحس ، جياش القلب ، ثائر الوجدان ، رهيف العاطفة ، يملك قوى خارقة ، من المغناطيسية الروحية التى تؤثر فى كل شيء يتصل به ، أو يدنو منه .

وكان فوق هذا واسع الخيال ، ساحر البيان ، رائع التصوير ، صادق الشعور ، أخلاه الزهد ، وحلاه النسك وجلاه الحب ، اكسبته طاعاته ومجاهداته روحاً مشرقاً مشعاً متودداً عطوفاً تتدفق منه تيارات ساحرة محببة ، تدنيه من كل قلب ، وتمزجه بكل عاطفة .

يقول المستشرق « نيكلسون » : امتاز الحلاج بأنه عاش فى صوفيته تماماً ، عاش فى كل لفظ قاله ، وفى كل خاطر مر به ، حتى لقب بمسيح الإسلام ... ويقول العلامة الفرنسى «ماسنيون» إنه حي ما قال ، وقال ماحي ، وعندما قارن بين محى الدين والحلاج قال : « أنا أعتقد أن ابن عربى معرفته أكبر من روحه ، وأن روح الحلاج أكبر من معرفته » .

كان الحلاج روحاً عظيما ، بل لعله كان أكبر روح فى عالم التصوف . يقول على بن أنجب الساعى : « لقد بلغ من صفاء روحه أنه كان يستشف الغيب من ستر رقيق ، ولقد عزيت إليه نبوءات صادقة ، استرعت أنظار الدنيا » .

وتلك الصفات التي اتسم بها الحلاج وطبعت تاريخه وصاغت دعوته ، صفات فيها إغراء ، وفيها استهواء ، حتى لقد فتن بسحر الحلاج الروحي قوم ملأوا الدنيا حوله بالأساطير الملونة المبدعة ، ودقوا طبول الدعوة العالية لخوارقه المذهلة ، حتى جعـــلوه عليماً بالغيب ، قادراً على إحياء الموتى ، مسخراً لعناصر الطبيعة وجواهرها . . . وهي صفات أيضاً تترك حولها حقـداً غليظاً ، وحسداً مسموماً ، وجحيماً مشتعلا بالبغضاء ، فتصدى للحلاج قوم جمعوا كل ما في الدنيا من فجور وفسوق وإلحاد ومروق ، وقذفوا به وجهه ، وسودوا تاريخه ؛ إرضاء لشهوات صدورهم ؛ وبغضاء نفوسهم .

وبتلك الهالة ، وعلى قرع تلك الطبول دخل الحلاج بغداد ، وكانت بغداد في عصره هي الدنيا كما يقول رجال التاريخ ! ! كان يحمل إليها خراج الأرض ، فتنبض جنباتها بالترف ، وما يدفع إليه الترف من شهوات وفجور ! ! وكان يلتقي فيها تراث الفكر العالمي بمواريث الحضارة الإسلامية ، فتموج آفاقها بكل لون من ألوان الفكر والمعرفة .

كان فيها الماديون على اختلاف مناهجهم ، ومللهم ، من الفلاسفة العقليين ، إلى المتمردين الملحدين ، وكان فيها الروحانيون على اختلاف أذواقهم من العباد المتصوفين ، إلى المنجمين والمتألهين ، والمتصلين بالأرواح والشياطين .

وتحولت مساجد بغداد ومـدارسها وندواتها إلى ساحات الحرب الفكرية ، بين فرق وألوان ومذاهب لا حصر لها . . . وإلى ساحة بغداد ، بل إلى ساحات الصراع المشبوب الأوار دلف الحلاج ، تحيط به حاشيته ، وتسبقه دعوته ! ! . واهتزت عمائم العلماء في أروقتهم الفكرية ، وتطلعت حلقات الصوفيـة وأرهفت سمعها ، وترددت همسات في قصر الخلافة ، وتخاطفت الجماهير الأحاديث الملونة عن الرجل المبارك ، صانع المعجزة والكرامة ! ! .

ومن ثم رأينا التاريخ يحدثنا عن شيوخ كبار من البيئات الصوفية والفقهية ، وعن أئمة من أساتذة الكلام والتوحيد والفلسفة ، وهم يسعون إلى الحلاج ويلتمسون لقاءه والتحدث إليه ! ! وفى شهواتهم جدل عنيف . وفى عقولهم تحد غليظ ، وفى قلوبهم تلهف حار ، يحاول أن يتعمق فهم رسالة الداعية الذى تحيط به الرعود والبروق .

وتعددت الاجتماعات ، وتوالت الندوات ، وطال الجدل والحوار ، والتهبت الكلمات ، واختصمت العقول وتفرقت القلوب ، وأصبحت الخصومة سافرة ؛ فقد جاء الحلاج إلى بغداد يحمل منهجا ورسالة ، ويندفع فى عنف إلى هدف وغاية .

ولم تكن البيئات العلمية فى بغداد على استعداد عقلى لأن تسلم للحلاج بمنهجه الصوفى ، بنسكه ومواجيده وأذواقه ، ولم تكن المجتمعات الصوفية فى بغداد على استعداد نفسى يؤهلها لأن تسهم مع الحلاج فى دعوته الإصلاحية ، وأهدافه الثورية .

المنهج الحلاجى

ومن ثم حفظ لنا تاريخ الحلاج — رغم غموضه وتمزقه — مناظرات وجدليات خاض الحلاج غمارها ضد مفكرى عصره وعلمائه ومتصوفيه ، كما حفظ لنا تراثا حلاجيا يشكل منهجا فكريا متكاملا متناسقا ، له طابعه العلمى وخصائصه الروحية ! !

وهذا المنهج الحلاجى الثقافى : يتسم فى كل جزئية من جزئياته بذلك الوجد الصوفى ، والحب الإلهى ، الذى استأثر بعقل الحلاج وقلبه وروحه . استئثاراً ملحا عنيفا .

الحلاج . . . وعلماء الكلام

وعلى ضوء هذا المنهج نستطيع أن نتفهم محاولات الحلاج مع علماء الكلام ، فى الأمر والإرادة والمشيئة الإلهية ، وفى أفعال العباد وتعلقها بالقضاء والقدر .

فالحلاج يعتمد على التجربة الصوفية المباشرة ، لحل مسئلة الصلة بين اللطف الإلهى والقضاء والقدر . . . ، تلك المشكلة التى ترجع إلى النزاع بين الخير الذى يأمر به الله — الأمر — وبين الشر الذى يتنبأ بوقوعه — الإرادة — ويرضى الحلاج بهذا النزاع بدلا من أن يخيفه ؛ فهو يعلم ألا حيلة للعلم فى الوصول إلى الماهية الإلهية ، بل إن الحب هو الطريق إليها ؛إذ ليست المعرفة الفكرية للقضاء الإلهى هى التى تقربنا من الله ، بل إنما هو خضوع القلب للأمر الإلهى فى كل لحظة ؛ لأن الأمر غير مخلوق ، بينما الإرادة مخلوقة . .

وهكذا يضع الحلاج حداً لنقاش متكلمى عصره حول هاتين الكلمتين — الأمر عين الجمع ، والإرادة عين العلم — فكل قلب إذاً يشغله السعى وراء الجزاء عن حرمة الأمر ، إن هو إلا مرتزق ، وليس بخادم حق الله .

وقد تبنت « السالمية » هذه التفرقة ونمتها ، مستشهدة على ذلك بموضوع طاسين الأزل — للحلاج ، فلقد كان أمر الله فى دعوته إبليس لأن يسجد لآدم أمراً شكليا ، ولم تكن تلك إرادته ، وإلا لسجد إبليس ! ! لأن كل ما يريده الله واقع لا محالة . . . ذلك هو موضوع البلاء الذى لا مفر منه للإنسان كى يكون قديسا[1] .

---

(١) مقدمة الطواسين — لماسنيون

ولهذا يوصى الحلاج المريد بأن يكون مع الحق بحكم ما أوجب . ويقول : « من لم يؤمن بالقدر فقد كفر ، ومن أحال المعاصى إلى الله فقد فجر » ..

وأسماء الله سبحانه عند الحلاج من حيث الإدراك أسماء ، ومن حيث الحق حقيقة . وكان يقول : « لا يجوز لمن يريد غير الله ، أو يذكر غير الله أن يقول عرفت الله . ومن عبد الله لنفسه فإنما يعبدنفسه ، ومن استصحب كل نسك فى الدنيا والآخرة وهو جاهل لا يقرب من الله ابداً .

والصلاة عند الحلاج هى المعراج الذى يصل النفس مباشرة بالله . وقراءة القرآن عنده إنما تكون بإحساس ومشاهدة ، فكأن الله سبحانه يتلو على لسان القارىء ، أو كأن القارىء يستمع إلى الله سبحانه .

ومن هنا نشأت حالات الوجد العظمى ، التى عرف بها الحلاج عند السماع . . . والكون عند الحلاج مادي وروحى كالإنسان . والعبادة تخلق وعيا كونيا .

والإيمان عنده : قول وتصديق وعمل . والولى : هو الدليل الحى على الله . . . وبذلك وضع الحلاج أول مذهب كلامى فلسفى للصوفية ، مما سنعرض له عرضا شاملا فى الفصول القادمة إن شاء الله.. وعن الحلاج تلقت المدرسة — السالمية — فلسفتها الكلامية التى تراها عالية الصوت فى تفسير السلمى .

الحلاج وتفسير القرآن

والمنهج الحلاجي الذي ذكرناه يتجلى بصورة متلألئة في تفسيره للقرآن وتفهمه لآية ... وللحلاج تفسيرات تناولت آيات الذكر الحكيم جملة وتفصيلا ؛ وهي تفســـيرات أصابها ما أصاب تاريخ الحلاج كله ، من تمزيق وتبديد .

وبقيت من هذه التفسيرات لمع ترشد إلى المنهج ، وتومىء للفكرة . وأبو عبد الرحمن السلمي يدور في تفسيره الصوفي حول نظرات الحلاج في التفسير . كما حفظ لنا العلامة « روزبهان البقلي » في تفسيره « عرائس البيان » شذرات من تفسير الحلاج ، نقتبس منها نماذج لهذا اللون من التفسير والتفكير .

يقول الحلاج في تفسيره لقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » : العبد مبتلى بالأمر والنهي ، ولله في قلبه أسرار تخطر دائماً ، فكلما خطر خاطر عرضه على الكتاب فهو طاعة الله ، فإن وجد له شفاء وإلا عرضه على السنة ، وهي طاعة الرسول ، فإن وجد له شفاه وإلا عرضه على سير السلف الصالحين ، وهو طاعة أولي الأمر » .

ويقول في تفسير قوله تعالى : « ألست بربكم ؟ قالوا بلى » حينما سأل الأرواح في عالم الذر « . . . لا يعلم أحد من الملائكة المقربين لماذا أظهر الحق الخلق ؟ وكيف الابتـــداء والانتهاء ؟ إذ الألسن ما نطقت ، والأعين ما أبصرت ، والأذن ما سمعت . كيف أجاب من هو عن الحقائق

غائب ، وإليه آيب . فى قوله: « ألست بربكم » .. ؟ فهو المخاطب والمجيب.. قالوا : بلى ؟ القائل عنكم سواكم ، والمجيب عنكم غيركم فسقطتم أنتم ، او بقى من لايزل ، كما لم يزل » .

ويقول فى تفسير قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم » نفوس المؤمنين غالية ، لاتباع ولاتشترى . ولاتذل ؛ فلا يملكها سواه .

ويقول فى تفسير قوله تعالى : « فذلكم الله ربكم الحق » ـ الحق : هو المقصود بالعبادات ، المصعود إليه بالطاعات ، لايشهد بغـــيره ، ولا يدرك بسواه . . قال أبو عبد الرحمن السلمى : « سئل الحسين بن منصور : من هو الحق الذى تشيرون إليه ؟ قال : معل الأنـام ؛ ولا يعتل » .

وفى تفسير قوله تعالى : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » المحنة لخواص أوليائه ، والفتنة لعامة الناس . ثم يقول : أبدى الله الأكوان كلها بقوله : (كن) إهانة لها وتصغيراً ، ليعرف الخلق إهانتها ، فلا يركنوا إليها ، ويرجعون إلى مبدئها ومنشئها ، فاشتغل الخلق بزينة الكون فتركهم معه ، واختار من خواصه خصوصاً أعتقهم من رق الكون ، فأحياهم به فلم يجعل للعلل عليهم سبيلا ، ولا للآثار فيهم طريقاً » .

ويقول فى تفسير قوله تعالى « وهو معكم أينما كنتم » مافارق الأكوان الحق ولا قارنها ، كيف يفارقها وهو موجدها وحافظها ؟ ! وكيف يقارن الحدث بالقدم ! ؟ قوام الكل ، وهو بائن عن الكل » .

وفى تفسير قوله تعالى : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم » قال : هو معهم علماً وحكماً ، لانفساً وذاتاً .

وقال فى تفسير قوله تعالى : « وصوركم فأحسن صوركم » . . احسن الصور : صورة أعتقت من ذل « كن » . . وتولى الحق تصويرها بيده ، ونفخ فيها من روحه ، وألبسها شواهد البعث ، وجلاها بالتعليم ، وأسجد لها الملائكة المقربين ، وأسكنها فى مجاورته ، وزين باطنها بالمعرفة، وظاهرها بفنون الخدمة ، وخلق آدم على صورته — أى صورته التى صوره عليها — فأحسن صورته .

ويقول فى تفسير قوله تعالى : « فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون » أى ما أظهر الله تعالى الملائكة والقلم والروح واللوح . « وما لا تبصرون » ما اختزن من خلقه الذى لم يجر القلم به ، ولم يشعر الملائكة بذلك . وما أظهر الله للخلق من صفاته ، وأراهم من صنعته ، وأبدى لهم من علمه فى جنب ما اختزن عنهم ، كذرة فى جميع الدنيا والآخرة ! ! . ولو أظهر الله تعالى من حقائق ما اختزن لذاب الخلق عن آخرهم فضلا عن حملها . . .

والحلاج يرى أن فى القرآن علم كل شيء ، وعلم القرآن فى الأحرف التى فى أوائل السور . ويقول : إن كل هذه العلوم القرآنية قد أحاط بها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . وهى للعارفين بحكم الميراث المحمدى ، وهى سر الحكمة والجلال الذى يشرق فى أقوال العارفين من الصوفية ...

الحلاج وأدب السلوك الصوفى

كان الحلاج فوق رسالته الإصلاحيه والربانية مربياً ، وأستاذاً صوفياً ، فى القمة السامقة ، سلوكاً ومعرفة . ولقد التف حول الحلاج فى حياته أكبر مجموعة صوفية ، فى تاريخ القرن الثالث الهجرى — عصر التصوف الذهبي — حتى ليقول العلامة ابن كثير[1] : « إنه كان يلازمه فى سفره الشاق الطويل أكثر من أربعمائة من صفوة المريدين السالكين » .

وفى كل بقعة فى الشرق الإسلامى ، من بغداد إلى أعالى الهند تكونت مجموعات حلاجية ، ثم تحولت هذه المجموعات إلى جامعة صوفية ، دانت للحلاج بالزعامة والولاية ، واتخذت منهجه معراجاً وصراطاً .

وقلب التصوف الإيمانى،وروحه المثالى ، ورسالته الخالدة تتجلى مبينة مشرقة فى مدرسة (الشيخ — والمريد) .

.. تلك المدرسة المثالية ، التى أنجبت المربيين العالمين ، الذين ابتدعوا سبلا فى التربية ، وأسلوباً فى السلوك ، تخشع حياله ، وتلقى باليدين وهى صاغرة كل مدرسة مهما سمت أدباً ، وكل جامعة مهما عظمت منهجا ! !
لقد امتـــدت تلك الأيدى المتوضئة المؤمنة الملهمة إلى القلب الإنسانى فدرسته . وتعمقت خوافيه ، وجاست خلاله ، وكشفت أسراره ، وأحاطت بنوازعه وخوالجه ، فمسحت بنور القرآن لجوره ، وأشعلت بأدب الرسول تقواه ، ثم عرجت بملكاته صعوداً حتى أشهدته تسبيحات الملأ الأعلى ، وإشراقات الأفق الأسنى ، فسجد عند ربه يقتات برضوانه ، وينهل من فيضه وينعم بإلهامه .

ثم مشوا بنور ربهم إلى الروح الإنسانية ، فأطعموها نور الذكر ،

وسقوها رحيق الحب،وأشعلوها بالوجد، وبسطوها بالأنس ،وصاحبوها فى مقاماتها وأحوالها من النفس الأمارة إلى النفس اللوامة، ومن المطمئنة إلى الراضية .

وإن لكل مقام منهجاً ، ولكل حال علماً وذوقاً ، فأسكنوها نعيما مقيما ، وجنة عالية . فى الأولى قبل الآخرة . . . لقد أحالوا مثاليات القرآن . وأدب النبوة إلى منهج سلوكى تربوى ، أخرج للناس نماذج بشرية مضيئة ، لم تعرف الإنسانية بعدالرسول والأنبياء من هم أهدى منهم خلقاً ، أو أزكى نفساً وأتقى قلباً .

وقد أوجدت هذه التربية روحا صوفيا له طابعه وخصائصه ، ولهذا الروح هو سر التصوف وأفقه ومنهجه ... فقد أخذوا دينهم بقوة ، وتميزوا بعزمات صاعدة ، فهم أرباب العزائم لا الرخص ، وهم الذين أيقظوا قلوبهم فلم تنم عن ربهم وهدفهم .

وهم الذين عاشوا فى كل حرف من القرآن ، ومع كل خلق من الرسول فكلماتهم حياتهم وعقيدتهم وجودهم . . قال صوفى لمحدث : « أخرجوا زكاة الحديث ! ! قال : ومازكاة الحديث ؟ قال : اعملوا بخمس أحاديث من كل مائة حديث تحفظونها » . . .

والحلاج لم يستكمل تربيته الصوفية على أيدى المشايخ الكبار ، لقد انفصم مابينه وبينهم مبكراً ، فحلق منفرداً فى القمم العالية ، واصطلى وحده التجربة الصوفية كاملة ، وألزم نفسه ألوانا من المجاهدة والرياضة ، تعمد فيها القسوة والصرامة ! !

ومن هنا جاءت تلك البروق الشاطحة ، وتلك الحرارة الدافقة ، التى امتزجت بتعبيرات الحلاج ، وطبعت مواجيـــده وألحانه ! ! بل من هنا جاءت تلك الصلة الكبرى بين الحلاج وربه ، تلك الصلة العالية الصوت فى حياته ، الصلة التى تجعلنا ونحن نقرأ للحلاج نحس برجل يعيش انفاسه مع مولاه ، فهو أنيسه وجليسه ، وحبيبه ومربيه ...

يقول المستشرق « ماسنيون » فى مقدمة لكتاب الطواسين : « وليس هناك من متصوف فى التاريخ أكثر « عشرة مع الله » من الحلاج الذى يتصل فى حديثه معه « أنا » و « أنت » و «نحن» وليس هناك من شعر صوفى أشد حرارة وأكثر بعداً عن المادة من شعر الحلاج » .

يقول الحلاج — معبراً عن منهجه فى السلوك — : إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافاً للعبد السالك ، وهو بعد فى السلوك غير واصل » ويقول : « من صدق مع الله فى أحواله فهم عنه كل شىء ، وفهم عن كل شىء .

ويقول : — مصوراً للصوفى — « الصوفى يكون مع الله تعالى بحكم ما وجب ، ولا يكون على سره أثر من الأكوان ، ويكون وجدانى الذات ، لم يشهده الحق غيره ، فهو أعمى عن الكون . ويكون له مع الحق نسب يحمل به الواردات ، ولا يذكر برؤية الكون غير الحق » .

ذلك هو المنهج الحلاجى ، أو ذلك هو الحلاج الصوفى ! ! إنه مع الله بحكم ما أوجب ، مع إرادة الله بحكم ما قضت ، وليس بقلبه أثر من الأكوان ، وهو وجدانى الذات ، لا يبصر الكون ، بل إن الكون لايرى فيه غير الحق — غير الله — ثم إن مع الحق لصلة من الحب والوجد والفناء ، تعينه على تحمل الواردات ، وتذوق الإلهامات ، والقيام بالواجبات .

ونستطيع أن نتذوق مهج الحلاج فى آداب السلوك الصوفى ، تلك الآداب التى ألزم مريديه بها ، من ذلك الدستور الذى وضعه لهم ... ولقد حفظ لنا أبو عبدالله السلمى — المؤرخ الصوفى الكبير — زبدة طيبة من ذلك الدستور . . .

فالسلمى : يعرض لنا أدب المريد ، ثم يقيم الشاهد والدليل من كلمات الحلاج ومذهبه . . . والعلامة « الكلاباذى » — فى التعرف لمذهب أهل التصوف — قد حفظ لنا جملا من هذا التراث ، أدرجها تحت قوله : « قال

بعض الكبراء ، لقد كانت محنة الحلاج الهائلة ترهب الكتاب ، وترهب رجال التاريخ ، فتصرفهم عن اسمه ، وعن تراثه ! !

يقول أبو عبد الله السلمى : «من آدابهم ترك التدبير ، والرجوع إلى حال التسليم ؛ قال أبو الحسين بن منصور : من سلم إلى الله أمره صنع به ، وصنع له ، ومن وجد الله لم يجد معه غيره ، ومن طلب رضاه حباه الله بالمكنون من سره — وهو قوله : « ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » . . .

ومن آدابهم : دوام التوبة مما عملوا ومما لم يعملوا مما جرى عليهم من الغفلات ، كذلك حكى عن الحسين بن منصور أنه قال : التوبة مما لا تعلم تبعثك على التوبة مما تعلم . والشكر على ما لا تعلم يبعثك على الشكر على ما تعلم ؛ لأنه حرام على العبد الحركة والسكون إلا بأمر يؤديه إلى أمر الله .

ومن آدابهم : الحضور فى وقت الذكر ، ومجانبه الذكر على الغفلة ؛ لذلك قال ابن منصور . من ذكر الله وهو يشاهد غيره لا يزداد منه إلا بعداً ، ويقسو قلبه ، ويكون مستدرجا لا يهتدى .

ومن آدابهم : ترك التدبير ، والسعى فى طلب الرزق ، والسكون فى كل الأصول إلى مسوق القضاء وضمان الحق ؛ كما قال الحسين بن منصور : من أراد أن يتذوق شيئاً من هذه الأحوال فلينزل نفسه إحدى منازل ثلاث : إما أن يكون كما كان فى بطن أمه — مدبراً غير مدبر ، مرزوقاً من حيث لا يعلم — أو كما يكون فى قبره ، او كما يكون فى يوم القيامة » . . . وقال أيضاً : المتوكل رزقه من حيث لا يعلم بغير حساب ، ولا يكون عليه فيه سؤال . . .

ومن آدابهم : ترك لفظ « أنا » و « نحن » و « لى » وما أشبه ذلك ؛ كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه استأذن عليه رجل فقال : من ذا ؟ فقال . أنا — أنا — فكره ذلك رسول الله . . . وحكى عن الحسين ابن منصور أنه قال : إذا قال العبد « أنا » قال الله تعالى : بل « أنا » ، وإذا

قال العبد : لا بل أنت يا مولاى ، قال المولى : بل أنت يا عبدى ؛ فيكون مراده مراد الله فيه . . .

ومن آدابهم : العمل فى الوقوف على ما يرد عليهم من الأحوال ؛ حكى عن الحسين بن منصور أنه قال : حفظك أنفاسك وأوقاتك وساعاتك وما هو بك ، وما أنت فيه ، فمن عرف من أين جاء ، عرف إلى أين يذهب. ومن علم ما يراد منه علم ما له ، ومن علم ما عليه علم ما معه . ومن لم يعلم من أين اتى وأين هو وكيف هو ولمن هو فذاك ممن لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم ، ويظن أنه يعلم . .

ومن آدابهم : فى معرفة الدواعى ؛ قال الحسين بن منصور : داعى الإيمان يدعو إلى الرشد . وداعى الإسلام يدعو إلى الإطلاق ، وداعى الإحسان يدعو إلى المشاهدة ، وداعى الفهم يدعو إلى الزيادة ، وداعى العقل يدعو إلى المذاق ، وداعى العلم يدعو إلى السماع ، وداعى المعرفة يدعو إلى الروح والراحة ، وداعى التوكل يدعو إلى الثقة ، وداعى الخوف يدعو إلى الارتفاع ، وداعى الرجاء يدعو إلى الطمأنينة ، وداعى المحبة يدعو إلى الشوق ، وداعى الشوق يدعو إلى الوله ، وداعى الوله يدعو إلى الله ، وخاب من لم يكن له داعية من هذه الدواعى !! أولئك من الذين أهملوا فى مفاوز التحير ، وممن لا يبالى الله بهم .

الحلاج والتصوف

كانت حياة الحـــلاج وما انبثق منها من إشعاعات وإشراقات ، وما ابتدعت من مناهج فى التفكير والتأمل والروحانيات ، كانت كما يقول — نيكلسون — : لحظة جوهرية فى تاريخ التصوف الإسلامى :

كانت حياته ، من نقاط التحول والتطور فى الأفق الصوفى ، ومن مطالع النماء والخصوبة فى التفكير الروحى ، وإلى الحلاج ترجع الأصول الكبرى لذلك التراث الإسلامى العالمى ، الذى شكل فى محيط الفكر الصوفى ، أعظم القوى الروحية الإيمانية التى عرفها تاريخ الإنسان .

والتصوف عند الحلاج ، هو انتساب الإنسان إلى الله سبحانه ، لا إلى هذا العالم المادى الحيوانى ، هو ارتفاع الإنسان إلى الله فى سفر طويل هائل ، لا تقدر عليه إلا عزمات الرجال الكبار ، المصطفين الأحرار .

سفر تفنى فيه الصفات البشرية ، فى الصفات الإلهيـة ، فناء طاعة وعبودية ، وحب ووجد ، وذوق وشوق .

ويقسم الحلاج هذا السفر الطويل إلى أربع رحلات ، تبتدىء أولاها بالمعرفة وتنتهى بالفناء ، والثانيـة تبدأ أنوارها وإلهاماتها ، حينما يعقب الفناء البقاء ، وفى الثالثة ، يوجه الإنسان الكامل اهتمامه لمخلوقات الله مرشداً وهادياً .

والرابعة وما أدراك ما الرابعة ! ! ! قمة سامقة مشرقة ، يحلق الإنسان فى آفاقها وقد غمرته الصفات الربانية ، والأنوار الإلهية ، فيصبح مرآة تتجلى فيها حقائق الكون وأسراره ، وهو موقف لا مجال للحديث عنه ، وحسبنا أن نومىء هنا إلى كلمة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى :

« ليس فى مستطاع أهل المعرفة إيصال شعوهم إلى غيرهم ، وغاية ما فى هذا المستطاع هو الرمز عن تلك الظواهر لأولئك الذين أخذوا فى ممارستها » .

ومن أراد فقهاً أكبر ، فليتأمل قول سيد المرسلين فى حديث الإسراء: انعكس بصرى فى بصيرتى ، فرأيت من ليس كمثله شىء ، أى رآه بالحاسة القلبية الروحية .

يقول الحلاج : « أسماء الله التسعة والتسعين تصير أوصافاً للعبد السالك، وهو بعد فى السلوك غير واصل »[1] .

ويقول : « من صدق مع الله فى أحواله ، فهم عنه كل شىء ، وفهم عن كل شىء »[2] .

ومن هذا الأفق قول الشبلى للجنيد : ما رأيك ، فى من الحق نعته ، حالا ومقاماً ؟ فقال : هيهات يا أبابكر ، بينك وبين أكابر الطبقة ألف طبقة، فى أولها ذهب الإسم » — أى لا يوجد أنا أبداً —

ولقد حمل الحلاج أمانة المعرفة الصوفية العليا وعاشها بروحه وقلبه وحسه ، وقدم دمه فداء لها بطولة أسطورية لا يزال شعاعها وإلهامها يومض عبر التاريخ .

كانت تجربة الحلاج الصوفيـــة من أصدق وأخلص ما عرف تاريخ التصوف ، وهذا سر ما فيها من عمق ، ومن حرارة ، ومن إلهام .

لقد صعد فى معارجها بجناح جبار من أجنحة الحب والوجد ، ووهبها كل ذرات روحه وهتافات قلبه ، وأمانى حسه ، وحمل قيثارته ليهب للخلود ، إلهامات حبه ومعرفته وتجربته .

---

(١) الطواسين طبع ماسنيون صفحة ٩٢

(٢) » » » » ٩٣

يقول الحلاج مصوراً لحبه ووجده :

الله يعلم ما فى النفس جارحة ... إلا وذكرك فيها نيل ما فيها
ولا تنفست إلا كنت فى نفسى ... تجرى بك الروح منى فى مجاريها
إذ كانت العين مذ فارقتها نظرت ... إلى سواك فخانتها مآقيها
أو كانت النفس بعد البعد آلفة ... خلفاً عداك فلا نالت أمانيها

ثم يهتف ، وقد برح به الهوى ، واشتعل قلبه بالوجد ، وهامت روحه بأنوار القرب ، وسكرت أحاسيسه بإشراقات الأنس ، حتى تفجرت ألحاناً وأنغاماً بحبه العلوى المقدس[1] .

أباحت دمى إذ باح قلبي بحبها ... وحل لها فى حكمها ما استحلت
وما كنت ممن يظهر السر إنما ... عروس هواها فى ضميرى تجلت
فألقت على سرى أشعة نورها ... فلاحت لجلاسى خفايا طويتى
فإن كنت فى سكرى شطحت فإننى ... حكمت بتمزيق الفؤاد المفتت
ومن عجب أن الذين أحبهم ... ـ وقد أعلقوا أيدى الهوى بأعنةـ
سقونى وقالوا لا تغنى ولو سقوا ... جبال حنين ما سقونى لغنت

لقد توغل فى معراج السلوك ففنى عن كل ما سوى الله سبحانه ، وتطهرت روحه وبرئت من كل ما لا ينتسب إليه جل جلاله ، فصار فى حال فناء كامل عن وجود السوى ، وشهود السوى ، وعبادة السوى ، فلم يصبر على شاهد من جمال وجلال فهتف :[2] .

والله ما طلعت شمس ولا غربت ... إلا وحبك مقرون بأنفاسى

---

(١) ديوان الحلاج . نشر ماسنيون .

(٢) ديوان الحلاج . نشر ماسنيون .

ولا خلوت إلى قوم أحدثهم — وإلا وأنت حديثى بين جلاسى
ولا ذكرتك محزوناً ولا فرحاً — إلا وأنت بقلبى بين وسواسى
ولا هممت بشرب الماء من عطش — إلا رأيت خيالا منك فى الكاس
ولو قدرت على الإتيان جئتكم — سعياً على الوجه أو مشياً على الراس
مالى وللناس كم يلحقونى سفها — دينى لنفسى ودين الناس للناس

ما للحلاج والناس ؟ لقد سما فوق التراب والطين ، وتطلع إلى مشارق الروح ، ورب الأرباب .

ولنستمع إليه فى تلك الضراعة المؤمنة المحبة الملهمة وهو يناجى حبيبه الأكبر وموجودة الأعظم :

« . . . عن ابن الحداد المصرى قال :[١] خرجت فى ليلة مقمرة إلى قبر أحمد بن حنبل رحمه الله ، فرأيت هناك من بعيد رجلا قائماً مستقبلا القبلة فدنوت منه من غير أن يعلم ، فإذا هو الحسين بن منصور وهو يبكى ويقول :

يا من أسكرنى بحبه ، وحيرنى فى ميادين قربه ، أنت المنفرد بالقدم ، والمتوحد بالقيام على مقعد الصدق ، قيامك بالعدل لا بالاعتدال ، وبعدك بالعزل لا بالاعتزال ، وحضورك بالعلم لا بالانتقال ، وغيبتك بالاحتجاب لا بالارتحال ، فلا شىء فوقك فيظلك ، ولا شىء تحتك فيقلك ، ولا أمامك شىء فيحدك ، ولا وراءك شىء فيدركك . . أسألك بحرمة هذه الترب المقبولة ، والمراتب المسئولة ، ألا لا تردنى إلىّ بعد ما اختطفتنى منى ، ولا ترينى نفسى بعد ما حجبتها عنى ، وأكثر أعدائى فى بلادك ، والقائمين لقتلى من عبادك .

---

(١) أخبار الحلاج ص ١٤ و ١٥ .

فلما أحس بى التفت وضحك فى وجهى ورجع وقال لى : يا أبا الحسن هذا الذى أنا فيه أول مقام المريدين ، ثم زعق ثلاث زعقات وسقط وسال الدم من حلقه ، وأشار إلى بكفه أن أذهب فذهبت وتركته ، فلما أصبحت رأيته فى جامع المنصور فأخذ بيدى ومال بى إلى زاوية وقال : « بالله عليك لا تعلم أحداً بما رأيت البارحة » .

صلة الحلاج بالله

هذا الحلاج المحب الفانى، العابد المثالى، السابح فى وجده، المحترق فى تجربته، المشوق فى قربه، الذى ملأ الدنيا بضجيج ضراعاته ومواجيده، قد امتلأت صحف التاريخ بالتهاويل والأباطيل، حول حبه وعقيدته، وحول إيمانه وصلته بربه ! ! ؟

وصفوه بأنه حلولى ينادى بالحلول، ويتخذ الحب والفناء معراجاً لغايته، وتنادوا بأنه اتحادى، يحاول برياضاته ومجاهداته وشطحاته، أن يتحد بموجده فى تجربة مبهمة غامضة ! ! ؟ وأنه اتخذ من الوجد والنشوة عند السماع والاستغراق سبيلا إلى هدفه، حتى أصبح فى سكره وسبحاته يقول دعاوى عريضة . . أنا عوضاً عن هو ! ! ؟ تأليهاً لنفسه وللإنسان المجتبى المختار الكامل، الذى يجد فى ذاته حقيقة . . صورة الله ! ! ؟

فهل كان الحلاج كما قالوا ؟ وهل كان الحـــلاج كما وصفوا ؟ لنمشى معه خطوات فى مناجاته لربه، وخطوات فى حديثه عن صلة الإنسان بخالقه .

قال أحمد بن فاتك : قال الحلاج :[1] من ظن أن الألوهيـة تمتزج بالبشرية ؛ أو البشرية تمتزج بالألوهية فقد كفر، فإن الله تفرد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم، فلا يشبهم بوجه من الوجوه، ولا يشبهونه بشىء من الأشياء، وكيف يتصور الشبه بين القديم والمحدث، ومن زعم أن البارى فى مكان، أو على مكان، أو متصل بمكان، أو يتصور على الضمير، أو يتخايل فى الأوهام، أو يدخـل تحت الصفة والنعت فقد أشرك » .

---

١) اخبار الحلاج طبع القاهرة ص ٢٨ و ٢٩ .

وعن الحسين بن حمدان قال[1] : « دخلت على الحلاج يوماً فقلت له . أريد أن أطلب الله فأين أطلبه ؟ فاحمرت وجنتاه وقال :

الحق تعالى عن الأين والمكان ، وتفرد عن الوقت والزمان ، وتنزه عن القلب والجنان ، واحتجب عن الكشف والبيان ، وتقدس عن إدراك العيون ، وعما تحيط به أوهام الظنون ، تفرد عن الخلق بالقدم ، كما تفردوا عنه بالحدوث ، فمن كانت هذه صفته كيف يطلب السبيل إليه ! ! ! ثم بكى وقال :

فقلت أخلائى هى الشمس ضوؤها   قريب ولكن فى تناولها بعد

قال ابن فاتك [2]: « قصدت الحلاج ليلة فرأيته يصلى فقمت خلفه فلما سلم قال : اللهم أنت المأمول بكل خير ، والمسئول عن كل مهم ، والمرجو منك قضاء كل حاجة ، والمطلوب من فضلك الواسع كل عفو ورحمة .

وأنت تعلم ولا تعلم ، وترى ولا ترى ، وتخبر عن كوامن أسرار ضمائر خلقك ، وأنت على كل شيء قدير .

وأنا بما وجدت من روائح نسيم حبك ، وعواطر قربك ، استحقر الراسيات ، واستخف الأرضين والسموات ، وبحقك لو بعت منى الجنة . بلمحة من وقتى ، أو بطرفة من أحر أنفاسى لما اشتريتها ، ولو عرضت على النار بما فيها من ألوان عذابك لاستهونتها فى مقابلة ما أنا فيه من حال استتارك منى ، فاعف عن الخلق ولا تعف عنى ، وأرحمهم ولا ترحمنى ، فلا أخاصمك لنفسى ، ولا أسألك بحقى ، فافعل بى ما تريد .

فلما فرغ قام إلى صلاة أخرى وقرأ الفاتحة ، وافتتح بسورة النور وبلغ إلى سورة النمل ، فلما بلغ إلى قوله تعالى : — ألا يسجدوا لله الذى

---

(١) أخبار الحلاج طبع القاهرة ص ٤٣
(٢) » » » » » ٤٤

يخرج الخبء فى السموات والأرض — صاح صيحة عظيمة وقال : هذه صيحة الجاهل به » .

ومن الكلم الذى تخفق له القلوب ، ويشع منه النور ، تلك المناجاة الحلاجية :

« . . . إلهى وإله الموجودات والمعقولات والمحسوسات ، يا واهب العقول والنفوس ، ومخترع الأركان والأصول ، يا واجب الوجود ، ومفيض الجود ، يا جاعل القلوب والأرواح ، يا فاعل الصور والأشباح ، يانور الأنوار ، ومدبر كل الدوار ، أنت الأول الذى لا أول قبلك ، وأنت الآخر الذى لا آخر بعدك ، الملائكة عاجزون عن إدراك جلالك ، والناس قاصرون عن معرفة كمال ذاتك .

اللهم خلصنا من العوائق الدنيـة الجسمانية ، ونجنا من العوائق الردية الظلمانية ، وأرســـل على أرواحنا شوارف آثارك ، وأفض على نفوسنا بوارق أنوارك .

العقل قطرة من قطرات بحار ملكوتك ، والنفس شعلة من شعلات جبروتك ، ذاتك ذات فياضة تفيض منها جواهر روحانية ، لا متمكنة ولا متحيزة ، لا متصلة ولا منفصلة ، مبرأة عن الأحياز والأين ، معراة عن الوصل والبين ، فسبحان الذى لا تدركه الأبصار ، ولا تمثله الأفكار ، لك الحمد والثناء ، ومنك المنع والعطاء ، ولك الجود والبقاء ، فسبحان الذى فى يده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » .

قال ابن سودكين راوياً عن شيخه : رأيت الحلاج فى هذا التجلى فقلت له يا حلاج : هل تصح عندك عليه له واشرت ، فتبسم وقال لى : أتريد قول القائل : يا علة العلل ؟ ويا قديم لم يزل ؟ قلت له نعم ، قال : هذه قولة جاهل ، أعلم أن الله تعالى يخلق العلل وليس بعلة ، كيف يقبل العلية

من كان ولا شيء معه ، وأوجد من لا شيء ، وهو الآن كما كان ، ولا شيء جل وتعالى .

لو كان علة لارتبط ، ولو ارتبط لم يصح له الكمال ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ! ! ! قلت له هكذا أعرفه ، قال : هكذا ينبغي أن يعرف فاثبت » .

قال ابن سودكين : سمعت شيخي يقول في أثناء شرحه لهذا التجلي : لما اجتمعت بالحلاج رحمه الله في هذا التجلي وسألته عن العلية ، هل تصح عنده أم لا ؟ فقال : هي قولة جاهل ، يعني أرسطو[1] » .

ويقول الحلاج واصفاً للمتحققين بالله في وجـــدهم : « إن لله عباداً اختارهم من خلقه ، واصطفاهم لنفسه ، وانتخبهم لسره ، وأطلعهم على لطيف حكمته ، ومخزون علمه ، أفناهم عن أوصافهم الناشئة عن طبائعهم ، ولم يردهم إلى علومهم المستخرجة بحكم عقولهم ، ولم يحوجهم إلى المرسوم من حكمة الحكماء ، بل كان هو لسانهم الذي به ينطقون ، وبصرهم الذي به يبصرون ، وأسماعهم التي بها يسمعون ، وأيديهم التي بها يبطشون ، وقلوبهم التي بها يتفكرون .

بان عن حلول في ذواتهم ، فأبدى الأشياء فيما بينه وبينهم ، قهر كل موجود ، وغمر كل محدود ، وأفنى كل معهود ، ظهر لأهل صفوته ، ولم يجعل للعلم إلى كيفية ذلك سبيلا ، ولا إلى بحث ذلك تمثيلا » .

ومن الكلم الطيب الذي يصعد في معارج النور إلى مقام الإلهام قول الحلاج :

« من عرفه ما وصفه ، ومن وصفه ما عرفه ، عنت الوجوه لعظمة كبريائه في أرضه وسمائه ، وأنست قلوب أوليائه بشهود جلاله وجماله

---

(١) أخبار الحلاج طبع باريس .

وبهائه ، وكلت المقاول عن شكر آلائه وأفضاله ونعمائه ، وقصرت المعارف عن ذاته وصفاته وأسمائه ، وحارت العقول فى نزوله وارتفاعه واستوائه ! ! !

فقوم جحدوا وألحدوا ، وقوم أشركوا وعددوا ، وقوم أنكروا الصفات فعطلوا وبطلوا ، وقوم أثبتوها ولكن شبهوا وشكوا .

ولم يصب شاكلة الحق إلا من آمن بالذات والصفات ، وكفر باللات والآلات ، ولازم التوحيد والتنزيه ، وأثبت الصفة ونفى التعطيل والتشبيه .

صلته القوية بالله

وغشى مع الحلاج خطوات فى آفاقه الذوقية ، وفى مواجيده وحبه للذات الإلهية ، وفى تلك المجالات الروحية التى ابتدعها حول صلات العبد الولى المختار ، بمفيض الوجود ومبدعه وملهمه .

وصلة الحلاج بالله سبحانه ، تدور على قطبين : الحب الواله القوى الغلاب المدهل ، والفناء فى هذا لحب فناء شاملا يذوب فيه كل شىء مادى دنيوى ويحترق ليخلد .

ثم مرحلة السير فى هذا الحب ، ومجالات هذا السير الروحية ، بما فيها من إلهامات وتجليات ، ومواجيد وأشواق وحيرة ودهشة وعذاب .

والمحب هنا فى عذاب ملهم ، يعذب فى بحثه عن مولاه ، ويعذب فى حبه له ، ويعذب فى حيرته حيال جبروته وآياته .

والعذاب فى الحب الإلهى أكبر خير يفيضه الله سبحانه على عبده ووليه المحبوب .

وإن لله سبحانه لنظرات وإشراقات وزيارات للقلب المحب المعذب المحترق ، زيارات تهب ولهاً مقدساً ، يعبه هجران يدفع إلى دهشة محلقة .

ومن كل هذه الانفعالات تنبثق مواجيد المعرفة العليا ، وتسبيحات الولاية العظمى ، وينبثق فوق هـــذا وذاك فى قلب المحب ، فيض إلهى يعبر عن الإرادات الإلهية ، ويقتبس من نورها وهداها .

وروح المحب الولى ، هو وحده الذى يظفر بهذا الفيض الإلهى ، لا عن طريق الحلول التحيزى ، بل بوساطة الفيض النورانى الذى يرفع أرواح الأولياء المحبين إلى المراتب القدسية .

وخلال هذا الفيض أو هذا الإتصال ، تحدث الجذبة الروحية التى تصورها لنا تلك المناجاة المشعة المستمرة بين روح المحب ومحبوبه الأسمى الذى تشعر بوجوده فى أعماقها .

وحينئذ تتوالى ضراعات الروح وترتفع إلى مولاها بكل آلامها وآمالها وأشواقها فى لغة فوق لغة الألسن ، وفى تصوير لا يمت إلى العلائق الدنيوية بصلة أو نسب .

يقول الحلاج :

« أعلم أن العبد إذا وحد ربه فقد أثبت نفسه ، ومن أثبت نفسه فقد أتى بالشرك الخفى ، وإنما الله تعالى هو الذى وحد نفسه على لسان من يشاء من خلقه » : — وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى —

والذين لا يستطيعون متابعة مثل هذا الروح فى عروجه وسلوكه وحبه وعذابه وتجربته ، لا يستطيعون أن ينكروا أنها محاولة فى المعرفة الذوقية ، وفى الحب والإيمان اليقينى ، ليست أقل شأناً فى تاريخ العقل الإنسانى من مسلك الفلاسفة ، ومنهج المتكلمين .

يقول الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي : « إذا كان وجود الخالق ووجود المخلوق واحداً ، فلا معنى لقيام حوار العشق بينه وبين الله » .

وهذه آية الآيات على نفى الوحدة ، ونفى الحلول فى منهج الحب الإلهى الصوفى .

والحلاج من أكبر من تغنوا بالحب الإلهى ، ولعله أكبرهم عاطفة ، وأشدهم وجداً وولها .

يقول الحلاج : « إن المسافة بين النفس وبين الله تتوقف فى مقدارها على صفة العشق الإلهى » .

ويقول : « إن شهادة الحمد هى شهادة حب ، وإن القلب الذى يعرف الحب لا يموت أبداً » .

إن عذاب الحلاج فى حبه ، وفى صلته بربه لتقـــدم لنا أروع نماذج الإيمان الصوفى .

لقد عاش الحلاج فى وجد وعذاب ، وفى سبحة علوية من إلهامات حبه وشوقه وذوقه .

وإنها لمواجيد حق وصدق ، وإن عجزت عنها فهوم الأكابر .

يقول الحلاج[1] :

مواجيد حق أوجـد الحق كلها   وإن عجزت عنها فهوم الأكابر

وما الوجد إلا خطرة ثم نظرة   تنشى لهيباً بين تلك السرائر

إذا سكن الحق السريرة ضوعفت   ثلاثه أحوال لأهل البصائر

والوجد والعذاب فيض ربانى على المصطفين الأحبـــة ، ولهذا فهو لا يصطنع فى وجده ما يلهبه ويثيره من سماع أو ذكر كما يصطنع غيره .

أنت الموله لى لا الذكر ولهنى   حاشا لقلبى أن يعلق به ذكرى

الذكر واسطة تخفيك عن نظرى[2]   إذا توشحه من خاطرى فكرى

وكل شىء فى الوجود مادى أو معنوى ، هو حجاب دون رؤية الله سبحانه ، يجب الفناء عنها ، كما يجب أن يفنى الإنسان عن نفسه أيضاً .

بدا لك سر طال عنك اكتنامـه   ولاح صبح كنت أنت ظـــلامه

وأنت حجاب القلب عن سر غيبه   ولولاك لم يطبع عليك ختامه[3]

إن تجربة الحلاج الصوفية فى المعرفة الإلهية لتجربة فذة عليها طابعه وحده ، لقد شارك الصوفية فى مواجيدهم وأذواقهم ، ثم ابتدع منهجاً خاصاً به هو سره الأكبر ، لقد جعل من الآلام شيئاً مقصودا لذاته .

---

(١) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ١٩
(٢) » » » » ١٨
(٣) » » » » ٢

أريدك لا أريدك للثـــواب ولـكنى أريدك للعقـاب
فـكل مآربى قد نلت منهـــا سوى ملذوذ وجدى بالعذاب[1]

يقول ابن الخطيب ، فى تاريخ بغداد : « إن ابن عطاء لما سمع هذا الشعر قال : هذا مما يتزايد به عذاب الشغف ، وهيام الـكلف ، واحتراق الأسف ، وشغف الحب ، فإذا صفا ووفا ، علا إلى مشرب عذب ، وهطل من الحق دائم سكب » .

والحب لذة لا يعرفها إلا الصفوة من المحبين .

مكانك من قلبى هو القلب كله فليس لخلق فى مكانك موضع
وحطتك روحى بين جلدى وأعظمى فـكيف ترانى إن فقدتك أصنع[2]

ونحن ندنو رويداً من فلسفة الحلاج العليا فى الحب الإلهى .

وأى أرض تخـــلو منك حتى تعالوا يطلبونك من السماء
تراهم ينظرون إليـك جهراً وهم لا يبصرون من العماء[3]

إنه كما يقول المستشرق — دى بور — يحاول أن يتذوق بروحه ما يحاول المتكلمون والفلاسفة أن يصلوا إليه بالنظر العقلى.

وإنه للحب العالى . الحب الذى تعجز الـكلمات عن تصويره أو كما يقول « سحنون » لا يعبر عن شىء إلا بما هو أرق منه ولا شىء أرق من المحبة فيما يعبر عنها .

يقول الحلاج :

لى حبيب أزور فى الخلوات حاضر غائب عن اللحظات
ما ترانى أصغى إليه يسمع كى أعى ما يقول من كلمات

---

(١) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ٧
(٢) « « « « ٣
(٣) « « « « ١

كلمات من غير شكل ولا نطـ ق ولا مثل نغمة الأصوات
فكأنى مخاطب كنت إيا ه على خاطرى بذاتى لذاتى
حاضر غائب قريب بعيد وهو لم تحوه رسوم الصفات
هو أدنى من الضمير إلى الوهـ م وأخفى من لائح الخطرات[1]

ومن الكلم المضيء الذى يكشف عن منهج الحلاج وإيمانه الذوقى ، تلك الدراسة التحليلية الرائعة التى أدارها الحلاج حول كيفية معرفة الإنسان لربه وخالقه .

قال الطواسين[2] وهي أدق وأعمق ما انفرجت عنه الأقلام :

« . . من قال عرفته بفقدى ، فالمفقود كيف يعرف الموجود ، ومن قال عرفته بوجودى ، فقديمان لا يكونان .

ومن قال عرفته حين جهلته فالجهل حجاب ، والمعرفة وراء الحجاب لا حقيقة لها .

ومن قال عرفته بالإسم ، فالإسم لا يفارق المسمى ، لأنه ليس بمخلوق .

ومن قال عرفته به فقد أشار إلى معروفين ؟ ومن قال عرفته بصفته ، فقد اكتفى بالصنع دون الصانع ، ومن قال عرفته بالعجز عن معرفته فالعاجز منقطع . والمنقطع كيف يدرك المعروف .

ومن قال كما عرفنى عرفته ، فقد أشار إلى العلم فرجع إلى المعلوم ، والمعلوم يفارق الذات ، ومن فارق الذات كيف يدرك الذات .

ومن قال عرفته كما وصف نفسه ، فقد قنع بالخبر دون الأثر .

ومن قال عرفته على حـــدين ، فالمعروف شيء واحد لا يتحيز ولا يتبعض ؟

---

(١) ديوان الحلاج مقطوعة رقم ١١
(٢) الطواسين ص ٧١ و ٧٢ و ٧٣

ومن قال : المعروف عرف نفسه فقد أقر بأن العارف فى البين متكلف به ، لأن المعروف لم يزل كان عارفاً بنفسه ، يا عجباً ممن لا يعرف شعره من بدنه ، كيف تنبت سوداء ، أم بيضاء ، كيف يعرف مكون الأشياء .

من لا يعرف المجمل والمفصل ،ولا يعرف الآخر والأول، والتصاريف والعلل ، والحقائق والحيل ، لا تصح له معرفة من لم يزل .

سبحان من حجبهم بالإسم والرسم والوسم ، حجبهم بالقال والحال والكمال والجلال ، عن الذى لم يزل ولا يزال .

القلب مضغة جوفانية ، فالمعرفة لا تستقر فيها ، لأنها ربانية

من قال عرفته على الحقيقة ، فقد جعـــل وجوده أعظم من وجود المعروف ، لأن من عرف شيئاً على الحقيقة فقد صار أقوى من معروفه حين عرفه » .

ويقول الحلاج عن الخواص العارفين :

« فالخواص عباده الذين محاهم عن شواهدهم ، وصانهم عن أسباب الفرقة ، باستهلاكهم فى شهوده ، واستغراقهم فى وجوده ، فأى سبيل للشيطان إليهم ، وأى يد للعدو عليهم ، ومن أشهده الحق حقائق التوحيد ، ورأى العالم معترفاً فى نقة التقدير ، لم يكن نهباً للاغيار ، فمتى يكون للغير عليه تسلط » .

الحلاج وأعلام التصوف فى عصره

ومن صلة الحلاج بالله ، تكونت فلسفته الذوقية والإيمانية ، التى عرفت فى التاريخ بالحلاجية ، تلك الفلسفة التى طبعت التصوف فى عصره الذهبي — عصر الحلاج — بطابعها، والتى غدت كما يقول — نيكلسون — الراية التى تأتم بها العصور التى تعاقبت من بعده ، والتى جعلت رجال الفكر الأوربى ، يطلقون على الحلاج لقب « المفتى » فى الأمور الصوفية ، كما يقول العلامة — ليبنتر —

ومن صلة الحلاج بالله ، انبثقت شخصية الحلاج ، تلك الشخصية التى تلاقت فيها ، العملاقية الجبارة الرهيبة ، بالروحانية المشعة الحبيبة .

تلك الشخصية التى شكلت وخطب فى التصوف الإسلامى أروع آياته، وأخلد مواقفه .

وشخصية الحلاج عندى من ألغاز التاريخ ، ومن مواقف العقول .

فهى شخصية فى ملامحها العقلية والإيمانية ، عمق يندفع جباراً إلى أغوار ليس السهل على الباحث أن يلاحقها فى اندفاعها ، وأن يتابعها فى مسالكها .

وفى آفاقها الذوقية والخلقية ، انفساح وشمول تقصر أجنحه الدارسين عن الدنو منها ، والإمساك بآثارها .

إن الحلاج يفهمه القلب ، أكثر مما يحيط به العقل ، ويدركه الحس ، ويدنو منه الوجدان ، أكثر مما يحلله الفكر والبيان .

إنه فى حاجـــة إلى أن نرتفع بأذواقنا ومواجيدنا ، وأن نتلمس بأرواحنا وأشواقنا ، الطريق الذى نطل من نوافذه على أسرار ذلك الروح الكبير الذى حاول فى عظمة شاهقة، أن يكون صورة الولى الكامل، المعبر عن الله .

والذى حاول فى بطولة خارقة ، أن يكون الشهيد الذى يكتب بدمه آية الفداء لحبه وعقيدته .

الشهيد الذى وقف على آلة صلبة ، يتحدى الدنيا فلما قطعت أعضاؤه ، وتدفق دمه ، أخذ يتوضأ بهذا الدم ، فلما سئل ماذا تفعل ، قال : « ركعتان فى العشق لا يصح وضوؤهما إلا بالدم » .

ولسنا هنا بصدد تحليل تلك الشخصية الخارقة ، فلهذا مكانه من تلك الدراسة .

وإنما نقدم لمحات ، ترشد وتومىء إلى شخصية الحلاج ، وتلقى شعاعا من الضوء على أسرارها .

وتلك اللمحات التى نقصدها ، هى موقف أعلام التصوف الإسلامى فى عصر الحلاج ؟ وموقف الحلاج منهم .

يقول المستشرق — الفرد فون كريمر — : « فالكل مجمعون على أنه كان على رأس فرقة كبيرة ، وأنه كان له أتباع كثيرون ، أعجبوا به ، واتخذوه إماماً ومرشداً[1] .

ويذكر لنا ماسنيون[2] : أن كثيراً من الأمراء ، وقواد الجيش ،

---

(١) فى التصوف الإسلامى وتاريخه لنيكلسون ص ١٣٠

(٢) شخصيات قلقة فى الإسلام .

وعظماء الدولة العباسية ، وأعلام المعتزلة ، وفقهاء الحنابلة ، وصفوة من المفكرين والمصلحين ، ومع كل هؤلاء جمهرة كبيرة من الناس ، كانوا جميعاً من أتباع الحلاج ، ومن تلاميـــذه ، ومن المؤمنين بقداسته وولايته ، ودعوته الإصلاحية .

ومع هذا كله ، فإن عدداً من أعلام التصوف الإسلامى فى عصره ، قد خاصمه ولم يناصره فى أهدافه وصيحاته ، ولم يسانده فى محنته واستشهاده.

لقد جاء الحلاج ليضيف جديداً إلى التصوف الإسلامى ، فى صلته بالله ، وفى صلاته بالحياة .

لقد جاء الحلاج لا ليكون صورة مكررة من الناس أو من العلماء ، او سطوراً متلألئة فى كتب التاريخ بجانب السطور التى خطها المفكرون أو العابدون .

جاء ليكون كتاباً وأمة ، جاء ليقيم منهجاً ، ويرسم طريقاً ، ويفتح أفقاً ، ويجعل من نفسه بعد هذا ، صورة صادقة معبرة وقائمة بمنهجه وطريقه وأفقه .

جاء ليصنع من تاريخه معالم وصوراً ، تهتدى بها الإنسانية ، فى سيرها المضىء إلى الله ، وفى جهادها العنيف للكمال والتسامى .

كان الحلاج ينشد فى المعرفة ، أن يظفر الصوفى ، بحظ من الفيض الإلهى ، ليعبر دائماً عن الإرادة الإلهية .

فإذا عبر عنها ارتفع إلى أفقها وقداستها ، فأصبح قوله ، صورة إيمانه فى دنياه ودينه .

ومن هنا جاءت عظمة العقيدة الحلاجية ، التى أخذت كل شىء بقوة

وعزم وبقداسة ، ولم تقبـــل أبداً ، تساهلا ، أو تردداً ، أو تقية .

يقول الحلاج : « الواجب على أولياء الله » أن يتوجهوا إلى الله وحده ، ويتحققوا بمعنى العبودية الكاملة ، ويطيعوا أمره مهما كلفهم ذلك ، من عنت وشقاء » .

والولاية عند الحلاج : تبلغ كمالها عن طريق الابتلاء واحتمال الألم. وتبلغ جلالها بالجهاد والتضحية .

فالصوفى المحب ، هو الذى وهب نفسه لله . وصبر على ابتلائه فى دنياه ، صبره على امتحانه فى حبه وإيمانه .

يقول الكلاباذى : « — ١ — سمعت بعض مشايخنا يقول : سمعت محمد بن سعد يقول : خدمت أبا المغيث — الحلاج — عشرين سنة ، فما رأيته اسف على شيء فاته ، أو طلب شيئاً فقده » .

ويقول : « — ٢ — وكان أبو المغيث لا يستند ولا ينام على جنبه ، وكان يقوم الليل . وإذا غلبته عينه ، قعد ووضـــع جبينه على ركبته فيغفو غفوة ، فقيل له : ارفق بنفسك ! فقال : والله ما رفق الرفيق بى رفقاً فرحت به ، أما سمعت سيد المرسلين يقول : أشد الناس بلاء ، الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل » .

ويقول : « — ٣ — سمعت بعض أصحابنا ، يقول : سمعت بعض الكبراء — الحلاج — يقول : ربما أغفو غفوة وأنادى : أتنام عنى ؟ إن نمت عنى ، لأضربنك بالسياط » .

والصوفى المحب لله ، هو الذى يقوم بكلمات الله فى الأرض ، مجاهداً

مناضلا مضحياً بكل شيء ، حتى تعلو كلمة الحق . وتمشى الإنسانية ؛ على الصراط المستقيم .

إن المحبة هى التضحية وهى الجهاد ؛ والصوفى المحب لله ، هو من كانت كلماته صورة عمله فى الدين والدنيا .

ومن هنا لم يكن زهد البسطامى ، ولا تقية الجنيد ، ولا سلبية المكى ، ولا تردد الشبلى ، مما يرضى عنه الحلاج .

لقد ثار الحلاج فى عنف . وفى قداسة على ولاة عهده . وفساد عصره.

كما ثار فى عنف وفى قداسة ، على السلبية الزاهدة التى عاشها كبار المتصوفة من معاصريه ، الذين قنعوا بعبادة الله وحبه ، غير ناظرين إلى واجباتهم حيال خلقه .

لقد عاب الحلاج على أبى يزيد البسطامى زهده العنيف الذى اتخذه طريقاً للوصول وقنع به ، فالوسيلة هنا ليست هى الأداة الكاملة ، وليست هى غاية التصوف أو سبيله .

إن الصوم والصلاة ليست طرقاً موصلة إلى الله ، بذاتها ، كما أن الذكر لا يعتبر وسيلة تفرض النتيجة على الله سبحانه .

إنما هو الحب ، الحب الذى يقربنا إلى الله ، الحب تحترق فيه شهواتنا ونزواتنا وأرضيتنا ، الحب الذى يزورنا الله خلال لهيب وجده ، ويمد يده إلينا ويباركنا ويلهمنا ، الحب مع التضحية الكاملة ، ومع القيام الكامل بحق الله علينا فى عبادته ، وبحق الله علينا حيال عباده .

ويروى لنا على بن أنجب الساعى ، عن أبى محمد الحسرى ، المعاصر للحلاج ، قصة تاريخية ، تعطينا صورة عن خصومات الحلاج مع صوفية عصره ، وكيف بدأت تلك الخصومات .

« ـــ ١ ـــ عن أبى محمد الجسرى قال : رأيت الجنيد ينكر على

الحلاج ، وكذلك عمراً بن عثمان المكى وأبا يعقوب النهروجورى ، وعلى ابن سهل الأصبهانى ، ومحمد بن داود الأصبهانى .

أما أبو يعقوب فقد رجع عن إنكاره فى آخر عمره ، وأما عمرو بن عثمان ، فكان علة إنكاره أن الحلاج دخل مكة ولقى عمراً ، ولما دخل عليه قال له : الفتى من أين ؟ فقال الحلاج : لوكانت رؤيتك بالله لرأيت كل شيء مكانه « فإن الله تعالى يرى كل شيء ، فخجل عمرو وغضب عليه ، ولم يظهر وحشته حتى مضت مدة ، ثم أشاع عنه أنه قال : يمكننى أن أتكلم بمثل هذا القرآن ! ؟

وأما على بن أبى سهل فدخل الحلاج أصفهان وكان على بن سهل مقبولا عند أهلها، فأخذ على بن سهل يتكلم فى المعرفة ؛ فقال الحسين بن منصور: يا دسوقى تتكلم فى المعرفة وأنا حى ؟ فقال على بن سهل : هذا زنديق ؟

واما الجنيد ؛ فكنت عنده ، إذ دخل شاب حسن الوجه والمنظر وعليه قيصان ، وجلس سويعة ، ثم قال للجنيد :

ما الذى يصد الخلق عن رسوم الطبيعة؟ فقال الجنيد : أرى فى كلامك فضولا ! أى خشبة تفسدها .

فخرج الشاب حزيناً وخرجت على أثره ، وقلت : رجل غريب قد أوحشه الشيخ ، فدخل المقابر ، وقعد فى زاوية ، ووضع رأسه على ركبته.

فأتيت الشاب وجلست بين يديه ألاطفه وأداريه ، ثم قلت : الفتى من أين ؟ قال من بيضاء فارس ، إلا أننى ربيت بالبصرة .

واعتذرت لديه للجنيد ، فقال : ليس له إلا الشيخوخة ، وإنما منزلة الرجال تعطى ، ولا تتعاطى . . . » .

ثم تغلظ هذه الخصومة ، كلما اندفع الحلاج إلى الثورة على فساد عصره، وإلى الدعوة إلى حكومة الأولياء والأقطاب كما كان يسميها الحلاج.

وأخذ الحلاج فى عنف وفى قداسة يتحدى أعلام المتصوفة فى عصره .
إنه رجل عقيدته صورة قوله ، فلا مجاملة عنده فيما يعتقد أنه الحق .
روى الكلاباذى فى التعرف : أن الحلاج حفر حفرة وأوقد فيها النار ووضع هارون حتى صار كالجمر ، وقال لمن يجادله من الصوفية ، ومن كبار العارفين .

من كان صادقاً بالله فليتقدم ويقف على الهاوون داخل النار ، فلم يقدر على ذلك أحد .

ثم أنه تقدم ووقف عليه فذاب تحت أقدامه ، حتى صار كالماء .

ويروى القشيرى فى رسالته[1] : قال الحلاج لإبراهيم الخواص : ماذا صنعت فى هذه الأسفار ، وقطع هذه المفاوز ؟ قال بقيت فى التوكل ، أصحح نفسى عليه ؟ فقال الحلاج : أفنيت عمرك فى عمران باطنك ، فأين الفناء فى التوحيد .

إنها السلبية عند غيره ، والإيجابية عنده ، قال الشبلى « كنت انا والحسين بن منصور شيئاً واحداً إلا أنه أظهر وكتمت » .

والإيجابية الحلاجية التى تجعل الحلاج يدخل مسجد بغداد وأبو القاسم الجنيد يتكلم على المنبر ، ، والجنيد هو الجنيد مكانة وعلماً .

فيهتف به الحلاج على مسمع من الدنيا : يا أبا القاسم إن الله لا يرضى من العالم بالعلم حتى يجده فى العلم فإن كنت فى العلم فالزم مكانك ، وإلا فانزل فنزل الجنيد ، ولم يتكلم على الناس شهراً[2] .

يقول الحلاج فى عزة الواثق من نفسه : من تكلم عن غيره معناه ، فقد تحمر فى دعواه ، ثم تلا قوله تعالى : كمثل الحمار يحمل أسفاراً » .

لقد حمل الحلاج أمانة الرسالة الصوفية كاملة ، ولم يستطع ذلك غيره ، أو كما يقول — ماسنيون — : « لقد عاش فى صوفيته تماماً » .

ويكثر تحدى الحلاج للجنيد خاصة ، إن سيد الطائفة . وفى يده

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٦٦ (٢) أخبار الحلاج طبع ماسنيون

القيادة والزعامة ، فيوجه إليه يوماً سؤالا متعمدا هادفاً عن قيمة الإلهام الباطنى ، ويوصف أنه قاعدة من قواعد التقوى والعبادة ؟ .

ويرفض الجنيد الإجابة، ويكرر الحلاج السؤال ، فيسميه الجنيد : « برجل المطامع » ويضحك الحلاج ساخراً ! ! ؟

وابتدأ الصراع بين الرجلين العظيمين ، وردت محافل بغداد ومساجدها، صدى هذا الصراع العنيف ، وابتدأ الجنيد يهاجم الحلاج جهرة ، فى غضب ، وفى تطرف ، ويرميه بالسحر والشعوذة ! ! ؟

قال أحمد بن يونس[1] ، : « كنا فى ضيافة بغداد فأطال الجنيد اللسان فى الحلاج ، ونسبه إلى السحر والشعوذة والنيرنج ! ! وكان مجلسنا غاصاً بالمشايخ ، فلم يتكلم أحد احترامه للجنيد ، فقال ابن خفيف : ياشيخ لا تطول ، ليس إجابة الدعاء . والإخبار عن الأسرار ، من النيرنجات والشعوذة والسحر ، فاتفق القوم على تصديق ابن خفيف ، فلما خرجنا أخبرت الحلاج بذلك فضحك وقال :

أما ابن خفيف فقد غضب لله . وسيؤجر على ذلك ، وأما أبو القاسم الجنيد ، فقد قال إنه كذب ؟ ! ولكن قل له : « سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ويمضى الحلاج فى تحديه للجنيد ، وتعقبه فى مساجد بغداد، يطالبه بأن يخرج من سلبيته إلى إيجابية الدعوة الصوفية ، فما يملك الجنيد فى لحظة غضب ، إلا أن يرمى بنبوءته الصادقة . . . ستقتل ؟ .

ويضحك الحــــلاج ، ويعقب بنبوءة أخرى صادقة أيضاً . . . نعم ، وستمضى على قتلى ! ! ؟ .

رجلان عظيمان ، لكل منهما عقيدته ومنهجه ، ولكنهما اختلفا ، ولو اتفقا لتغير وجه التاريخ .

---

(١) أخبار الحلاج ص ٩٢ .

الزعيم الثائر

وكما اصطدم الحلاج بالجنيد ومدرسنه ، اصطداماً أساسته الاختلاف الجذرى فى فهم التصوف عامة ، وصلة التصوف بالحياة خاصة اخذ أيضاً يصطدم ويصارع كافة القوى التي تهيمن على بغداد ، اصداماً وصراعاً أساسه الاختلاف الجـــذرى أيضاً فى فهم رسالة الإصلاح السياسى والإجتماعى للعالم الإسلامى .

لقد دخل الحلاج بغداد فى نهاية ٢٩٦ هـ ، بعد أن طوف بمشارق الأرض ومغاربها ، يبذر بذور مذهبه ، ويدعو الناس إلى ربه ، ويملأ افاق الأرض ، بألحان حبه ، ومواجيد قلبه ، دخلها وهى تمر بأيام حاسمة فى تاريخها ، وفى تاريخ الأمة الإسلامية كافة .

لقد وصلت بغداد فى نهاية القرن الثالث الهجرى إلى المرحلة التى يسميها الفيلسوف « اشبنلجر » البرزخ الفاصل ، بين قمة الحضارة ، وبداية التحلل والانحدار .

فقد حملت إلى بغداد كنوز الأرض وخراجها ، وتدفقت إليها ثروات الدنيا ومتاعها ، وهرع إليها أصحاب العقول والقلوب والمطامع والأهواء من كل لون و جنس وملة ونحلة ! ! ؟

وتدفق إليها سيل لا ينقطع،من الجوارى والإماء والعبيد والمغامرين، والمنجمين والمارقين والمبتدعين ، وصناع النزوات والشهوات .

وأخذت الصلابة العربية تتهاوى ، وأخذت الفكرة الإسلامية تلين وتتوارى .

وانطلقت بغداد وقد غدت عاصمة الدنيا تتبرج وتتزين وتعب من كل لذة، وتقتاف بكل شهوة، وتبتدع ألواناً من التفكير، وفنوناً من القول، لا تعرف القيود ولا الحدود !!؟

وأسرفت بغداد على نفسها فى الترف وفى الشهوات، إسرافا قتل فيها الحيوية الخلاقة، ونال من الشخصية الإسلامية المؤمنة المهتدية، التى صنعت التاريخ المضىء لهذا الكوكب.

وأسرفت بغداد على نفسها فى السبح الفلسفى، وفى الابتداع المذهبى، وفى الجدل العقلى، حتى أصبحت أنديتها أروقة للسفسطة والحوار، وغدت مساجدها ساحات للعراك والقتال بين الحنابلة والأشاعرة والمعتزلة، والصوفية والمنجمون والسحرة والفلاسفة، فتمزقت وحدتها الفكرية وانحلت أخوتها القلبية، وتبددت ثروتها الأخلاقية !!؟

وأسرفت بغداد على نفسها فى السياسة فنجمت الأحزاب والشيع والفرق، مقنعة وسافرة، عربية وأعجمية، مؤمنة وملحدة، ثائرة ورجعية !!؟.

أحزاب للعسكرية التركية المغامرة، تثير الفتن والقلاقل، وأحزاب للفرس والشيعة، تتربص بالخلافة الدوائر، وأحزاب للرجعية الدينية، تثير الشغب والقتال فى الطرقات والمساجد، وأحزاب للرأسمالية الاحتكاوية تمتص الحياة والدماء، وأحزاب للقصر تهيمن عليها الجوارى والإماء.

وفى القمة من هذا المجتمع العجيب، الخليفة المقتدر، صبى ملتاث عربيد، يقول عنه المؤرخ الكبير الطبرى وهو معاصر له. «وأما المقتدر فرقيق ركيك، لاه بما هو فيه من اللعب والسرف والتبذير؛ أحب جارية رومية حسناء، أسلمها الدولة وأهدى لها فصاً من الياقوت بثلاثمائة ألف دينار».

ويقول المؤرخ ابن الأثير: «كان المقتدر الطفل الخليفة لا هم له إلا أن

يلهو فى قصره بين عشر آلاف خصى من الصقالبة والجوارى والغلمان .

ومن فوق هذا الخليفة الطفل ، والدته السيدة « شغب » التى أحالت الملك العريض إلى العوبة فى يدها ، وبلغ من نفوذها واستهتارها ، أن أمرت قهرمانتها « أم موسى » أن تجلس فى مجلس القضاء للمظالم ، ومن نفوذ هذه القهرمانة : أنها كانت تصدر أوامر المصادرات وإحصاء الأموال والتركات » .

ويقول الدميرى فى كتاب الحيوان : « وانطلقت الألسن فى المقتدر وأمه ووزرائه وعماله وقضاته ، وكثر السبي والقتل ، ودخل المنجمون والمتخرصون على الرؤساء والنساء ، وقعد الدجالون للناس فى الطرقات» .

ويقول العلامة السيوطى فى كتابه تاريخ الخلفاء[1] : « إن محمد بن جرير الطبرى لما علم بخلع المقتدر ، ومبايعة ابن المعتز ، قال : ما الخبر ؟ قيل : بويع ابن المعتز ، قال فمن رشح للوزارة ؟ قيل : محمد بن داود ، قال . فمن ذكر للقضاء ؟ قيل : أبو المثنى ، فأطرق ثم قال : هذا الأمر لا يتم ! فقيل له : وكيف ؟ قال : كل واحد ممن سميتم متقدم فى معناه ، عالى الرتبة ، والزمان مدبر ، والدنيا مولية ، وما أرى هذا إلا إلى اضمحلال ، وما أرى لمدته طولا » .

ومن قلب هذه الحياة المتداعية ، وعلى القمم العالية؛ من هذه التيارات المتصارعة ، تجلت شخصية الحلاج، بما أفيض عليها من جاذبية ومغناطيسية، وبما تملك من قوى خارقة أسطورية ، وبما ترقرق حولها من بريق الروح وسناء الايمان ، وبما تميله من بطولة فدائية لا تلين ولا تهادن . وبما تقدم للناس من منهج متكامل ، للدين والدنيا .

كانت شخصيـــة تملأ عين من يراها سحراً ، وتملأ قلب من

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٥٢.

يشاهدها إجلالا . وتملك فوق هذا وذاك قدرة الإيحاء الذى يطلق الأمل الحى فى قلوب الدعاة المؤمنين ، ويرسم الغد الجميل للقانطين واليائسين .

كان الحلاج يبشر بمنهج فيه بريق التصوف وروحانيته وإشراقه ، وفيه أهداف السياسة الإيجابية البناءة .

كان كما يقول المستشرق — ماسنيون — يهدف إلى قيام خلافة ليس بينها وبين الجمهور نفور سياسى . ويعمل كى يزيل من شعوب الدولة ما بينها من نفور إجتماعى ، ويزيل مابين الفرق من نفور دينى ، ويحطم ما بين الطبقات من تفاوت مادى » .

منهج إيجابى للإصلاح السياسى والإجتماعى ، يظلله ويدعمه منهج روحى قوامه الدعوة إلى حكومة الأتقياء الأولياء الذين يملأون الأرض عدلا وقسطا ، ويملأون القلوب إيماناً وحباً . الحكومة الربانية المهتدية التى ستعيد حكومة الرسول ، بكل مافيها من عدل وقوة ، ومحبة وعبادة .

أو كما يقول الحلاج : « خلافة ربانية تشعر بمسئوليتها أمام الله ، مما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض دينهم ، من صيام وصلاة ، وحج وزكاة » .

وبذلك ربط الحلاج بين صلاح الحكم ، وقبول الله سبحانه للعبادة من عباده المؤمنين .

فلن يقبل الله عبادة عابد ، تحت ظل حكم فاسد ، كما يقول ، وأولياء الله حقاً فى منهجه ، هم الذين يحملون أمانة الرسل فى الإصلاح العام ، وهم الذين يقودون الإنسانية إلى الله ، وإن واجههم أن يستشهدوا أو ينتصروا .

ذلك إيمان الحلاج ، وتلك دعوته ، التى انبثقت منها صيحته الكبرى ذات الرنين الخلاب .

صيحة الخلافة ، التى يتولى القيادة فيها والزعامة ، القطب الولى

الأكبر ، الذى له خلافة الظاهر والباطن ، القطب الزعيم الذى ارتبط قلبه بالله ، فقام به وتلقى عنه ، القطب الذى يمشى على خطو الأنبياء ومنهجهم ، ويحقق بأعماله رسالتهم .

القطب الذى سيقود العالم الإسلامى ، بل الإنسانية كافة . إلى معارج الكمال القرآنى وآفاق الحب الإلهى . فيصبح الإنسان جديراً بخلافة الله .

تلك هى الخطوط الرئيسية لمنهج الحلاج . الذى دوى فى سماء بغداد ، فأطلق العواصف الموحدة ، وأثار المعارك الملتهبة ، وانقسم الناس حياله ، كما يقول المستشرق — نيكلسون — إلى حلاجية ، وخصوم للحلاجية » .

يقول ما سنيون : « إن الحلاج أحيا بمنهجه هذا » وبحميته الثائرة ، وبشخصيته الباهرة ، الآمال العريضة ، والأحلام الجميلة ، التى كانت تعيش فى أعماق الأمة الإسلامية ، فالتفت حوله الجماهير ، واندفع فى تياره كثير من الأمراء والوزراء والقادة » .

وفى الناحية الأخرى ، أحاطت بالحلاج الأحقاد والخصومات العنيفة الملتهبة ، لقد جاء ليزلزل نظاماً ، ويحطم حكما ، ويحارب فساداً شامخاً ، وينتزع من الزعامات الفكرية والروحية مكاناً سامقاً ! ! ؟

لقد لقبه الإمام الجنيد من أجل هذا المنهج « برجل المطامع » وهى كلمة لها معناها ودلالتها وهدفها .

يقول — الاصطخرى — : « إن كثيراً من علية القوم رأوا حينئذ فى الحلاج أنه الرئيس القطب » .

الرئيس القطب رجل المطامع ، الذى ينشد الخلافة لنفسه ، إن هذا وحده يكفل للحلاج عداوة شامخة مريرة ، من كافة القوى المنتفعة بالخلافة ، وما يحيط بها وما يدور فى فلكها .

وزاد من عنف المعركة ، أن الحلاج كان بطبيعته المؤمنة الثائرة ،

مهاجماً قاسياً عنيفاً ، لا يعرف المهادنة ولا يعترف بالتقية ، ولا يرضى بأنصاف الحلول .

هاجم الشيعة وطالب بعزلهم عن الخراج ، وإبعادهم عن بيت المال . لقد أرهقوا الناس ، وأفسدوا الضمائر ، واختلسوا الأموال ، واحتكروا الأرزاق .

وهاجم المعتزلة ، لأنهم حصروا أنفسهم فى قوالب فلسفية ، وأهملوا دعوة الإصلاح والحرية .

وحارب الوزراء الذين تخرجوا من المدارس النسطورية ، وكانوا من أصول نصرانية ، كابن وهب ، وابن نوبخت ، لأن فى قلوبهم بقية ملحدة تحارب الإسلام ، ولا تؤمن بدعوته .

وهاجم الخلافة وأحزابها وقوادها وحجابها ، لقد غرقوا فى الترف ، وأسرفوا فى المجون ، وأشاعوا الفساد ، واستبدوا بالعباد ، وانحرفوا عن رسالة الإسلام ! ؟

وأخذ الحلاج يدعم معركته برسائل سياسية ، تحدث عن منهجه فى الإصلاح العام ، وأوضح واجبات الوزراء ، وحقوق الرعية ، كما تحدث فيها عن الخلافة الربانية ، وما يجب أن يتوافر لديها من شروط .

وهى رسائل لا تزال مخطوطة متفرقة فى مكتبات العالم ، بما تشتمل عليه من تصوير رائع لمرحلة من أخطر المراحل الفكرية فى تاريخ الأمة الإسلامية .

لقد تحدث الحلاج فى هذه الرسائل عن الحرية الفردية ، وعن الحقوق الإجتماعية ، وعن المثالية الخلقية ، كما تحدث عن السياسة المالية فى الخراج والضرائب ، وعن سياسة الحكم وتبعاته وأهدافه .

وبذلك سبق الحلاج بمنهجه الذى يمكن أن نسميه بالاشتراكية

الديموقراطية الدينية : كافة الدعاة العالميين إلى هذا اللون المنهجى فى الإصلاح الاجتماعى .

ومن أشهر هذه الرسائل ، الرسائل الثلاث التى أهداها إلى أصدقائه من الوزراء ، حسين بن حمدان ، وابن عيسى ، ونصر القشورى .

ثورة ابن المعتز

وعلى دوى كلمات الحلاج المزلزلة ، أخذت العناصر الثائرة ، الطامعة فى الخلافة من بنى العباس ، ترفع رأسها ، وتدبر أمرها ، وتطمع فى أن تثب فى عنان هذه الحملة الحلاجية على عرش الخلافة لتنتزعه لنفسها .

وكان ابن المعتز الشاعر العباسى الكبير ، من أبناء الخلفاء ، وكان يرى أنه أحق بالخلافة من المقتدر .

وكان يلوذ به طائفة قوية من أبناء البيت العباسى ، غضبوا من المقتدر ورأوا فى مجونه ولهوه وتهالكه ، وهيمنة النساء عليه نذيراً يعرض البيت العباسى بأسره للزوال والفناء .

ورأى أدباء بغداد وشعراؤها فى ابن المعتز ، زميلا شاعراً أديباً ، فطافوا به ، ومشوا فى ركابه ، واحتضنوا دعوته .

كما رأى الحنابلة المتعصبون المتزمتون فى ابن المعتز ، متنفساً لحقدهم على الخليفة ، الطفل العابث ، فأسرعوا إلى ابن المعتز يحيطونه بهالة من قداسة الدين وبريقه .

وأخذ بعض تلاميذ الحلاج من الوزراء والقواد ينضمون إلى ابن المعتز سراً ، لقد رأوا فى حركته سبيلا قد يحقق لأستاذهم مايدعو إليه ، ويبشر به ، وكان أكبر هؤلاء التلاميذ الأمير الحسين بن حمدان الذى تولى القيادة العسكرية للثورة .

ويرى ماسنيون : وأدار الحلاج دعوته من وراء الحجب وفى سنة (٢٩٦هـ — ٩٠٨م) انفجرت المؤامرة الإصلاحية ، وقامت خلافة تحت

رعاية الحلاج . تولاها ابن المعتز ، ولكنها استمرت يوماً واحداً ثم فشلت ، لأنها لم تستطع الحصول على الأموال من المولين اليهود فى القصر ، وقد كانوا متواطئين مع عمال الخراج الشيعة .

فأعيدت الخلافة إلى المقتدر : بمساعدة الشرطة ، وابن الفرات ، الذى تولى الوزارة وكان أول أمر أصدره هو القبض على الحلاج وأتباعه .

ونجا الحلاج من القبض ، واختفى لدى الحنابلة ، ببلدة — سوس — من الأهواز .

وبعد ثلاث سنوات من اختفائه ، وبخيانة عامل مدينة واسط حامد ؛ قبض على الحلاج وجيء به إلى بغداد ، حيث ابتدأت قضيته العالمية » .

ولكن الحلاج نجا مما أعد له . لقد كانت له مكانة شعبية تحميه وتعصمه من غضب الخليفة ، وكان له أنصاره الأقوياء من الأمراء والوزراء ومن كبار رجال القصر .

أنصار استطاعوا أن ينتزعوا من الخليفة المقتدر ، أمراً بالعفو عن الحلاج ، وأن يكتفى بتحديد إقامته بدار حاجب الخليفة نصر القشورى تلميذ الحلاج المخلص .

يقول صاحب تاريخ بغداد : « فأقام عند نصر القشورى ، فى سعة ودعة يزوره من يشاء[1] .

تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٤

الحلاج فى قصر الخليفة

ثم أطلقت حرية الحلاج كاملة ، فعاد إلى منهجه ورسالته ، يقول ابنه أحمد كما يروى صاحب تاريخ بغداد : « إن والده وقع له عند الناس قبول عظيم ، حتى حسده جميع من فى وقته .

ثم بنى داراً ببغداد واتخذ قراراً ، ودعا الناس إلى فكرته فأجابه الخلق .

وخرج عليه محمد بن داود الظاهرى ، وجماعه من أهل العلم وقبحوا صورته .

ووقع بينه وبين الوزير ، على بن عيسى ، عداوة من أجل نصر القشورى ، ووقع بينه وبين الشبلى وغيره من مشايخ الصوفية ، واختلفت الألسن فى أمره[1] » .

وكلمة أحمد بن الحلاج تصور لنا تلك الحقبة من حياة الحلاج تصويراً دقيقاً .

لقد واصل دعوته بتلك الحمية الثائرة التى أثرت عنه ، فأجابه الخلق ، كما ثارت حوله الخصومات من جديد .

فخاصمه أول ماخاصمه ابن داود الظاهرى ، الفقيه الجامد المتعصب ومن يلوذ به الفقهاء خصوم الحياة الروحية بكافة صورها وأخذوا ينشرون الشائعات حول الحلاج وعقيدته ودعوته .

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١١٣ .

ومن الناحية السياسية ، خاصمه الوزير على بن عيسى، خصومة سياسية، من أجل نصر القشورى حاجب الخليفة ، وخصمه السياسى .

وفجأة حدث تحول بعيد المدى فى حياة الحلاج ودعوته ، بل بعيد المدى فى تاريخه ومأساته .

يقول البغدادى[1] ، إن علة عرضت للمقتدر بالله فى جوفه ، ووقف نصر القشورى على خبرها ، فحدث الخليفة عن الحلاج ووصفه بأنه الرجل الصالح ، واستأذنه فى إدخاله إليه فأذن له .

وجاء الحلاج فوضع يده على الموضع الذى كانت العلة فيه ، وقرأ عليه فاتفق أن زالت العلة .

ثم يقول : « ولحق والدة المقتدر بالله ، مثل تلك العلة وفعل بها ذلك فزال ماوجدته ، فقام للحلاج بذلك سوق فى الدار ، وعند والدة المقتدر والخدم والحاشية » .

ويقول عريب القرطبي فى كتابه — صلة تاريخ الطبرى — « أحيا الحلاج ببغاء ولى العهد الراضى محمد بن جعفر المقتدر فأحدث ذلك دوياً فى القصر وفى بغداد » .

ويحدثنا صاحب تاريخ بغداد حديثاً عجباً عن الحلاج الذى أقام فى قصر الخليفة ، بأمر الخليفة ، وكيف غدا صاحب الكلمة الأولى فى القصر، ثم يقول :

« وكانت بنت السمرى صاحب الحلاج قد أدخلت إليه ، وأقامت عنده فى دار السلطان » .

ثم يذكر فى موضع آخر ، أن ابنة الحلاج قد أقامت معه أيضاً فى دار الخليفه[2] .

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٤ .

(٢) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٥

أى أن الحلاج قد انتقل بأسرته وخدمه ومعارفه إلى دار الخلافة .

أصبح الحلاج سيداً مطاعاً مرهوباً ، عال المكانة ، مسموع الصوت ، فى قصر الخليفة .

وغدت والدة الخليفة المقتدر ، السيدة — شغب — بسلطانها وجلالها ونفوذها ، من أخلص تلاميذ الحلاج المؤمنين به ، المدافعين عنه .

ومشى كثير من الوزراء والقواد والأمراء فى موكبه ، وحفوا به فى مجالسه . واعتنقوا منهجه ، إما عن اقتناع به ، وإما افتتاناً بشخصيته الساحرة ، وإما تزلفاً وتقرباً لرجل ، أصبحت الأسرة الحاكمة ترعاه وتجله ، وتؤمن به وتقدره .

وامتلأ قصر الخليفة الكبير ، بالحديث عن كراماته وآياته ، وما تصنع يداه من عجائب وغرائب . تكاد ترتفع فوق الكرامات والآيات .

وأسرف الناس كعادتهم فى هذا الحديث ، ولونوه ووشوه ، وأضافوا إليه وزادوا فيه ، حتى غدا الحلاج أكثر من أسطورة ، وأكبر من ولى ، فى أفق بغداد ، وسماء العراق .

وملأت الهمسات الملونة ، أندية بغداد ومساجدها ، وفقد خصوم الحلاج أعصابهم ، فقد رأوا غريمهم ، يرتفع شاهقاً فوق هاماتهم فراحوا يملأون الدنيا صياحاً غاضباً مجنوناً ، حول الحلاج ، الدعى الساحر الدجال حيناً ، وحيناً تتناول الصيحات المرعدة ، عقيدته الإيمانية . فترميه وتصفه بالكفر والفسوق ، والاتحاد والحلول !

والحلاج فى آفاقه بعيداً بعيداً عن هذا الدوى ، لقد ملكت عليه رسالته الإصلاحية أقطار تفكيره ، وملك عليه حبه لربه ، وجدانه وقلبه فراح يجاهد فى الميدانين ، بما أثر عنه من حماس ملتهب ، وبما عرف به من عزمات لا تلين .

ولكن الذى كان يمزق قلب الحلاج حقاً ، ويملأه بالأسى المرير هو موقف أحبابه وأساتذته وتلاميذه من الصوفية ، من أبناء مدرسة الجنيد ، لقد حاربوه فى رسالته ، وبارزوه العداوة فى منهجه ، وسلقوه بألسنة حداد فى حبه وإيمانه .

وهذا الموقف العدائى من الإمام الجنيد ومدرسته ، قد أرقه وأهمه ، وحرق قلبه ، ونرى أثر هذا الموقف فى الكلمات الباكية الحزينة ، التى أخذت تترى على لسان الحلاج ، فى مواجيده وابتهالاته .

لقد أخذت تتسلل إلى قلبه شيئاً فشيئاً ، فكرة الاستشهاد فى سبيل حبه ، وفى سبيل عقيدته .

لقد آمن من قبل بأن الوجد والعـــذاب فى الحب ، هما معراجه إلى الوصول والقرب ، واليوم أخذ يؤمن بأن الإستشهاد هو طريقه إلى النصر ، النصر الشامخ المتلألأ لفكرته ومنهجه .

إن استشهاده فى سبيلهما ، لهو صورة إيمانه ، وآية صدقه ، وصراط قربه ، وعلامة قبوله عند ربه .

بل لقد راح فى نشوة روحية عالية ، يتنبأ بمصرعه ، ويرى مشاهد هذا المصرع ، جلية مبينة .

قال إبراهيم بن فاتك[1] « دخلت يوماً على الحلاج فى بيت له ، على غفلة منه ، فرأيته قائماً على هامة رأسه ، وهو يقول :

يا من لازمنى فى خلدى قرباً ، وباعدنى بعد القدم من الحدث غيبا ، تتجلى علىّ ، حتى ظننتك الكل ، وتسلب عنى حتى أشهد بنفيك ، فلا بعدك يبقى ، ولا قربك ينفع ولا حربك يغنى ، ولا سلمك يؤمن ! ؟

فلما أحس بى ، قعد مستوياً وقال : أدخل ولا عليك ، فدخلت وجلست

(١) أخبار الحلاج طبع القاهرة ص ١٣

بين يديه ، فإذا عيناه كشعلتى نار ، ثم قال . يا بنى أن بعض الناس يشهدون على بالكفر ، وبعضهم يشهدون لى بالولاية ! ؟ .

فقلت : ياشيخ : ولم ذلك ؟ فقال : لأن الذين يشهدون على بالكفر تعصباً لدينهم ، ومن تعصب لدينه ، أحب إلى الله ممن احسن الظن بأحد ثم قال لى :

وكيف أنت يا إبراهيم حين ترانى ، وقد صلبت وقتلت وأحرقت ، وذلك أسعد يوم من أيام عمرى جميعه ! ! !

ثم قال لى : لا تجلس وأخرج فى أمان الله » .

ويقول أحمد بن فاتك[1] : « كنا مع الحلاج ، وكان يوم النيروز ، فسمعنا صوت البوق ، فقال الحلاج :

أى شيء هذا ؟ فقلت : يوم النيروز ، فتأوه وقال : متى نتورز ؟ فقلت : متى تعنى ؟ قال : يوم أصلب ؟ ؟

فلما كان يوم صلبه بعد ثلاث عشرة سنة ، نظر إلى من رأس الجذع وقال : يا أحمد : تورزنا : فقلت : أيها الشيخ : هل أتحفت ؟ قال : بلى ، أتحفت بالكشف واليقين ، وأنا مما أتحفت به خجل ، غير أنى تعجلت الفرح .

ويقول أحمد بن فارس[2] : « رأيت الحلاج فى سوق القطيفة قائماً على باب مسجد المنصور ، وهو يقول :

أيها الناس ، إذا استولى الحق على قلب أخلاه عن غيره ، وإذا لازم أحداً أفناه عمن سواه ، وإذا أحب عبداً حث عباده بالعدوان عليه حتى

(١) أخبار الحلاج طبع القاهرة ص ٢٧
(٢) « « « « ص ١٣

يتقرب العبد مقبلا عليه ، فكيف لى ولم أجد من الله شمة ، ولا قرباً منه لحة ، وقد ظل الناس يعادوننى .

ثم بكى حتى أخذ أهل السوق فى البكاء » .

ويقول على بن أنجب الساعى : « صاح الحلاج فى جامع منصور : أيها الناس اعلموا أن الله تعالى أباح لكم دمى فاقتلونى اقتلونى تؤجروا واسترح ، ليس فى الدنيا للمسلمين شغل أهم من قتلى ، وتكونوا أنتم مجاهدين ، وأنا شهيد[1] » .

ولم يهنأ الحلاج طويلا بمكانته فى القصر ، ولم تتحقق له الآمال الإصلاحية العريضة ، التى راودته وهو يلج قصر الخليفة ، لقد بدأت الدسائس والمؤامرات تحيط به وتواثبه ، وتضيق حوله النطاق وتطارده ! !

لقد كان وجوده فى قصر الخليفة ، أمراً مخالفاً لطبيعة الحياة ، ولطبيعة المعركة التى يقودها .

فهو بإيمانه ورسالته ، يختلف اختلافاً جذرياً عن سكان القصور ، وهو بخلقه ونسكه ومبادئه ، يختلف اختلافاً منهجياً عن أخلاق الطبقة الأرستقراطية الحاكمة .

وكان الاصطدام حتما مقضياً بين الحلاج وبين الحاشية ، لقد رأى بعض الوزراء والقواد والأمراء ، أن مكانتهم قد تزلزلت ، ورأى المستغلون والمنتفعون والمرتشون ، وأرباب الثروات والأهواء والشهوات ، الذين هيمنوا على الخليفة فى الماضى ، أن رأس مالهم الأكبر قد طار من ايديهم .

وانضم إلى هؤلاء وهؤلاء ، السياسيون المحترفون من خصوم السيدة (شغب) أم الخليفة ، وخصوم نصر القشورى الحاجب ، وهما أكبر أنصار الحلاج ، وأخلص تلاميذه .

---

(١) أخبار الحلاج طبع باريس رقم ٥٠

وفى رجال القصر براعة فى الدس والنفاق ، وكفاءة فى التلوين والتآمر وهم تاريخياً أقدر الناس على هذا الضرب من الحياة ، وأبرعهم فيه .

ويقول المستشرق - نيكلسون - « لقد ضاق كبار رجال الدولة بنفوذ الحلاج وصيحاته الشعبية الحارة ، التى تهدد بثورة تطيح بهم وبنفوذهم .

تقول دائرة المعارف الإسلامية[1] : « وكانت رعاية (شغب) أم المقتدر ، والحاجب نصر ، للحلاج سبباً فى أن عاداه الوزير حامد ، الذى سيقود المعركة يوم محاكمته » .

وابتدأت الحاشية تهمس فى براعة قادرة مدربة فى أذن الخليفة ، بأن الحلاج يعد العدة لضربته الكبرى ، الضربة التى ستطيح بالخليفة ، ليتولى هو الأمر من بعده !!؟

أليس هو صاحب نظرية القطب الزعيم الحاكم ؟ أليس هو المنادى بحكومة الأقطاب والأولياء ، التى يحبها الله ويرضى عنها ؟

أليس يجمع حوله الكتاب والشعراء والصوفية ورجال الفكر ، ومن وراء هؤلاء جميعاً جماهير بغداد ، ثم أليس الحلاج هو الولى الأكبر ، والمنقذ الأعظم عند هذه الجماهير !! ؟

وزاد الهمس فى أذن الخليفة ، وزادت الاتهامات وتضخمت ، حتى أرعبت الخليفة ، وأنسته نفسه ، وأنسته صداقته للحلاج ، واستضافته له .

وابتدأ الخليفة يضيق بالحلاج ؛ ويعطى له وجهاً غير وجهه الأول ، وابتدأ خصوم الحلاج فى القصر يوسعون نطاق مؤامراتهم ، ويمدون حبالهم إلى خارج القصر ، ليشركوا معهم الخصوم التاريخيين للحلاج .

واستدعى إلى القصر ، المهرة المدربون على الهمسات والشائعات ولكن مكانة الحلاج الشعبية كانت دائماً ، ترهب خصومه ، وتنال من إندفاعهم ، إن له القداسة وسحراً لا يقاومان بين العامة .

(١) مجلد ٨ ج ١ ص ١٧ .

ومن هنا ابتدأ التفكير فى تحطيم هـــذه الهالة الشعبية ، وتمزيق هذه القداسة الدينية .

وفكر رجال القصر وقدروا ، ثم فكروا وقدروا فاهتدوا إلى سلاح تاريخي رهيب ، جرب فأثبت صلاحيته وإيجابيته .

يجب أن يحارب الحلاج باسم الدين وبسلاحه ، لقد شادمكانته السابقة لدى الجماهير باسم الدين والقداسة الروحية ، فيجب إذن أن يحطم باسم الدين : وباسم الدفاع عن القداسة والمقدسات الروحية ! ؟ .

ومن ثم بدأت حملة من أكبر حملات التزييف فىالتاريخ ، حملة انقلبت إلى عاصفة لاتزال ريحها تدوى عبرالقرون ، تتهم الحلاج بالمروق والإلحاد ، والحلول والاتحاد ، وغير هذا وذاك من المسميات والنعوت ! ! ؟

وأخذ سيل من الرسائل والكتب يتدفق من الأقلام المأجورة لمهاجمة الحلاج ! ! وابتدأ الدساسون يحرفون كلمة عن مواضعه ، وينسبون إليه ما لم يقله .

بل ابتدؤا يجمعون ويدربون الشهود الزور ، الذين سيتقولون الأفك ، ويشهدون الزور على الحلاج يوم محاكمته .

يقول ماسنيون : « وسهم فى المعركة كثير من رجال الدين ، حتى المعتزلة شاركوا فيها حسدا للحلاج ، فروجوا فى القصر ردا على كرامات الحلاج ، رسالة — للأوارجى — تصف شعبذة الحلاج وحيله »[1] .

ويقول نيكلسون : « لقد اشترك فى المعركة ضد الحلاج مزيج عجيب من المرتشين والقوادين والزنادقة ومستغلى النفوذ » .

ثم أخذت آفاق السياسة العامة للعراق تضطرب ، وأخذت أحزابه تتصارع وتتقاتل ، وعلى قمة هذا الصراع ، بدأت محاكمة الحلاج ومأساته :

---

(١) شخصيات قلقة فى الاسلام .

محاكمات الحلاج

رأى الحلاج أن دعوته قد تعرضت للخطر ، وأن منهجه الإصلاحي أصبح فى مهب العاصفة ، وأن الساعه الحاسمة تقترب من القمة .

لقد تغير عليه قلب الخليفة ، وتجرأ خصومـــه فى القصر وخارجه ، وأعلنوها بغضاء سافرة ، وبدأت نذر العاصفة تطرق عليه الأبواب .

كما أدرك فى جلاء مبين ، أن أساليبه السلبية التى استهدف بها تحقيق رسالته ، عن طريق القصر وصداقات القصر ، أصبحت لا تحقق هدفاً ، ولا تملك أملا .

فأخذ يحرك أتباعه من الوزراء وقادة الجيش ، ليتخذوا موقفاً إيجابياً فى مقاومة فساد الحكم وإنحرافه عن رسالة الإيمان والدين .

كما أخذت رسائله تتوالى على أنصاره من العلماء والأدباء ، يعدهم ويعبئهم للمعركة السافرة ، وعادت إتصالاته بالجماهير تتسع وتقوى ، يحرك وجدانهم ، ويثير مشاعرهم ، ويلهب فيهم روح المقاومة ضد مايتعرضون له من إستغلال وما يلقون من أهوان .

يقول المستشرق ماسنيون[1] : ولقد قامت فى ذلك الحين بين العلمـاء رغبة عامة فى إصلاح الأداة الإدارية ، وطالبوا بإقامة خلافة إسلامية حقاً ، ووزارة تحكم بالعدل بين الناس ، خصوصاً فى مسائل الخراج والضرائب — ضد مفاسد عمال الخراج الشيعة من خصوم الحكم الوراثى — وخلافة شاعرة بمسئوليات وظيفتها أمام الله مما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض دينهم — من صلاة وحجج وصيام — وكان الأمل معقوداً

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٧١

على الحلاج فى العمل بهذا السبيل ، فى الوقت الذى توقع فيه الحلاج ، قرب مصادرة حريته من جانب أعدائه وأصدقائه » .

ودخل الحلاج المعركة ، وحمل عبئها ومسئوليتها ، وكانت طاقته الأولى فى القمه ، فى مجلس وزراء الخليفة .

وابتدأ الصراع بين الوزراء الحلاجيين ، وخصومهم من الوزراء ، صراعا سافراً مريراً .

واستطاع أنصار الحلاج فى الوزارة ، أن يصدروا أول بيان تاريخى منهجى فى العالم الإسلامى ، لميزانية الدولة الإسلامية ، على أسس إشتراكية ، هذا البيان الذى يقول عنه المستشرق — ماسنيون — : « إنه صار مشهوراً بحق[1] » .

واستطاع هذا البيان ، أن يعيد تنظيم سياسة الدولة المالية ، وأن يخفف من قسوة الضرائب ، وأن يتجه بفائض المال إلى الخدمات العامة ، بدلا من إنفاقه على الخليفة وحاشيته ! !

وغضب الوزير حامد بن العباسى خصم الحلاج الأكبر ، فقام بحركة مضادة فأغرى الخليفة باحتكار المخزون من القمح والمضاربة فيه !

يقول ماسنيون : «[2] فأجاب الوزير ابن عيسى صديق الحلاج على هذا الإجراء ، بإثارة فتنة شعبية ، وفيها أطلق نصر القشورى حبل العمل للحنابلة — اصدقاء الحلاج — فقامت نقابات العمال فى بغداد والبصرة والكوفة والموصل ، وهاجمت المحتكرين والمخازن وفتحت السجون » .

---

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام ص٧٥ .
(٢) شخصيات قلقة فى الإسلام ص٧٥ .

المحاكمة الأولى

واهتز عرش الخلافة ، واهتزت أرائك الوزراء غير الحلاجيين ، فأدرك الوزير حامد أن الخطر أصبح من الضخامة ، بحيث لا يقاوم إلا بالإقدام على مخاطرة حاسمة . . . هي القبض على الحلاج نفسه ومحاكمته ، وهو أمر لا يستطيعه إلا الخليفة ، ولكن الخليفة جبن وتردد ، رغم إلحاح الوزير عليه ، وتبصيره بالخطر المحدق به :

فلجأ حامد إلى السلاح الديني الشرعي ، فاتصل بأحد أعضاء محكمة القضاء الكبرى ببغداد ، وهو الفقيه الظاهري محمد بن داود ، وكان شاعراً هلوكاً يبغض الحلاج ويمقت التصوف ، فأغراه بالمال ، ومناه بالآمال ، وحرضه باسم الخلافة والخليفة .

واستغل محمد بن داود مركزه الشرعي ، فرفع أمر الحلاج إلى المحكمة العليا طالباً محاكمته ، والحكم بقتله ، بدعوى الشعوذة وإدعاء الألوهية ..؟

وجند الوزير حامد الشهود ليوم المحاكمة ، فأعد رجلا من غمار الصوفية ، لقنه أن يقول : إنه سمع الحلاج يتحدث في درسه الصوفي بمسجد المنصور قائلا : أنا الحق . . ؟

وجاء برجل آخر من العامة ليشهد بأنه من أتباع . الحلاج ، وبأن الحلاج إله ؟ وأنه يحي الموتى ؟

وحضر الحلاج المحاكمة في دار القضاء العالي ، وواجه الشهود ، يقول المؤرخ ابن كثير : «(1) وأنكر الحلاج ما نسب إليه ، وقال أعوذ بالله أن

(1) البداية والنهاية ج ١١ ص ١٤٠

أدعى الربوبية ، أو النبوة ، وإنما أنا رجل أعبد الله ، وأكثر له الصوم والصلاة وفعل الخير ، ولا أعرف غير ذلك ، وجعل لا يزيد على الشهادتين والتوحيد ، ويكثر أن يقول : سبحانك لا إله إلا أنت ، عملت سوءاً وظلمت نفسى ، فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

وهنا انتصر للحلاج القاضى الشافعى ، ابن سريج قائلا : « إن مثل هذا لا يدخل فى القضاء ، والأدلة غير ثابتة ، والدليل لا يوجد » .

وبهذا الاعتراض فشلت المحاكمة ، وضاعت المؤامرة ، ولكن الوزير حامد ، أسرع فأصدر أمراً بتشكيل هيئة قضاء أخرى برياسة القاضى أبو عمر محمد يوسف . وعضوية القاضى أبو جعفر بن البهلول وجماعة من الفقهاء .

وأعيد الإتهام وجاؤا بالحلاج وتوالى الإتهام : هل أنت إله . هل تحي الموتى ! ؟ هل تخدمك الجن ! ؟ هل تصنع ما تحب عن طريق المعجزات ! ؟ كما يقول الشهود .

وأنكر الحلاج مانسب إليه بشدة ، وسخر من شهوده بقوة ، وقال : أنا عبد الله ، أومن به وبرسله ، وأدعو إلى الحق ، وأنشد الخير للمسلمين ، ولا أقر الظلم ، ولا اعرف هؤلاء الشهود ، ولا أقول غير هذا وأعوذ بالله من الدعوى » .

وتعالت صيحات الجماهير الغاضبة خارج دار القضاء ، ووجد القضاة أنفسهم بين شقى الرحى .

فعادوا إلى الوزير حامد ليبلغوه بأنهم لم يجدوا ما يوجب قتل الحلاج ، ولا عقابه ، وأنه لا يجوز قبول إدعاء إلا بدليل أو إقرار . ؟

وفشلت القضية من جديد ، وثار حامد وأسرع إلى الخليفة ينشد تأييده ، فقد زادت هذه المحاكمات من مكانة الحلاج ونفوذه :

ولكن الخليفة كان أكثر حرصاً من وزيره ، أو أكثر جبناً وخوفاً ؛

وكان دائماً يتردد فى حمل مسئولية دم الحلاج ، فأمر حامد بأن يسلمه إلى على بن عيسى عالم بغداد وخصم الحلاج ليناظره ، عسى أن تفلت من فم الحلاج كلمة فيؤخذ بها ! ؟ .

وعقد مجلس المناظرة ، وحشد للمجلس خصوم الحلاج من كل لون ونحلة .

يقول الخطيب البغدادى فى تاريخه : « فلما حضر الحلاج مجلس المناظرة خاطبه على بن عيسى خطاباً فيه غلظة ، فقال له الحلاج : « قف حيث انتهيت ، ولا تزد عليه شيئاً وتأدب وإلا قلبت عليك الأرض ، فتهيب على ابن عيسى من مناظرته ، وطلب من الخليفة أن يعفيه من مناظرته فأعفاه[1] » .

وطارت شهرة الحلاج ، وصفقت بغداد إعجاباً ببطلها ووليها ، وأسرع الوزير حامد إلى الخليفة يناشده العون ، ويطلب إبقاءاً على ماء وجهه ، وحرصاً على مكانة الخليفة ، أن يصدر أمره السامى بسجن الحلاج ! ! أو على الأقل بتحديد إقامته ، مع سجن الخطرين من تلامذته ، وإبقاء القضية معلقة ، ليبقى الاتهام دائماً محلقاً فوق الحلاج وأنصاره ! .

واستجاب الخليفة ، وقبض على بعض أنصار الحلاج ، وأخذ الحلاج نفسه يتنقل بين السجن حينا ، وبين مصادرة حريته وتحديد إقامته أحيانا ، طول ثمانية أعوام كاملة ، وكان سجنه بدار الخلافة وكان تحديد إقامته بمنزل صديقه وتلميذه نصر القشورى حاجب الخليفة ، لقد استهدفت الخلافة بهذا الحكم العجيب ، أن يكون الحلاج تحت سمعها وبصرها ، لتأمن وثبته وتتقى ثورته ، وتحد من إتصالاته وتنقلاته .

ومن ثم بدأت مرحلة حاسمة ، ومن أخطر مراحل حياة الحلاج

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٤

وأجلها ، مرحلة خصبة ، أشد ما تكون الخصوبة،حية أقوى ما تكون الحياة .

مرحلة جهاد مرير لتحقيق رسالته فى الإصلاح ، تحت ضغط ظروف قاسية مرهقه ، وجهاد أعلى وأشق ، ليبلغ كماله الروحى ، ولتحترق بشرته فى لهب وجده المقدس ، وحبه الأسمى ، ليظفر بجوهرة الخلود الكبرى ، جوهرة الحياة ، التى ترتبط بالله ، فتقوم به ، وتتلق عنـــه ، وتقتات بذكره ، وتظفر بأنسه ، وتنعم بإلهامه وتفنى إرادتها فى إرادته ، ثم تحلق بمعراج وجدها ، حتى تراه سبحانه بوجدانها ، وتشاهده بقلبها ، نورا ، هو نور السموات والأرض وما بينهما ، وما تحت الثرى : سبحانه هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن .

مرحلة أخـــذ الحلاج يضع فيها أخلد كتبه وأبقاها ، وفى طليعتها كتاب — طاسين الأزل — الذى أنقـذه من الفناء الذى صبته الخلافة العباسية على تراثه ، صديقه الوفى ، ابن عطاء سنة ٣٠٩ ﻫ ، فى اللحظات الأخيرة .

كما أخذ يدنو رويدا رويدا ، من هدفه الروحى ، هدف التضحية والاستشهاد ، ليكون جديرا كما يقول : برسالته ، وكفأ لحبه .

وأخذت شخصية الحلاج ونفوذه ، يلعبان دورهما ، فأصبح المكان الذى حدد لإقامتـه بدار نصر القشورى ، مكاناً فسيحاً رحباً ، مزودا بكل شىء .

لقد امتد إليه سحره كما يقول صاحب تاريخ بغداد : « فأصبح بيتاً ناعماً كل من فيه يؤمن بالحلاج ويحبه،ويلبي طلباته ، موسعاً عليه ، مأذوناً لمن يدخل عليه[1] » .

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ٢٤

وغدا سجنه بدار السلطان ، مدرسة ومنتدى ، يقول ابن كثير « واستطاع الحلاج وهو بسجنه فى دار السلطان ، أن يستغوى جماعة من غلمان السلطان ، وموه عليهم واستمالهم بضروب من حيله ، حتى صاروا يحمونه ، ويدفعون عنه ، ويرفهونه ، ويدخلون عليه من شاء »[1] .

بل لقد اتسعت حياة الحلاج رغم السجن وتحديد الإقامة ، فأصبح يغشى مجلس الخليفة ، يعظه وينذره ، ويذهب نهارا إلى جامع المنصور ، يلقى دروسه ، ويشرح منهجه ، وفى الليل يواصل تهجده وتضرعه ، فى المكان الحبيب إلى قلبه ، بين القبور ، عند قبر الإمام أحمد بن حنبل .

ثم يعود بعد هذا كله إلى سجنه بدار السلطان حيناً ، وإلى المقر الذى حدد له بدار نصر القشورى أحياناً ليواصل مقابلاته واتصالاته ، بالوزراء والقادة والأمراء ، يحدثهم ويجادلهم فى فنون الحكم والسياسة .

كما يتصل أيضاً ويقابل العلماء والصوفية والأدباء ، يحدثهم ويعلمهم أسرار الحب ، ومنازل القرب ، ومقامات التصوف .

جاء فى روضة المريدين ، لابن يزد إنيار : « سئل الحلاج وهو فى سجنه عن التصوف فقال :

« طوامس وروامس اللاهوتية ؟ فقال السائل : أفصح فى هذا المعنى؟ فقال : لا عبارة عنه ؟ فقلت : لم أظهرته ؟ فقال : يعلمه من يعلمه ، ويجهله من يجهله ؟ فقلت : أسألك بالله إلا فهمتنى ، فأنشأ يقول :

لاتعرض بنا فهذا بنان   قد خضبناه بدم العشاق

وسئل عن الصوفى فقال : « من أشار إليه فهو متصوف ، ومن أشار عنه فهو صوفى » .

وقال فى مرة أخرى عن الصوفى : « إنه وحدانى الذات ، لا يقبل أحدا ، ولا يقبله أحد » .

---

(١) البداية والنهاية ج١١

وقال : معنى الخلق العظيم ، ألا يؤثر فيـــه جفاء الخلق ، بعد مطالعة الحق » .

وقال : « إذا استوى الحق على سر عبد ، ملك الأسرار ، فيعاينها ويخبر عنها » .

وقال : « من أسكرته أنوار التوحيد حجب عن عبادة التجريد » .

وقال : « من خاف من شيء سوى الله ، أو رجا سواه أغلق عليه أبواب كل شيء ، وسلط عليه المخافة ، وحجب بسبعين حجاباً ، أيسرها الشك » .

وقال : « لا يجوز لمن يرى غير الله أن يدعى أنه يعرفه[1] » .

وزاره الشبلى فى سجنه ، فوجده جالساً يخط فى التراب فجلس بين يديه حتى ضجر ، فرفع الحلاج طرفه إلى السماء وقال :

« إلهى لـكل حق حقيقة ، ولـكل خلق طريقة . ولـكل عهد وثيقة ». ثم قال :

يا شبلى من أخذه مولاه عن نفسه ، ثم أوصله إلى بساط أنسه ، كيف تراه ؟

فقال الشبلى : وكيف ذاك ؟

فقال الحلاج : يأخذه عن نفسه ، ثم يرده على قلبه ، فهو عن نفسه مأخوذ ، وعلى قلبه مردود .

فأخذه عن نفسه تعذيب ، ورده إلى قلبه تقريب ، طوبى لنفس كانت له طائعة ، وشموس الحقيقة فى قلوبها طالعة ثم أنشد[2] :

طلعت شمس من أحبك ليلا ... فاستضاءت فما لها من غروب
إن شمس النهار تغرب بالليـ ... ـل وشمس القلوب ليس تغيب

---

(١) الـكواكب الدرية للمناوى ج ٢ ص ٢٦ .
(٢) المحاكمات الـكبرى .

واستمرت هذه الحياة ثمان سنوات استطاع الحلاج خلالها رغم سجنه ورغم مصادرة حريته ، أن يوجه الأحداث فى بغداد ، ويحرك تاريخها .

لقد استطاع طوال هذه السنوات ، أن يواجه الحرب فى كل ميدان ، وأن يحمى صديقه نصر القشورى . وأن يبقيه فى القصر وفى الحكم أيضاً .

كما استطاع أن يدخل فى الوزارة دائماً ، صديقه ابن عيسى ، وأن يدفع بالقنائيين، أحبابه وتلاميذه وحزبه ، إلى الصدارة حيناً ، وإلى كراسى الوزارة أحياناً .

كما استطاع الحلاج ، أن يبعد خصمه الأكبر حامد عن الصدارة ، وعن الوزارة ، رغم صلاته الكبرى بالخليفة ، ورغم نفوذه الضخم فى الدوائر الأرستقراطية ، ولدى الشيعة ، وعمال الخراج ، ورجال المال .

وبجانب هذا وذاك ، كان الحزب العسكرى ، يهادن الحلاج ولا يبارزه الخصومة ، بل كان فى أكثر من موقف يصادقه ، ويمد يده إليه .

المحاكمة الكبرى

وفى نهاية عام ٣٠٨هـ عاد مؤنس التركى ، كبير القواد العسكريين ، إلى بغداد ، بعد أن أنقذ دولة العباسيين فى مصر ، من الفاطميين فى المغرب .

ويصور لنا المستشرق — ماسنيون — تلك الحقبة الحاسمة من التاريخ ، وأثرها فى قضية الحلاج وحياته ، تلك الحقبة التى انقبلت فيها السياسة العسكرية العامة لجأة ، فأنجبت مسائل صغيرة من الصراع السياسى ، نتائج خطيرة ، بعيدة المدى فى التاريخ .

يقول ماسنيون: «استفاد حامد من عودة مؤنس كبير القواد إلى بغداد ، كما استفاد من الأحداث نفسها .

فبعد أنقذ مؤنس مصر من الفاطميين ، كان عليه أن يحمى إيران ضد تهديد الديلميين ، الذين دخلوا الرى بفضل واليها — الفارسى — أخ صعلوك مساعد مؤنس سابقاً ، وكان دائماً فى حماية نصر وابن عيسى — أصدقاء الحلاج .

فعرض حامد على مؤنس ضرورة القضاء على أخ صعلوك ، ولما كان هذا أميراً ، سامانياً ، فلا بد من مجانبة الوزير السامانى ، وهو — البلعمى — وهو شافعى من انصار الحلاج[1] .

ومثل هذا القلب فى الإتجاه السياسى ، يقتضى التشديد فى زيادة

(١) يقول الاستاذ أحمد أمين فى كتابه — ظهر الإسلام ج ٢ ص ٧٠ .

« وكانت الدولة فى أيامة مقسمة الإدارة بين سلطات ثلاث : فالدواوين والكتابة فى يد الفرس ، والخلافة والقضاء فى يد العرب ، والجندية والعسكرية بيد الترك ، وهذه السلطات الثلاث ، تتعارض وتتآمر ، وكل فرقة تدس لغيرها الدسائس»

الضرائب، ولن يوافق الخليفة على هذا ، إلا إذا تخلى عن ثقته بابن عيسى، ونصر القشورى .

فلكى يقضى حامد على كليهما ، ويبلغ غرضه ، قرر استئناف النظر فى قضية الحلاج صديقهما .

وبفضل مؤازره ، كبير القواد مؤنس ، وبفضـــل رجل آخر هو أبو بكر بن مجاهد ، شيخ الحفاظ ، وله كلمة مسموعه فى بغداد، ومن خصوم الحلاج الألداء .

بهؤلاء الأنصار الأقوياء ، نجح حامد فى مؤامرته ، واستطاع إقناع الخليفة بمؤازرته[1] .

وصدرت أوامر الخليفة تترى، وبمقتضى هذه الأوامر ، منع بن عيسى من النظر فى قضية الحلاج ، ومنع نصر القشورى من حراسته .

ثم منحت كل هذه الإختصاصات إلى حامد ، الخصم الألد الخصام الذى عاد إلى الوزارة ليستأنف سياسته المالية القاسية ، وليعيد إلى المسرح محاكمة الحلاج .

ورددت محافل بغداد ، أن الحلاج فى طريقه إلى المحاكمة الفاصلة .

وثارت جماهير بغداد ، وتزعم الثورة ، صديق الحلاج الأمين ، ابن عطاء ، كبير علماء الحنابلة وزعيمهم .

يقول ماسنيون : « وهتف الثوار ضد الوزير حامد بن العباس فى شوارع بغداد ، من أجل الاحتجاج ضد سياسته المالية، ومن أجل إنقاذ الحلاج معاً » .

وجاءت الفرصة الذهبية لحامد ، فمنح من الخليفة تفويضاً كاملا بقمع الثورة ، وبمحاكمة الحلاج ، والقضاء عليه .

---

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام .

ودبر أمر الحلاج بليل ؛ وصدر الأوامر حاسمة ، بسجن الحلاج سجناً حقيقياً قاسياً ، وتكبيله بالأغلال والقيود .

يقول السلمي : سمعت عبد الواحد بن علي يقول: سمعت فارساً البغدادي يقول : لما حبس الحلاج ، قيد من كعبه إلى ركبته بثلاثة عشر قيداً ، وكان يصلي مع ذلك كل يوم وليلة ألف ركعة[1] » .

وأعد للقضية شهودها ، كما صنعت وثيقة الاتهام فيها وكانت كما يلي:

١ — مراسلاته السرية مع القرامطة ؟

٢ — إعتقاد أتباعه بألوهيته ؟

٣ — قوله أنا الحق . . ؟

يقول ماسنيون[2] : « ولعل بغداد كانت في ذلك الحين أكبر عاصمة في العالم المتمدين . . وهناك جرت المحاكمة ، على منصة مرتفعة ، كما حدث بالنسبة لجان دارك في قضية الحب الإلهي .

جرت في الإطار الفخم الذي يمثله قصر الخليفة العباسي، من سنة ٣٠٨هـ — ٩٢١م إلى سنة ٣٠٩هـ — ٩٢٢م » .

وجيء بالحلاج أمام هذه المنصة الفخمة العالية ، وفي يديه ورجليه ثلاثة عشر قيداً ، وانتشر الجند في كل مكان بالسلاح ، وقبض على أنصار الحلاج بالجملة ، وابتدأت حملات متتابعة قاسية لأرهاب الجماهير في بغداد .

واحتشد في ساحة الجلسة خصوم الحلاج جميعاً من كل لون ومذهب.

---

(١) تاريخ بغداد ج٨ ص ١٣١ .

(٢) شخصيات قلقة في الاسلام ص٧٥

قتل بن عطاء !!؟

وبدأت المحاكمة بأعجب حادث فى تاريخ القضاء . بدأت بإعدام زعيم دينى ، لم تعقد المحكمة لمحاكمته ، ولم يوجه إليه اتهاماً ، ذلك هو زعيم علماء الحنابلة ، أبو العباس بن عطاء .

لقد أراد الوزير حامد ، أن يبث فى ساحة القضاء الخوف وأن يشيع فيها الرعب ، وأنه يمنع كلمة الحق ، بضربة عنيفة ، فيها نذير وإرهاب ووعيد ، وشاء الله سبحانه أن يكون ابن عطاء هو كبش الفداء .

يقول الحافظ الخطيب البغدادى[1] ، أنبأنا إسماعيل بن أحمد الحيرى ، أنبأنا أبو عبد الرحمن الشبلى ، قال : سمعت محمد بن عبد الله الرازى يقول :

كان الوزير حامد بن العباس ، حين أحضر الحسين بن منصور ، أمره أن يكتب اعتقاده ؟ فكتب اعتقاده . فعرضه الوزير على الفقهاء ببغداد ، فأنكروا ذلك[2] .

فقيل للوزير : إن أبا العباس بن عطاء يصوب قوله ، فأمر أن يعرض ذلك على أبى العباس بن عطاء فعرض عليه فقال :

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٨

(٢) لم يبين لنا كتاب من كتب التاريخ هذا الإعتقاد ؟ ولم يذكر لنا التاريخ من هم هؤلاء الفقهاء ؟ إنه الغموض الهادف الذى فرضه العباسيون على الحلاج وتاريخه .

هذا اعتقاد صحيح ، وأنا أعتقد هذا الإعتقاد ، ومن لا يعتقد هذا فهو بلا اعتقاد .

فأمر الوزير بإحضاره فأحضر ، وأدخل عليه ، فجلس فى صدر المجلس ، فغاظ الوزير ذلك .

ثم أخرج ذلك الخط ، فقال: هذا خطك ؟ فقال : نعم ، فقال تصوب مثل هذا الاعتقاد ؟

فقال : ما لك ولهذا ؟عليك بما نصبت له من أخذ أموال الناس وظلمهم وقتلهم ، مالك وبكلام هؤلاء السادة .

فقال الوزير : فكيه ؟ فضرب فكاه ! ! فقال أبو العباس : اللهم إنك سلطت هذا عقوبة على لدخولى عليه ! !

فقال الوزير . خفه يا غلام فنزع خفه ، فقال : دماغه ، فما زال يضرب رأسه ، حتى سال الدم من منخريه .

ثم قال : الحبس ، فقيل يتشوش العامة لذلك ، فحمل إلى منزله .

فقال أبو العباس :

اللهم أقتله أخبث قتلة ، واقطع يديه ورجليه ! ! فمات أبو العباس بعد ذلك بسبعة أيام .

وقتل الوزير حامد بن العباس ، أفظع قتلة وأوحشها — بعد قتل الحلاج — بعد أن قطعت يداه ورجلاه ، وأحرق داره وكانوا يقولون : أدركته دعوة أبى العباس بن عطاء[1] » .

---

(١) يقول العلامة ابن كثير فى البداية والنهاية جـ ١١ ص ١٤٤ فى ترجمته لابن عطاء ، وهو يتحدث عن عباداته : « وكان أبو العباس يقرأ فى كل يوم ختمة ، فاذا كان شهر رمضان قرأ كل يوم وليلة ثلاث ختمات ، وكان له ختمة يتدبرها ويتدبر معانى القرآن فيها ، فمكث فيها سبعة عشر سنة ، ومات ولم يختمها .

شهود القضية

وفى هذا الجو النفسى الرهيب ، جيء بالشهود ، وكان الشاهد الأول ، هو — السمرى — وكان فى ماضيه من أتباع الحلاج ثم انشق عليه .

يقول صاحب تاريخ بغداد[1] :

« وأحضر حامد ، السمرى صاحب الحلاج ، وسأله عن أشياء من أمر الحلاج ، وقال له حدثنى بما شاهدته منه ؟

فقال له :إن رأى الوزير أن يعفينى فعل ! ؟ فأعلمه أنه لايعفيه ، وعاد فسأله عما شاهده ، فعاود استعفاءه وألح عليه فى السؤال ، فلما تردد القول بينهما قال :

أعلم أنى إن حدثتك كذبتنى ، ولم آمن مكروهاً يلحقنى ، فوعده أن لايلحقه مكروه ، فقال :

كنت معه بفارس ، فخرجنا نريد — اصطخر — فى زمن شات فلما صرنا فى بعض الطريق ، أعلمته بأنى قد اشتهيت خياراً فقال لى :

فى هذا المكان ! وفى مثل هذا الوقت من الزمان ؟ فقلت : هو شيء عرض لى .

ولما كان بعد ساعات ، قال لى : أنت على تلك الشهوة ؟ فقلت : نعم .

قال : وسرنا إلى سفح جبل ثلج ، فأدخل يده فيه ، وأخرج إلى منه خيارة خضراء ودفعها إلى !

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٦

فقال له حامد : فأكلتها ؟ قال : نعم ، فقال له : كذبت يا ابن مائة ألف زانية ، فى مائة ألف زانية ، أوجعوا فكيه !! ؟ فأسرع الغلمان إليه ، فامتثلوا ما أمرهم به ، وهو يصيح : أليس من هذا خفنا ! ؟

ثم أمر به فأقيم من المجلس ، وأقبل حامد يتحدث عن قوم من أصحاب النيرنجات ، كانوا يعدون بإخراج التين وما يجرى مجراه من الفواكه ، فإذا حصل ذلك فى يد الإنسان ، وأراد أن يأكله صار بعراً » .

وهكذا ضرب الشاهد وكذب ، كما ضرب الفقيه العالم وكذب من قبل .

وأصبح حامد الغاضب الثائر ، هو المحكمة كلها ، لا يتكلم سواه ، ولا يحكم غيره ، إنه وحده الذى يملك دماء الناس وأعراضهم وكرامتهم ! !

وإذا كان السمرى ، لم يؤد الشهادة كما يجب ، وكما أتفق من قبل ؛

فإن ابنته ألين عريكة ، وقلبها يهفو إلى كل إغراء مادى . . وحامد ملء يديه الآمال والإغراء .

وجىء بابنة السمرى .

يقول — زنجى — أكبر رواة المحاكمة ، وقد حضرها بنفسه وعاش أحداثها .

« [1] وحضرت بنت السمرى ، فسألها حامد عن الحلاج ، فذكرت أن أباها السمرى ، حملها إليه — لتخدمه وهو يسكن دار الخليفة ، وأنها لما دخلت عليه ، وهب لها أشياء كثيرة ، عددت أصنافها ، منها رَيْطة خضراء .

وقال لها : قد زوجتك من ابنى سليمان ، وهو أعز ولدى على ، وهو مقيم بنيسابور .

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٤ — ١٣٥

وليس يخلو أن يقع بين المرأة وزوجها خلاف ، أو تنكر منه حالا من الأحوال ، وقد أوصيته بك ، فمتى جرى شيء تنكريه من جهته ، فصومى يومك ، واصعدى آخر النهار إلى السطح وقومى على الرماد ، واجعلى فطرك عليه ، وعلى ملح جريش ، واستقبلينى بوجهك ، واذكرى لى ما أنكرتيه منه ، فإنى أسمع وأرى ؟ .

قالت وكنت ليلة نائمة فى السطح ، وابنة الحلاج معى فى دار السلطان ، وهو معنا .

فلما كان فى الليل أحسست به وقد غشينى ، فانتبهت مذعورة منكرة لما كان منه ، فقال :

إنما جئتك لأوقظك للصلاة ، ولما أصبحنا نزلت إلى الدار ، ومعى بنته ونزل هو ، فلما صار على الدرجة ، بحيث يرانا ونراه ، قالت بنته :

اسجدى له ؟ فقلت لها : أو يسجد أحد لغير الله ؟ وسمع كلامى لها فقال : نعم إله فى السماء ، وإله فى الأرض .

قالت ودعانى إليه ، وأدخل يده فى كمه ؛ وأخرجها مملوءة مسكاً ، فدفعه إلى وفعل هذا مرات ، ثم قال لى :

اجعلى هذا فى طيبك ، فإن المرأة إذا حصلت عند الرجل احتاجت إلى الطيب .

قالت : ثم دعانى وهو جالس فى بيت البوارى فقال : ارفعى جانب البارية وخذى من تحته ما تريدين ، وأومأ إلى زاوية البيت فجئت إليها ورفعت البارية ، فوجدت الدنانير تحتها مفروشة ملء البيت ، فبهرنى ما رأيت من ذلك » .

قال زنجى : وأقامت هذه المرأة معتقلة فى دار حامد إلى أن قتل الحلاج » .

واستطاع الحلاج فى بساطة ، أن يزيف هذه الشهادة ، ولم تستطع ابنة السمرى ، أن تقدم دليلا واحداً على صدقها .

وهز القضاة رءوسهم ، رغم تهديد حامد لهم ، وقالوا : لا نصدر حكما بناء على أقوال امرأة ، لاتملك دليلا ؟

وأخذ الوزير حامد يحضر الحلاج كل يوم إلى المحكمة ، مكبلا بالقيد محاطاً بالجند .

ويبدأ الجدل والحوار ، ويحاول حامد ، أن يجد فى كلام الحلاج منفذاً أو سقطة كما يقول ابن كثير : فأعجزه ذلك .

وتتابعت الأيام . وتوالت الشهور ، وشاهد يأتى وشاهد يذهب ، والحلاج كالجبل الأشم ، تتساقط على أقدامه اتهامات المبغضين ، ويذوب أمام بيانه وإيمانه جدل المجادلين .

بل لقد استطاع الحلاج فى محنته أن يكتسب كل يوم أنصاراً أقوياء ، وعلماء أجلاء .

بطولة ابن عفيف

وقصة محمد بن عفيف مع الحلاج ، تقدم لنا صورة مشرقة من انتصارات الحلاج الروحية العجيبة .

فقد أرسله إليه الخليفة فى سجنه ليجادله ، وكان ابن عفيف كما يقول — ماسنيون — : « أشعريا متطرفاً ، وعالماً لا يثبت لجدله أحـــد من الناس » .

يقول ابن عفيف : إنه دخل على الحلاج فرأى نوراً يتلألأ على جبينه ووجد اطمئناناً يشيع الأمن والسلام فى كل شيء يحيط به ، حتى لقد خيل إليه أن غرفة الحلاج فى سجنه ، قطعة من الجنة .

ورأى عالماً على كلامه إشعاع ليس من علم الأرض ، فقبل يد الحلاج ورأسه ، وهتف : لم أر فى حياتى ، عالماً ربانياً سوى هذا الشهيد .

وأبى أن يفارق حجرة السجن ، وطلب أن يبقى معه ليقاسمه ما يلقى ، وعجزت سياط الجلادين عن إقناعه .

يقول ابن كثير : فحمل بالقوة إلى حجرة أخرى ، وعلق من قدميه إلى السقف » .

وانصب على ابن عفيف جانب ضخم من الهول الذى ذاقه الحلاج ، وكان يقول : حسبي أن أشارك عبداً ربانياً فى عذابه : وظل معه فى سجنه يقاسمه الألم والعذاب ، حتى يوم مصرعه الرهيب .

عجائب الحلاج فى سجنه

وبينما هذه المهزلة الرسمية تجرى ، وبينما قلب بغداد يخفق لها ، وأذن العراق تستمع إليها .

أخذت أحداث أخرى ، تجرى فى سجن الحلاج ،أحداث شقت طريقها إلى قلب بغداد ، فألهته حتى عن المحاكمة ،و نفذت إلى أذن العراق، فأطربته وأذهلته ، وطارت باسم الحلاج فى الخافقين :

تلك الأحـــداث التى ألقى الناس إليها بأسماعهم ، هى عجائب الحلاج وسحره إن شئت ، وكراماته وآياته إن أحببت ؟؟

آيات سجلها التاريخ ، ومن العجيب حقاً ، أنها سجلت بأقلام خصومه لقد أذهلتهم حتى لم يستطيعوا حجبها أومحوها من ذاكرة التاريخ ، كما استطاعوا أن يحجبوا وأن يمحوا الكثير ، منسيرة الحلاج وتراثه وأيامه. يقول أحمد بن فاتك (١) : « لما حبس الحلاج ببغداد كنت معه ، فأول ليلة جاء السجان وقت العتمة ، فقيده ووضع فى عنقه سلسلة ، وأدخله بيتاً ضيقاً .

فقال له الحسين : لم فعلت بى هذا ؟ قال: كذا أمرت ؟فقال له الحلاج: الآن آمنت منى ؟ قال : نعم ، فتحرك الحلاج ، فتناثر الحديد عنه كالعجين، وأشار بيده إلى الحائط فانفتح فيه باب ، فرأى السجان فضاء واسعاً ، فعجب من ذلك ، ثم مد الشيخ يده وقال :

الآن افعل ما أمرت به ، فأعاده كما فعل أول مرة ، فلما صبح أخبر السجان الخليفة المقتدر بذلك فتعجب ، وتعجب الناس » .

---

(١) أخبار الحلاج طبع باريس ص ٩٠

ويقول محمد بن عفيف (١) : « لما رجعت من مكة ، ودخلت بغداد ، أردت أن ألقى الحسين بن منصور ، وكان محبوساً قد منع الناس عنه ، فاستعنت معارفى وكلموا السجان ، وأدخلنى عليه .فدخلت السجن والسجان معى ، فرأيت داراً حسنة ، ورأيت فى الدار مجلساً حسناً ، وفرشاً حسناً ، وشاباً قائماً كالخادم فقلت له :

أين الشيخ ؟ فقال : مشغول بشغل ؟ فقلت : ما يفعل الشيخ إذا كان جالساً ها هنا ؟

قال : ترى هذا الباب ، هو إلى حبس اللصوص والعيارين يدخل عليهم ويعظهم فيتوبون ، فقلت : من أين طعامه ؟ فقال : تحضره كل يوم مائدة عليها ألوان الطعام فينظر إليها ساعة ، ثم ينقرها بأصبعه ، فترفع ولا يأكل ،فإذا الحلاج قد خرج إلينا فرأيته حسن الوجه ، لطيف الهيئة ، عليه الهيبة والوقار .

فإذا هو سلم على وقال : من أين الفتى ؟ قلت : من شيراز ، فسألنى عن مشايخها فأخبرته ، وسألنى عن مشايخ بغداد فأخبرته ، فقال :

قل لأبى العباس احتفظ بتلك الرقاع (٢) ثم قال : كيف دخلت ، فأخبرته .. فدخل أمير الجيش يرتعد ، فقال له : مالك ؟ قال : سعى بى إلى أمير المؤمنين بأنى أخذت رشوة ، وخليت أميراً من الأمراء ، وجعلت مكانه رجلا من العامة ، وها أنا ذا أحمل لتضرب عنقى !! فقال :

إمض لا بأس عليك ، فذهب الرجل ، وقام الشيخ إلى صحن الدار ، وجثا على ركبتيه ، ورفع يديه ، وأشار بمسبحته إلى السماء وقال : يارب ،

(١) أخبار الحلاج طبع باريس ص ١٠١ ، ١٠٢ ، وكتابة بداية حال الحلاج ونهايته لابن باكويه ، وسيرة ابن عفيف

(٢) صحف فيها كلمات للحلاج . ويرى ماسنيون أنها كتاب طاسين الأزل .

ثم طأطأ رأسه حتى وضع خده على الأرض وبكى حتى ابتلت الأرض من من دموعه ، وصار كالمغشى عليه .

وبينما هو على تلك الحال ، دخل أمير الجيش فقال : عَنِّى عنى ، قال ابن خفيف : وكان الحلاج جالساً فى طرف الصفة ، وفى آخر الصفّة منشفة ، وكان طول الصفة خمسة أذرع ، فمد يده وأخذه المنشفة ، فلا أدرى أطالت يده ، أم جاء المنديل إليه ، فمسح وجهه بها ، فقلت هذا من ذاك » .

ويقول — زنجى — أكبر رواة محاكمة الحلاج ، وصديق الوزير حامد : « (١) كنت يوماً وأبى بين يدى حامد ، ثم نهض من مجلسه وخرجنا إلى دار العامة ، وجلسنا فى رواقها ، وحضر هارون بن عمران الجهبذ ، فجلس بين يدى أبى ولم يحادثه ، فهو فى ذاك إذ جاء غلام حامد الذى كان موكلا بالحلاج ، وأومأ إلى هاورن بن عمران ، أن أخرج إليه ، فنهض عن المجلس مسرعاً ، ونحن لا ندرى ما السبب .

فغاب عنا قليلا ، ثم عاد وهو متغير اللون جـــداً ، فأنكر أبى ما رآه منه ، وسأله عنه فقال :

دعانى الغلام الموكل بالحلاج ، فخرجت إليه ، فأعلمنى أنه دخل إليه ومعه الطبق ، الذى رسم أن يقدمه إليه فى كل يوم ، فوجده ملأ البيت من سقفه إلى أرضه ، وملأ جوانبه ، فهاله ما رأى من ذلك، ورمى بالطبق من يده ، وخرج من البيت مسرعاً ، وأن الغلام ارتعد وانتفض وحم ! وبقى هارون يتعجب من ذلك .

ويقول الخطيب البغدادى « (٢) وبلغ حامداً من بعض أصحاب الحلاج أنه ذكر أنه دخل إليه ، الموضع الذى هو فيه ، وخاطبه بما أراده ، فأنكر ذلك كل الإنكار .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ١٣٧ — ١٣٨

(٢) تاريخ بغداد جـ٨ ص ١٣٩

وتقدم بمسألة الحجاب والبوابين ، وقد كان رسم أن لا يدخل إليه أحد. وضرب بعض البوابين ، فحلفوا بالأيمان المغلظة أنهم ما أدخلوا أحداً من أصحاب الحلاج إليه ، ولا اجتاز بهم وتقدم بتفقد السطوح ، وجوانب الحيطان ، فتفقدوا ذلك أجمع ، ولم يوجد له أثر ولا خلل

فسأل الحلاج عن دخول من دخل إليه فقال : من القدرة نزل ، ومن الموضع الذى نزل إلى منه خرج ! ؟ » .

اتجاهات هادفة

فى قضية الحلاج

رأى حامد أن قضية الحلاج ، قد تحولت إلى مظاهرة سياسية ودينية كبرى ، مظاهرة أصبح بطلها الوحيد ، هو الحلاج .

وأن المحاكمة قدتحولت أوكادت إلى مايشبه التكريم الرائع لبطل ولى ، جنت الجماهير بحبه وتقديره ، وسبح خيال هذه الجماهير ، يجرى مبهور الأنفاس ، خلف بطولته وكراماته .

وامتد سحر الحلاج إلى أكبر رأس بين الحنابلة — ابن عطاء — وإلى أرفع رأس بين المعتزلة — ابن عفيف — فلم يكتفوا بتأييد الحلاج ، بل قدموا أرواحهم فداء له .

وإذن فيجب أن يحدث انقلاب سريع هادف فى سير القضية ، فلم تعد التهم السابقة ، تكفى لإدانة الحلاج ، وتحطيمه وتشويه مكانته وقداسته .

ودبر الأمر بليل ، ومن ثم قامت حملات بوليسية ضخمة للارهاب العام ، حملات تفاجىء كل بيت من بيوت أنصار الحلاج وأعوانه ، بدعوى البحث عن كتبه وآثاره .

ودبت حياة جديدة فى القضية ، وتهيأ المسرح للمرحلة الحاسمة .

يقول الخطيب البغدادى : « جد[1] حامد فى طلب أصحاب الحلاج ، وأذكى العيون عليهم وفتش منازلهم ، وحصل فى يده منهم ، حيدرة ، والسمرى ، ومحمد بن على القنائى ، والمعروف بأبى المغيث الهاشمى .

واستتر المعروف ، بابن حماد ، وكبس منزله ، وأخذت منه دفاتر

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٣٥ .

كثيرة ، وكذلك من منزل محمد بن على القنائى ، فى ورق صينى وبعضها مكتوب بماء الذهب ، مبطنة بالديباج والحرير ، مجلدة بالأديم الجيد .

ثم يقول : وكان فى الكتب الموجودة عجائب من مكاتباته أصحابه النافذين إلى النواحى ، وتوصيتهم بما يدعون الناس إليه وما يأمرهم به ، من نقلهم من حال إلى حال ، ومرتبة إلى مرتبة ، حتى يبلغوا الغاية القصوى ، وأن يخاطبوا كل قوم على حسب عقولهم وأفهامهم ، وعلى استجابتهم وانقيادهم .

وجوابات لقوم كاتبوه بألفاظ مرموزة ، لا يعرفها إلا من كتبها ، ومن كتبت إليه ، ومدارج فيها ما يجرى هذا المجرى .

وفى بعضها صورة فيها اسم الله تعالى مكتوب على تعويج وفى داخل ذلك التعويج مكتوب — على — عليه السلام كتابة لا يقف عليها إلا من تأملها » .

وإذن فقد أخذت الاتهامات الجديدة ، تتجه اتجاهاً سياسياً غامضاً .

والغموض هنا عن قصد ، وعن عمد ، حتى يسبح الخيال ما شاء فى والإتهام ، ويوجهه إلى كل هدف وأفق .

فالحلاج فى هذا الإتهام الجديد ، له أصحاب وأتباع ، أنفذهم إلى كل ناحية ، من أنحاء العالم الإسلامى ، ودربهم وزودهم بما يدعون الناس إليه !!

والدعوة الحلاجية منظمة تنظيما سياسيا وروحيا بارعا ، ومن أدلة هذا التنظيم الروحى ، أن الحلاج يباشر قلوب أتباعه بالتربية والإلهام ، ثم ينقلهم فى الطريق الروحى الصاعد ، من حال إلى أخرى ، ومن مرتبة إلى مرتبة ، حتى يبلغوا الغاية القصوى ، من الكمال ، أو من الفناء ، أو من الاتحاد والحلول !!؟

ومن أدلة التنظيم السياسى الهادف ، أن الحلاج قد أمر أتباعه أن

يستعملوا الحكمة فى دعوتهم السياسية فيخاطبوا كل قوم على حسب عقولهم وأفهامهم ، وعلى قدر استجابتهم وانقيادهم .

وخطابات هؤلاء الدعاة مرموزة لا يعرفها إلا من كتبها ، أو من كتبت إليه .

وكلمة على عليه السلام هنا تصلح لاتهام الحلاج بمناصرة الشيعة ، أو بتأييد القرامطة ، أو بالتهمتين معا .

أما الدليل الحاسم الناطق على هذا الإتهام العريض ، فلا حاجة إليه ، لأن الخطابات قد كتبت بالرمز ، والرمز لا يفهمه ، ولا يفقهه إلا من كتبه ، أو من أرسل إليه ، وهذا أعجب إتهام عرفه التاريخ ! !

فإذا استقام هذا الإتهام العجيب فى نظر حامد وأعوانه ، فليمضى الإتهام إلى وجهة أخرى .. إلى النيل من قداسة الحلاج الدينية .. ومكانته الروحية .

يقول الخطيب البغــــدادى وهو يواصل الحديث عن القضية : « وحضرت[1] مجلس حامد — الرواية على لسان زنجى وهو أحد شهود المحاكمة — وقد أحضر سفط خياذر لطيف ، حمل من دار محمد بن على القنائى — أكبر ظنى — فتقدم بفتحه ففتح ، فإذا فيه قدر وقوارير ، فيها شىء يشبه لون الزئبق ، وكسر خبز جافة ، وكان السمرى حاضراً جالسا بالقرب من أبى ، فعجب أبى من تلك القدر ، وتصييرها فى سفط مختوم ومن تلك القوارير — وعندنا أنها أدهان — ومن كسر الخبز .

وسأل حامد السمرى عن ذلك فدافعه عن الجواب ، واستفاه منه ، وألح عليه فى السؤال ، فعرفه أن تلك القدر رجيع الحلاج !! وأنه يستشفى

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ١٣٦ — ١٣٧

به ، وأن الذى فى القوارير بوله ، فعرف حامد مقاله ، فعجب منه من كان فى المجلس ! !

واتصل القول فى الطعن على الحلاج . . . وأقبل أبى يعيد ذكر تلك الكسر ، ويتعجب منها ، ومن احتفاظهم بها ، حتى غاظ السمرى ذلك فقال له :

هو ذا ، أسمع ما تقول ، وأرى تعجبك من هذه الكسر ، وهى بين يديك ، فكل منها ما شئت ، ثم انظر كيف يكون قلبك للحلاج بعد أكلك ما تأكله منها فتهيب أبى أن يأكلها ، وتخوف أن يكون فيها سم .

وأحضر حامد الحلاج ، وسأله عما كان فى السفط ، وعن احتفاظ أصحابه برجيعه وبوله ! ؟ فذكر أنه شىء ما علم به ، ولا عرفه » .

الكلمة القاتلة !؟

وعجزت هذه الإتهامات أيضاً عن تحقيق الغرض منها ، وشعر القضاة رغم التعليمات الصادرة إليهم ، بعجزهم عن إصدار حكم الإدانة القاتل .

فعيون العلماء والفقهاء والصوفية ترقبهم ، وصيحات الجماهير الغاضبة تخترق آذانهم ، وفى أعماق قلوبهم يضج ضميرهم ويتمرد ! !

والوزير حامد وعصبته من وراء هذا كله ، يمزقهم الغضب المرعد المجنون ، ويقتلهم الحقد الأسود المرير ، وقصر الخليفة ، يرقب المأساة ، وقد تمزق أحزاباً وشيعاً .

فالخليفة ومعه كبيرقواده ، وجمهرة وزرائه ، يساندون حامد وعصبته، من وراء ستار ، بقوة وإصرار .

وأم الخليفة ، وحاجبه نصر القشورى ، والوزير بن عيسى ، يساندون الحلاج جهرة ، ويرفعون الصوت عالياً بالدفاع عنه .

وكادت القضية ، أن تحدث إنهيارا فى الحكم العباسى ، وتحفز الحنابلة والصوفية والشيعة وأنصار الحلاج ، للتمرد والإنقضاض ، على الخلافة العاجزة الممزقة .

وصدرت الأوامر حاسمة من القصر ، إلى حامد وإلى القضاة ، وانتاب جو المحكمة قلق وتوتر ، وحوم حولها تهديد ووعيد ، وتمشى فى ساحتها ريح عاصف ، يوشك أن يكون برقاً ورعداً .

وانقلب جو المحكمة ، إلى مايشبه محاكم التفتيش التاريخية ، ويواصل الخطيب البغدادى روايته على لسان — زنجى — فيقول :

«(1) وكان يخرج إلى حامد ، فى كل يوم ، دفاتر مما حمل من دور أصحاب الحلاج ، ويجعل بين يديه ، فيدفعها إلى أبى ، ويتقدم إليه بأن يقرأها عليه ، فكان يفعل ذلك دائما :

فقرأ عليه فى بعض الأيام من كتب الحلاج ، والقاضى أبو عمر حاضر والقاضى أبو الحسين بن الأشنانى ، كتاباً حكى فيه أن الإنسان إذا أراد الحج ولم يمكنه ، أفرد فى داره بيتاً لا يلحقه شيء من النجاسة ، ولا يدخله أحد ، ومنع من تطرقه .

فإذا حضرت أيام الحج ، طاف حوله طوافه حول البيت الحرام ، فإذا انقضى ذلك ، وقضى من المناسك ما يقضى بمكة مثله ، جمع ثلاثين يتيما وعمل لهم ما يمكنه من الطعام ، وأحضرهم إلى ذلك البيت ، وقدم إليهم ذلك الطعام ، وتولى خدمتهم بنفسه .

فإذا فرغوا من أكلهم ، وغسل أيديهم ، وكسا كل واحد منهم قميصا ، ودفع إليهم سبعة دراهم أو ثلاثة — الشك منى — فإذا فعل ذلك قام له مقام الحج ! ! ؟

فلما قرأ أبى هذا الفصل ،التفت أبو عمر القاضى إلى الحلاج ، وقال له: من أين لك هذا ؟ قال : من كتاب الإخلاص للحسن البصرى ؟ فقال له أبو عمر: كذبت يا حلال الدم ... قد سمعنا كتاب الإخلاص للحسن البصرى بمكة ، وليس فيه شيء مما ذكرته ! ؟

فلما قال أبو عمر يا حلال الدم ، قال له حامد : اكتب بهذا فتشاغل أبو عمر بخطاب الحلاج .

فأقبل حامد يطالبه بالكتابة بما قاله ، وهو يدافع ويتشاغل إلى أن مد حامد الدواة من بين يديه إلى أبى عمر ، ودعا بدرج فدفعه إليه ، وألح

---

(1) تاريخ بغداد ج 7 ص 138 .

عليه حامد بالمطالبة بالكتابة إلحاحاً لم يمكنه معه المخالفة!!؟ فكتب بإحلال دمه وكتب بعض من حضر المجلس .

ولما تبين الحلاج الصورة قال : ظهري حمى ، ودمي حرام . وما يحل لكم أن تتأولوا على ، واعتقادي الإسلام ، ومذهبي السنة . وتفضيل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وطلحة والزبير ، وسعد وسعيد ، وعبدالرحمن بن عوف وأبي عبيدة الجراح ، ولى كتب فى السنة موجودة فى الوارقين ، فالله الله فى دمى !. ؟

ولم يزل يردد هذا القول ، والقوم يكتبون خطوطهم ، إلى أن استكملوا ما احتاجوا إليه ، ونهضوا عن المجلس ، ورد الحلاج إلى موضعه الذى كان فيه .

ورفع حامد ذلك المحضر إلى والدى ، وتقوم إليه ، أن يكتب إلى المقتدر بالله — الخليفة — بخبر المجلس ، وما جرى فيه ، وينفذ الجواب عنها ، فكتب الرقعتين ، وأنفذ الفتوى إلى المقتدر بالله » .

وبذلك تمت مهزلة دامية ، من أعجب مهازل التاريخ ، بل من أبشع مآسيه . .

مهزلة اشترك فيها الخليفة ، وكبير قواده مؤنس ، وكبير وزرائه حامد ومن ورائهم حشد ضخم ، من المنافقين والمرتشين والمحتكرين ، ومحترفى السياسة المتنفعين ، الذين يسبحون مع التيار المنتصر . .

اشتركوا جميعاً فى قتل سافر ، وليخنقوا صوت الحق ، الصوت الرهيب ، الذى ارتفع فى أفقهم السياسى ، ليهدد مكانتهم ونفوذهم واستقلالهم .

مهزلة سياسية لبست ثوب الدين ، وعجز حتى هذا الثوب ، عن أن يستر المهزلة ، فجاء الثوب ممزقاً مهلهلا :

يقول الأسطخرى : ولم يعرف للحسن البصرى ، كتابا باسم الإخلاص :

ومع هذا وضعت الرواية على لسان الحلاج ، اسم هذا الكتاب ، ووضعت على لسان القاضى ، أنه قرأه بمكة ! ! ؟

ثم عجزت الرواية المصنوعة نفسها ، عن أن تلبس الحكم ثوباً شرعياً فالقاضى يقول وهو غاضب ، كلمة لا يقصد معناها ، ولا يريد حقيقتها ، والوزير يتلقف الكلمة . فى إصرار عجيب ، ثم يرغم القاضى إرغاماً عليها ، وعلى توقيع الحكم باسمها .

يقول المستشرق ماسنيون[1] . « هنالك استطاع حامد أن يتآمر مع القاضى المالكى أبى عمر الحماوى ، وهو معروف بتملقه للقائمين بالأمر ، على الحكم الذى سيصدر بإعدام الحلاج وأسبابه ! ؟

وذلك بالإحتجاج بمذهب الحلاج بالإستغناء عن الحج ، ليشبه أمره بأمر القرامطة الثائرين ، الذين أرادوا هدم الكعبة ! ! ؟

ومن عجب أن الحلاج حج ثلاث مرات ، وقد رفض القاضى الحنفى ابن بهلول الموافقة على حكم ابن عمر ، ولكن مساعده — الأشنانى — قبل مساعدة ، ابن عمر فى هذا الاتجاه .

ولم يحضر الجلسة أحد من الشافعية ، وقد وجد عبد الله بن مكرم ، رئيس الشهود المحترفين ، عدداً وافراً منهم ، وافقوا على الحكم ، بلغ فيما يقال ٨٤ .

وذلك بإضافة فقهاء وقراء إلى أعضاء المحكمة ، وكان جزاء ابن مكرم ظفره بمنصب القضاء . بطريقة شرفية ، أى لا يمارس القضاء فعلا » .

---

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٧٧

الحلاج ينذر الخليفة

أدرك الحلاج أن المؤامرة قد بلغت نهايتها، وأنه في طريقه إلى الإستشهاد، الإستشهاد الذى طالما حن إليه ، وتنبأ به .

كما أدرك الهدف من هذا الحشد من الإتهامات الدينية ، التى تصوره دجالا مشعوذاً تارة ، وملحداً مارقاً تارة أخرى ، إنها تستهدف أول ما تستهدف ، أن تزلزل فى قلوب الجماهير ، تلك القدسية الدينية التى تنطوى عليها قلوبهم للحلاج .

وأن تظهر الخلافة وأنصارها ، بمظهر الدفاع عن العقيدة الإسلامية وحمايتها .

وبين تهاويل هذه الإتهامات وضجيجها ، تختنق وتختفى صيحات الحلاج ، فى الإصلاح السياسى والاجتماعى ، وتذوب وتتوارى ، حملاته على الفساد والمفسدين ، والمنحلين والمحتكرين .

فإذا انطفأ ذلك البريق الساحر ، الذى يترقرق حول الحلاج ، وتمزقت تلك الهالة المضيئة التى تحيط بكلماته وحياته ، وتقطعت الخيوط الروحية ، التى تربطه بوجدان الشعب وضميره ، وحيل بين البطل ورداءه ، والولى وشعاعه .

حينئذ تستطيع الخلافة أن تضرب ضربتها الإنقامية الكبرى ، وأن تخضب وجه الأرض ، بدم مهدر ضائع ، لا يثور من أجله محب ، ولا يغضب له منتقم ! !

أدرك الحلاج هذا كله وقدره ، بل وصوره لنا فى مشاهد حية تكاد لصدقها ، تكون نبوءة مبصرة .

لم يجزع الحلاج ولم يضطرب ، لقد أدرك بذوقه وبوجدانه ، منذ أمد بعيد ، أنه فى طريقه إلى الإستشهاد .

ولكنه اعتزم أن يمضى قدماً فى منهجه ورسالته ، وأن يقول كلماته الأخيرة ، للخليفة نفسه .

وطلب الحلاج مقابلة الخليفة ، والخليفة دائماً كان يخاف الحلاج ويرهبه ، وكان يحرص الحرص كله ، على أن يبدو أمام الجماهير، بريئاً من عذابه ودمه .

وأذن الخليفة بمقابلة الحلاج ، كما أذن أيضاً الوزير حامد بأن يشهد هذه المقابلة ، بناء على طلبه وإلحاحه .

وحمل الحلاج مقيداً إلى الخليفة ، فدخل مرفوع الرأس، مشرق الوجه، وألقى بتحية الإسلام .

ثم أخذ يحذر الخليفة وينذره ، ويطالبه بإصلاح الأداة الحكومية حتى يرضى الله عنه ، وبإبعاد المفسدين فى الأرض . وبتطبيق الشريعة روحاً ونصاً ، حتى تتحقق رسالة القرآن .

ثم انتقل الحلاج بالحديث إلى قضيته ، وموقف الخليفة منها ، فحذره الغرور بالخلافة ، والإعتزار بالملك ، لأن من اعتز بغير الله ذل ، وأفهمه أنه آلة يحركها القدر الإلهى ... ثم قال .

«(١) من أطاع الله أطاعه كل شيء ، ثم حاكم ومحكوم عليه ، وواسطة هى السبب ، فى إيصال الحكم بالمحكوم عليه ، فإن كان ثم جور

---

(١) من مخطوطات الحلاج نشر ماسنيون . باريس .

أو عدل ، نسب إلى الواسطة فى الظاهر ، والرب يتحاشى عن أن يوصف بذلك .

وإنما أنت واسطة، فنفذ أحكام الرب ومشيئته . فيمن يشاء من عباده، بما شاء ، كما شاء .

وأنا عبد من عبيد الله ، مستسلم لقضاء الله ، صابر لحكم الله ، راض بقضاء الله : فافعل ما حركت له ، واعمل بما استعملت فيه .

وكن بعد ذلك شديد الحذر ، فيما تأتى به وتذر ، وانظر فى عواقب أمرك وتأمل ما تأتيه بثاقب فهمك ، وصافى فكرك ، فإن رأيت الصلاح فيما قام فى نفسك ، فامض حكم عدلك.

وإنى لا أعترض عليك ، ولا ألومك فى فعلك ، ولكنى أقول ، كما قال الخليل . . وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين » .

ثم خرج الحلاج كما دخل ، مرفوع الرأس ، مشرق الوجه ، مطمئن القلب ، لقد أدى واجبه كاملا ، وإنه لفى طريقه إلى القمة، القمة الشاهقة، قمة الإستشهاد فى رداء من البطولة السامقة ، بل فى إشراقة متلألئة ، من المحبة المضحية .

الخليفة يعتمد الحكم

وخيم على القصر صمت مطبق ، حزين مرتعد ، لقد جاءت الساعة الحاسمة ، وقلب الخليفة ، الذى طالما انتظر هذه اللحظة وتمناها ، إنه ليخفق اليوم ، خفقات أقرب إلى الرعب ، منها إلى البهجة والنصر .

إن بغداد لترتعد غضباً لوليها ، وإن رعــــدة الغضب لتوشك أن تنفجر ، وإن فى انفجارها ، لما يرعب الخليفة ، ويمزق وجدانه ، ويحرق قلبه .

يقول ماسنيون : « وأصيب الخليفة بالحمى فى اليومين التاليين للحكم على الحلاج ، وفى هذا الجو العاصف ، بذل نصر أمير البلاط ، ووالدة الخليفة سعيهما لدى الخليفة ، فبدل حكم الإعدام » .

ويقول الخطيب البغدادى مصوراً لهذه الفترة الحرجة[1] — على لسان ما كتب به زنجى — «وأبطأ الجواب يومين ، فغلظ ذلك على حامد . ولحقه ندم على وتخوف أن يكون قد وقع غير موقعه

ولم يجد بدأ من نصرة ما عمله ، فكتب بخط والدى رقعة إلى المقتدر بالله . فى اليوم الثالث . يقتضى فيها ما تضمنته الأولى . ويقول :

إن ما جرى فى المجلس قد شاع وانتشر ، ومتى لم يتبعه قتل الحلاج افتتن الناس به . لم يختلف عليه إثنان ،ويستأذن فى ذلك ، وأنفذ الرقعة إلى مفلح ، وسأله إيصالها ، وتنجيز الجواب عنها ، وإنفاذه إليه .

ويقول ماسنيون[1] : « هنالك لوح حامد أمام الخليفة . اشبح ثورة اجتماعية حلاجية ، وراح يسعى للإتفاق مع كبير القواد مؤنس . على الخلاص من الحلاج وأصدقائه » .

---

(١) شخصيات قلقة ص ٧٧ .

وتدخل مؤنس بنفوذه العسكرى الكبير لدى الخليفة ، وتحت إلحاحه المتواصل ، وقع الخليفة فى تردد أمر الإعدام ، ملقياً بتبعة دمه على القضاء .

يقول البغدادى[1] : « فعاد الجواب من المقتدر بالله — إلى حامد — بأن القضاة إذا كانوا قد أفتوا بقتله ، وأباحوا دمه .

فلتحضر محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة ، وليتقدم إليه بتسلمه وضربه ألف سوط ، فإن تلف تحت الضرب ، وإلا ضرب عنقه .

فسر حامد بهذا الجواب ،وزال ما كان عليه من الإضطراب، وأحضر محمد بن عبد الصمد ، وأقرأه إياه ، وتقدم إليه بتسلم الحلاج ، فامتنع من ذلك ، وذكر أنه يتخوف أن ينتزع منه .

فأعلمه حامد، أنه سيبعث معه غلمانه ،حتى يصيروا به إلى مجلس الشرطة فى الجانب الغربى

ووقع الإتفاق على أن يحضر بعد عشاء الآخرة ، ومعه جماعة من أصحابه ، وقوم على بغال مؤكفة ، يجرون مجــــرى الساسة — ويلبس الحلاج مثلهم ، ويدخل فى غمارهم — حتى لا ينتزع .

ووأصاه بأن يضربه ألف سوط ، فإن تلف حز رأسه ، واحتفظ به ، وأحرق جثته

وقال له حامد : إن قال لك ، أجرى لك الفرات ذهباً وفضة ، فلا تقبل منه ، ولا ترفع الضرب عنه .

فلما كان بعد عشاء الآخرة ، وافى محمد بن عبد الصمد إلى حامد ، ومعه رجاله والبغال المؤكفة ، فتقدم إلى غلمانه بالركوب معه ، حتى يصل إلى مجلس الشرطة .

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٤١ — ١٤٢

وتقدم إلى الغلام الموكل به ، بإخراجه من الموضع الذى هو فيه ، وتسليمه إلى أصحاب محمد بن عبد الصمد .

وأخرج الحلاج وأركب بعض تلك البغال ، واختلط بجملة الساسة ، وركب غلمان حامد معه حتى أوصلوه إلى الجسر ثم انصرفوا ، وبات هناك محمد بن عبد الصمد ورجاله » .

ليلة المصرع !؟

عن ابراهيم بن شيبان قال[1] دخلت على ابن سريج القاضى، يوم أفتوا فى قتل الحلاج ، فقلت : يا أبا العباس ، ماتقول فى فتوى هؤلاء ، فى قتل هذا الرجل ؟ قال : لعلهم نسوا قول الله تعالى : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » .

ويقول الواسطى : «[2] قلت لابن سريج ، ما تقول فى الحلاج قال : أما أنا أراه حافظاً للقرآن ، عالماً به ، ماهراً فى الفقه ، عالما بالحديث والأخبار والسنة ، صائماً الدهر ، قائماً الليل يعظ ويبكى » .

وهكذا كان الحلاج ، حتى فى ليلة الهول ، ليلة المصرع ، لقد أعرض عن الدوى الذى أحدثه النبأ العظيم ، وأقبل على ربه يناجيه بمواجيد قلبه ، وألحان حبه .

يقول ابنه أحمد . «[3] فلما كانت الليلة التى أخرج فى صبيحتها والدى من الحبس — للقتل — قام فصلى ركعتين ، فلما فرغ من صلاته ، لم يزل يقول : مكر ، مكر ، إلى أن مضى من الليل أكثره ، ثم سكت طويلا ثم قال :

حق ، حق ، ثم قام قائماً وتغطى بإزار ، واتزر بمئزر ، ومد يديه نحو القبلة ، وأخذ فى المناجاة .

---

(١) أخبار الحلاج طبع باريس

(٢) » » » »

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ١١ ص ١٤١ - ١٤٢

وكان خادمه أحمد بن فاتك حاضراً ، فحفظنا بعضها ، فكان من مناجاته :

نحن بشواهدك نلوذ ، وبسنا عزتك نستضيء ، لتبدى ماشئت من شأنك ومشيئتك ، وأنت الذى فى السماء إله ، وفى الأرض إله .

يا مدّهر الدهور ، ومصوّر الصور ، يامن ذلت لك الجواهر ، وسجدت لك الأعراض ، وانعقدت بأمره الأجسام ، وتصورت عنده الأحكام .

يامن تجلى لما شاء ، كيف شاء ، مثل التجلى فى المشيئة ، لأحسن صورة والصورة هى الروح الناطقة ، التى أفردته بالعلم والبيان والقدرة .

ثم أوعزت إلى شاهدك لما أردت بدايتى ، وأظهرتنى ، عند عقيب كراتى ، وأبديت حقائق علومى ومعجزاتى ، صاعداً فى معارج إلى عروش أزلياتى ، عند القول من برياتى .

إنى أحتضر ، وأقتل ، وأصلب ، وأحترق ، وأحمل على السافيات[1] .

ثم أنشأ يقول :

انعى إليك نفوساً طاح شاهدها	فيما وراء الحيث أو فى شاهد القدم
أنعى إليك قلوباً طال ما هطلت	سحائب الوحى فيها أبحر الحكم
أنعى إليك لسان الحق مذ زمن	أودى وتذكاره فى الوهم كالعدم
أنعى إليك بياناً تستكين له	أقوال كل فصيح مقول فهم
انعى إليك إشارات العقول معاً	لم يبق منهن إلا دارس الرمم
أنعى وحبك أخلاقاً لطائفة	كانت مطاياهم من مكمد الكظم
مضى الجميع فلا عين ولا أثر	مضى عاد وفقدا الألى إرم
وخلفوا معشراً يحذون لبسهم	أعمى من البهم بل أعمى من النعم

(١) الرياح

وعن إبراهيم بن فاتك قال : « [1] دخلت على الحلاج فى الليلة الأخيرة وهو فى الصلاة ، مبتدئاً بقراءة سورة البقرة ، فصلى ركعات حتى غلبنى النوم.

فلما انتبهت سمعته يقرأ سورة — حم عسق — فعلمت أنه يريد الختم ، فختم القرآن فى ركعة واحدة ، ثم قرأ فى الثانية ما قرأ ، ثم ضحك إلى وقال: ألا ترى أنى صلى لرضائه ، من ظن أنه يرضيه بالخدمة ، فقد جعل لرضاه ثمناً ! ؟ » .

ويقول الرزاز : « [2] كان أخى خادماً للحسين بن منصور فسمعته يقول : لما كانت الليلة التى وعد من الغد بقتله ، قلت : ياسيدى أوصنى ، فقال لى :

« عليك بنفسك إن لم تشغلها شغلتك » .

ثم أنشأ يقول :

عجبت منك ومنى ... يا منيـــة المتمنى
أدنيتنى منك حتى ... ظننت أنك أنى
وغبت فى الوجد حتى ... أفنيتنى بك عنى

ثم أخذ يترنم ويرقص ، وهو فى حالة من النشوة العارمة ، والوجد العنيف ، جعلت ابن خفيف ، يعتقـــد أن جدران سجنه كانت أيضاً تترنم بقوله :

لى حبيب حبه وسط الحشا ... لو يشا يمشى على خـــدى مشى
روحه روحى ، وروحى روحه ... إن يشا شئت ، وإن شئت يشا

---

(١) أخبار الحلاج

(٢) » »

مصرع الشهيد

وجاء يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذى العقدة ، سنة تسع وثلاثمائة ، فشهدت بغداد أكبر حشد عرفه تاريخها !!

اجتمع هذا الحشد العظيم ، على ضفاف دجلة ، راجف القلب ، دامع العين ، كظيم الغيظ ، وتركزت نظراته على الحلاج ، الذى وقف فى أغلاله وقيوده ، مشرق الوجه ، عال الرأس ، شامخا جليلا وقد أحاطت به صفوف الجند ، وطوقته ربانية العذاب ، وارتفعت إلى السماء قوائم خشبية غليظة جللت بالسواد ، هى الآلة التى أعدت ، لجلده وعذابه وصلبه .

قال الياقوتى : « سمعت الحلاج عند ما تقدم للصلب يقول : يا معين الفناء علىّ أعنى على الفناء » .

ويقول القاضى أبو العلاء الواسطى : « لما جىء بالحسين بن منصور الحلاج ليقتل ، أخذ يتبختر فى قيده ، وهو ينشد:

طلبت المستقرّ بكل أرض   فلم أر لى بأرض مستقراً
فنلتُ من الزمان ونال منى   وكان مناله حـــلواً ومراً

وعن إبراهيم بن فاتك قال : [1] لما أتى بالحسين بن منصور ليصلب ، رأى الخشبه والمسامير ، فضحك كثيراً حتى دمعت عيناه ، ثم التفت إلى القوم ، فرأى الشبلى بينهم ، فقال له :

يا أبابكر ، هل معك سجادتك ؟ فقال : بلى ياشيخ ، قال . أفرشها لى ، ففرشها ، فصلى الحسين بن منصور عليها ركعتين ، وكنت قريباً منه ، فقرأ فى الأولى ، فاتحة الكتاب ، ثم قوله تعالى : «ولنبلونكم بشىء من الخوف

(١) أخبار الحلاج طبع القاهرة ص ١٠ ــ ١١ .

والجوع .. الآية ، وقرأ فى الثانية ، فاتحة الكتاب ، ثم قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت .. الآية » فلما سلم ذكر أشياء لم أحفظها ، وكان مما حفظته قوله :

اللهم إنك المتجلى [1] عن كل جهة ، المتخلى عن كل جهة ، بحق قدمك على حدثى ، وحق حدثى تحت ملابس قدمك ، أن ترزقنى شكر هذه النعمة ، التى أنعمت بها على ، حيث غيبت أغيارى عما كشفت لى من مطالع وجهك ، وحرمت بها غيرى ما أبحت لى من النظر فى مكنونات سرك .

هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى ! ؟ تعصباً لدينك ، وتقرباً إليك ، فاغفر لهم فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لى ، لما فعلوا ما فعلوا ولو سترت عنى ما سترت عنهم ، لما ابتليت بما ابتليت ، فلك الحمد فيما تفعل ، ولك الحمد فيما تريد !!

ثم سكت وناجى سراً ، فتقدم أبو الحارث السياف ، فلطمه لطمة هشمت أنفه ، وسال الدم على شيبه !!

فصاح الشبلى ومزق ثوبه ، وغشى على أبى الحسن الواسطى ، وعلى جماعة من الصوفية المشهورين ، وكادت الفتنة تهيج ، ففعل أصحاب الحرس ما فعلوا !! » .

ثم تقدم صاحب الشرطة ، فشده إلى آله الصلب ، ثم أمر الجلاد بأن يضربه ألف سوط فأخـــذ يضربه وهو صامت لا يتأوه ، ولا يضطرب ، ولا يستغيث ، وإنما يقول : أحد أحد ، حتى بلغ ستمائة سوط ، فقال لصاحب الشرطة :

أدنو منى فإن عندى نصيحة ، تعدل عنه الخليفة ، فتح قسطنطينية ، فقال له : قد قيل لى عنك ، أنك تقول هذا وأمثاله ، وليس لى أن أرفع الضرب عنك ، فسكت حتى ضرب ألف سوط !!

---

(١) المتجلى والمتخلى : المنزه عن الجهة والمكان . سبحانه وتعالى .

فلما أتم الجلاد ما كلف به ، أخذ الحلاج يتواجد ويتبختر فى مشيته ، وفى قدمية ثلاثة عشر قيداً ، ثم راح وهو فى ثمل روحى عميق ينشد :

نديمى غـــير منسوب إلى شىء من الحيـــف
دعانى ثم حيـــانى فعل الصيف بالضيف
فلمـــا دارت الكأس دعا بالنطـــع والسيف
كذا من يشرب الراح مع التنين (١) فى الصيف (٢)

ثم قال : يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ».

---

(١) التنين : هو زهرة أنف الأسد ، وقد أخطأ الرواة فكتبوها التنين .
(٢) ديوان الحلاج .

بتر يداه

ثم تقدم الجلاد مشهراً سيفه ، ومن حوله حملة الرماح والدروع ، فقطع يده اليمنى ، ثم يده اليسرى ، ولم يجزع الحلاج ولم يتأوه ، ولم تفارق الإبتسامة شفتيه ، ولم يفتر لسانه عن ذكر الله ومناجاته !!!

لقد اعتصم الحلاج بشيء أعظم من كل ما يدب على وجه الأرض ، من عدوان وبغى ، اعتصم بإيمانه ، ، ولاذ بحبه ، ولجأ إلى ربه ، فغاب عن نفسه ، وعن حسه ، وسما إلى الأفق الأعلى ، فعاش فى نشوة المشاهدة ، ونعيم القرب ، فأنساه ما يرى ، وما يتذوق ، هول ما يلقى من آلام وعذاب !!

ولما أخذ وجهه فى الإصفرار لكثرة ما نزف من دمه ، شال بذراعه على وجهه (١) فخضبه بالدم حتى يخفى اصفراره ، وقال مبتسماً : ركعتان فى العشق ، لا يصح وضوؤهما إلا بالدم !!

ثم أنشد مترنماً :

وحرمة الود الذى لم يكن يطمع فى إفساده الدهر
ما نالنى عند هجوم البلا بأس ولا مسنى الضر
ما قدّ لى عضو ولا مفصل إلا وفيه لكم ذكر (٢)

وتطاير هذا النشيد الحار المؤمن ، إلى الجماهير المحتشدة ، فارتفع الزئير المرعد من أفواه الرجال ، وأغمى على كثير من النساء ، وماجت الصفوف بالتهديد السافر ، والغضب المتوهج .

---

(١) منشورات صوفية لماسنيون .
(٢) ديوان الحلاج .

وأسرع الجند إلى سياطهم وحرابهم ، وازداد الموقف توتراً فى ساحة الصلب ! ؟ بينما طافت نذر الثورة فى أزقة بغداد وشوارعها .

وزاد الحقد والغضب بحامد وعصبته ، فأخذوا يتصيدون بعض أعوانهم ، من صفوف الصوفية والفقهاء ، ليدفعوا بهم حول منصة الصلب ، ليرموا الحلاج بالسباب ، ويتهموه بالمروق ، على هذا الإتهام يخفف من إيمان الجمهور به ، وغضبته له .

يقول ابن كثير :

« [1] وجاء أبو الحسن البلخى عند الخشبة ، وقال — للحلاج — : الحمد لله الذى أمكن منك يا عدو الله ؟ كيف وأيت بوس الناس فى يديك ، وقولهم لك يا سيدى ومولاى وأنت راض بذلك » .

ويقول ماسنيون :

« [2] وأخذ الجند يحضرون بعض أفراد من الصوفية لينالوا من الحلاج ثم يقول :

وأتى الجند بالشبلى وقد وضعوا منديله فى عنقه ، وهم يسحبونه إلى الحسين بن منصور ليلعنه ! ! فتأبى من ذلك وقال : اتركونى : فقالوا : ما نتركك حتى تلعنه ، أو ترسل إليه رسولا بذلك ! ؟

والتفت الشبلى يميناً وشمالا فرأى فاطمة الأموية ، فقال لها : أدنى منى ، فدنت ، فقال لها : إذهبى إلى الحسين بن منصور فقولى له : إن الله قد ائتمنك على سر من أسراره فأذعته ، فأذاقك طعم الحديد ، واحفظى ما يقول لك . . ثم اسأليه عن التصوف ، وما هو ؟ ؟

ومضت فاطمة إلى الحلاج ، فقالت : أنا رسولة أبى بكر الشبلى ، فابتسم الحلاج ، ثم قال : هاتى ما معك .

(1) البداية والنهاية ج ١١ (٢) منشورات صوفية .

فقالت له : إنه يقول لك : إن الله قد ائتمنك على سر من أسراره فأذعته ، فأذاقك طعم الحديد ، فأنشأ يقول

تجاسرتُ فكاشفتـــك لما غلب الصبر
وما أحسن في مثلـك أن يتهتك الستر
وإن عنــفنى الناس ففى وجهك لى عذر
كأن الــبدر محتاج إلى وجهك يا بدر

ثم قال : اذهبي إلى أبي بكر فقولى له يا شبلى والله ما أذعت له سراً .

فقالت فاطمة : فما حقيقة التصوف ، فقال : أهون مرقاة فيه ما ترين؟ قالت : فما أعلاه ؟ قال : ليس لك إليه سبيل ، ولكن سترين غداً ما يجرى، فإن فى الغيب ما شهدته وغاب عنك .. ثم قال والله ما فرقت بين نعمة وبلوى ، ساعة قط .

فجاءت فاطمة إلى الشبلى ، فأعادت عليه ذلك ، فصاح الشبلى : يامعشر الناس : الجواب الأول لكم والثانى لى ؟ » .

عذاب الحلاج !!

ثم قام الحراس فشدوا وثاقه إلى آلة الصلب ، وأخذوا يتفننون فى إيلامه وعذابه بألسنتهم وسياطهم .

ومضى يوم ، وغربت الشمس ، وجاءت الليـــلة الأولى ، من ليال العذاب ، فباتها الحلاج على صورة لم تعرف لغيره فى التاريخ .

باتها مقيداً مصلوباً مقطوع اليدين ، تنزف جراحه دما ! ؟ وبات جمهور البغداديين حوله ، على الضفة الغربية لدجلة ، يرقب المأساة ، ويشهد الفاجعة ، ويتتبع بعواطف متضاربة ، مشاهد مسرحية حية دامية .

يشهد صراعاً عجباً فذاً تدور رحاه ، حول رجل أعزل ، ينازل وحده ، فى بطولة متحدية ، صابرة شامخة ، القوى الحاكمة فى العراق ، وهى أعظم قوى الأرض فى عصرها !!

وكان منظراً مسرحياً ، لم تشهد مسارح الدنيا مثيلا له من قبل ، مئات المشاعل تضىء شواطىء دجلة ، وتكشف آفاقها ، وتغمر مياهها بالألوان والظلال .

وهنا وهناك قامت حلقات وأروقة ، للذاكرين من الصوفية ، وللمجادلين من المعتزلة ، وللمتناظرين من الحنابلة ، وللمتعصبين من الشيعة ، يديرون حديث القلب والعقل حول المشهد العظيم ، الذى هز بغداد وأطار النوم من جفونها .

وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، شتيت من الأجناس والطوائف ، والمتعددة الأهواء والثقافات ، والميول والإتجاهات .

ويمشي بين صفوف هؤلاء وهؤلاء تلاميذ الحلاج وأحبابه ، يتحدثون عن إيمانه ورسالته ، وكراماته وعجائبه ، ويشتط الخيال بفريق منهم ، فيذهب بهم بعيداً بعيداً ، ليضفي على الحلاج قداسات أكثر مما تطيق البشرية ، وأعلى مما تستطيع الإنسانية !!

وتتلقف آذان الجماهير : هـــذه الأحاديث البارعة الملونة ، فتخفق قلوبهم ، للشهيد المعذب المصلوب ، وتثور عواطفهم ، للقطب المضطهد المظلوم !! ؟

وداخل هذا الإطار الكبير بألوانه وظلاله ، يقف الحلاج مشدوداً بوثاقه على مصلبه الدامي ، مترنماً بألحانه ، محلقاً في نشوة قلبية أكبر من آلامه ، وفي ثمل روحي أعظم من عذابه

إنه في عالمه العلوي الروحي المضيء ، بعيداً بعيداً ، عن الأرض وما يدبر فيها ، وما يصب عليها !!

إن صمود الحلاج على مصلبه ، لزاد من الخلود كما يقول الشبلي ، أعلى مما يفهم ، من لم يذق مذاقه ويحيا حبه ! ؟

قطع قدماه !!

وجاء صباح اليوم الثانى ، فتضاعف كما يقول « ابن كثير » عدد البغداديين حول مصلبه ، واجتمع من العامة عدد لا يحصى [1] .

وبدأ العذاب من جديد فى يومه الثانى، فقطعت رجله اليمنى، ثم اليسرى، ومع قطرات الدم ، ارتفعت السياط ، تمزق ما بقى من هذا الأديم الصابر الصامد !!

يقول الخطيب البغدادى : « [2] سمعت فارساً يقول : قطعت أعضاء الحلاج ، عضواً وما تغير ، وما فتر لسانه عن ذكر الله . »

وعن ابن فاتك قال : « [3] لما قطعت رجلا الحلاج قال: إلهى أصبحت فى دار الرغائب ، أنظر إلى العجائب ، إلهى إنك تتودد إلى من يؤذيك ، فكيف لا تتودد إلى من يؤذى فيك » .

ثم أنشد :

اقتلونى يا ثقاتى إن فى قتلى حياتى
ومماتى فى حياتى وحياتى فى مماتى
إن عندى محو ذاتى من أجل المكرمات
وبقائى فى صفاتى من قبيح السيئات
فاقتلونى واحرقونى بعظامى الفانيات
ثم مروا برفاتى فى القبور الدارسات
تجدوا سر حبيبى فى طوايا الباقيات [4]

---

(١) البداية والنهاية ج ١١

(٢) تاريخ بغداد ج ٨

(٣) أخبار الحلاج ص ٥٦

(٤) ديوان الحلاج طبع باريس.

ثم تتابعت مشاهد العذاب ، من جلد وصفع وركل وسباب ،والحلاج على مصلبه ، ممزق الجسد ، تتساقط قطرات الدماء من سائر جسده وهو فى نشوة روحية ، بل فى ثمل روحى أعلى وأسمى وأقوى ، من كل ما صب عليه من هول وعذاب !!

إنه فى تسابيحه ومواجيده ومناجاته ، غير ملتفت إلى ما بتر منه ، وما يحيط به !

لقد تفتحت له أبواب السماء ، وأحاطت به هالات من النور ، وفى سمعه ، ألحان من الأفق المضىء ، وترنيمات من أوتار خفية ،يوقّع على موسيقاها ابتهالاته الخالدة .

إذا ذكرتك كاد الشوق يقلقنى   وغفلتى عنك أحزان وأوجاع
وصار كلى قلوباً فيك داعية   للسقم فيها وللآلام إسراع (١)

* * *

يالائمى فى هواه كم تلوم فلو   عرفت منه الذى عنيت لم تلم
للناس حج ولى حج إلى سكنى   تهدى الأضاحى وأهدى مهجتى ودمى (٢)

* * *

لا تلمنى فاللوم من بعيـــد   وأجر سيـــدى فإنى وحيد
من أراد الكتاب هذا خطابى   فاقرأوا واعلمـــوا بأنى شهيد (٣)

* * *

ثم تتابعت مشاهد ، تجلت فيهـا أسمى ما فى النفوس الإنسانية من مثاليات ، وأحط ما فى الغرائز البشرية من صفات .

---

(١) ديوان الحلاج ص ٧٢ طبع باريس
(٢) « « ص ٨٥ طبع باريس
(٣) « « « ١ ، « «

فقد أقام حامد وصحبه حول مصلب الحلاج ، أعوانا لهم ، يملأون الدنيا سباباً وصياحاً هاتفين : اقتلوا الحلاج الزنديق ، وفى أعناقنا دمه ! !

ثم أخذ الجند يجمعون الفقهاء والصوفية ليرجموا الحلاج ، وهو فى موقف الهول والعذاب ، فامتنع فريق كبير عن هذا الإثم ، صبروا وصابروا ، واحتملوا الجلد والسجن ولم تقترف أيديهم السوء ! !

ثم جىء بالشبلى ، تلميذ الحلاج وصديقه وصفيه ، جىء به ليرجم الحلاج ، وأقسموا على قتله إن لم يفعل !!

وأذن له الحلاج وطالبه بأن يفعل صوناً لدمه ، فرماه بوردة . . ثم بكى وصاح : « إن استشهاد الحلاج درة من الجمال المحرم ، إنه زاد خلود ، لا يظفر به إلا الأبطال ، وليس بزاد يوزع على الجميع » .

يقول ماسنيوم : « [1] وفى وسط هذا كله ، الحلاج نفسه مصلوباً خارجا عن طوره ، مظهراً للجميع من فوق مقصلته ، وهو فى حالة من الوجد تجاوز ببدنه حد الموت ، شخصية المسيح الخالدة ، كما وصفها القرآن ، وكأنه الصورة المعبرة المتجلية فيها روح الله : — وما قتلوه وما صلبوه » .

ومضى اليوم الثانى ، وجاءت الليلة الثانية ، على الشهيد الصامد ، لهول لم يصمد له أحد من قبل !

ومضى الليل ثقيلا بطيئاً ، ورفرف الموت على الساحة الكبرى وأخذت ظلال المشاعل ترسم أطيافاً حزينة باكية .

والمصلوب المعذب فى نشوته ومناجاته وضراعاته ، التى ترسم فى عالم الروح ، صرخات تهز عالم النور .

عالم الروح والنور ، الذى سعى إلى الحلاج ليؤنسه فى لحظاته الأخيرة ، تلك اللحظات التى صورها لنا الحلاج على مصلبه فى آخر قصائده . . .

---

(١) شخصيات قلقة ص ٨٢ .

قصيدة المصلب[1] :

وفيها يروى قصته كاملة ، بذلك النغم المأثور عن الصوفية ، فى حالات الشطح والشبح الروحى .

فيحدثنا عن فنائه فى الله ، ذلك الفناء الذى أورثه البقاء به سبحانه ، ومن بقى بالله عاش فى عالم المشاهدة ، وتفتحت عين روحه ، لتطل على الوجود .

ثم يقول : إنه الباز الأشهب فى عالم الروح ، وهو مقام أعلى وأسمى من القطبانية ، وأن شربه من مقام الصديقية ، وهو مقام لا يعلوه إلا مقام النبوة ، وأنه غدا ربانياً يعيش تحت العرش ، وأنه قد حطم ببرهانه جبال الأكاذيب التى أحاطت به .

وأنه الذى شاع ذكره فى الملأ الأعلى ، وأنه خاض بحر الهوى قوياً كحوت يونس ، وأخرج أروع جواهره .

ولكنه لم يجد فى عصره ، من يفهم قيمة هذه الجواهر ، فأصبح كمن يبيع الجوهر للفحامين ! ! وكالذى يوقد الشموع فى قاعات العميان ! ! وكالذى يضع السر فى أكمام عريان .

ثم يعرض علينا فى إطار فخم ، حوادث مصرعه ، وكيف احتشد الأقطاب

---

(١) نشرت هذه القصيدة لأول مرة بسوريا ، ثم نشرها ماسنيون فى ديوان الحلاج فى طبعته الثانية عام ١٩٥٥ وسننشرها فى موضعها من هذا الكتاب .

والأولياء جميعاً ، وفى مقدمتهم الخضر ، لمؤانسته وتحيته ، وأن السيف خاطبه وناجاه ، ولو أراد لامتنع السيف عنه ، ولو شاء لهدم بغداد على البغاة ، ولكن الخضر والأقطاب ، طالبوه بأن يموت شهيداً كما مات ابن عفان ، وأن لا يخلع أبداً الخلافة الباطنية ، كما لم يخلع ابن عفان الخلافة الظاهرية .

ذلك تصوير الحلاج لموقفه ولمصرعه ، وذلك نشيده يوم الهول ، وليلة الموت ! !

عجائب يوم المصرع

يقول ابن خفيف : . (١) تقدمت إليه فى الليلة التى صلب فيها ، فلما رأيته على خشبته بحالته ، توليت وأنا مفكر فى أمره !!

فإذا به ينادينى : أن أقبل ، فأقبلت إليه ، فقال لى : عاملناه بالحقيقة ، فعمل بنا ما ترى !!

ومضى الليل الطويل بهوله ، وجاء اليوم الثالث بمذابه ومع الفجر طافت جموع الشعب ببغداد ، تحطم وتدمر ، وتطالب بإنقاذ الحلاج ، أو بإنقاذ ما تبقى منه ! !

وارتعد الخليفة وجــبن ، وأسرع إليه حاجبه نصر القشورى ، ووالدته -- شغب -- ينذرانه عاقبة المأساة الحلاجية ، ويناشدانه باسم الدين والإنسانية ، العفو عن الجسد الممزق ، والبطل المصلوب ، الذى توشك الدماء السائلة منه ، أن تدفع ببغداد إلى ثورة مدمرة تطيح بكل شيء .

وخضع المقتدر للرجاء ، أو خضع للخوف ، فاعتزم العفو ، وبلغ مسمع حامد ما يدور فى القصر ، فأسرع إلى الخليفة يناشده أن يتم ضربته الكبرى ، منذرا بأن العفو فى هذه الساعة الحاسمة ، قد يلهب بغداد أكثر مما يلهبها القتل !

ثم صاح حامد : أقتله يا أمير المؤمنين ، وفى عنقى دمه ، أقتله وإن حدثت الثورة التى يتنبأ بها نصر فاقتلنى أقتله قبل أن تثور العاصفة . .

وبين التردد والعزم ، صدر الأمر الأخير من فم الخليفة : اقطعوا رأس الحلاج ، وأحرقوا جسده . .

---

(١) منشورات صوفية طبع باويس

يقول ماسنيون : «(1) وبينما كان الثائرون يحرقون بعض الدكاكين وقد أبطأ أمر الخليفة المعتاد بالإجهاز عليه ، كان حامد يستحث المقتدر على الموافقة على الأمر بالإعدام ، قائلا : إن أصابك شيء فاقتلني » .

ويقول ابن كثير : «(2) فلما كان اليوم الثالث ، تقدم حامد إلى الخشبة ، فتلى أمر الخليفة ، ثم قرأ فتوى الفقهاء ، بأن في قتل الحلاج صلاح أمر المسلمين ! ثم أمر الجلاد بقطع رأسه والإجهاز عليه » .

ويقول الحلواني : «(3) قدم الحلاج للقتل وهو يضحك ، فقلت : ياسيدي ما هذا الحال ؟ قال : دلال الجمال ، الجالب إليه أهل الوصال » .

ويقول عيسى القصار : «(4) آخر كلمة تكلم بها الحلاج عند قتله وصلبه أنه قال : حسب الواجد ، إفراد الواحد له ، فما سمع بهذه الكلمة أحد من المشايخ ، إلا رق له ، واستحسن هذا الكلا » .

ويقول ابن خفيف : « (5) ثم ضرب عنقه فبقي جسده ساعتين من النهار قائماً ، ورأسه بين رجليه ، وهو يتكلم بكلام لا يفهم ، فكان آخر كلامه : أحد ، أحد .

فتقدمت إليه ، فإذا بالدم يخرج منه ويكتب على الأرض : الله ، الله ، في أحد وثلاثين موضعاً ، ثم أحرق بالنار !! ؟ » .

ويقول العلامة المناوي : « (6) ولما وقع دمه على الأرض ، كتب : الله ، الله ، إشارة لتوحيده ، وإنما لم يكتب دم الحسين بن علي رضي الله عنهما ذلك ، لأنه لا يحتاج لتبرئة بخلاف الحلاج ؟ » .

---

(1) شخصيات قلقة ص77
(2) البداية والنهاية ج 11
(3) الكوكب الدرية للمناوي ج 2
(4) اللمع للسراج الطوسي .
(5) أخبار الحلاج طبع باريس .
(6) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ، للمناوي ج 2 ص 25

ويقول ابن الجوزى : «[1] ولم يبق ببغداد إلا من شهد قتله ، والتفت إلى الناس وهو على الجذع - قبل قتله - وقال : من حضر بطلت شهادته ، ومن غاب قبلت شهادته ، وناداه بعض الصوفية وهو مصلوب : من طلق الدنيا كانت الآخرة حليلته » .

ويروى ابن أنجب الساعى عن الشيرازى ، أنه قال : «[2] لما صلب الحلاج بقى ثلاثة أيام لم يمت فأنزلوه وفتشوه ، فوجدوا معه ، ورقة مكتوبة بخطه ، وفيها آية الكرسى ، وبعدها هذا الدعاء :

اللهم ألق فى قلبى رضاك ، واقطع رجائى عمن سواك ، وأعنى باسمك الأعظم ، وأغننى بالحلال عن الحرام ، وأعطنى مالا ينبغى لأحد غيرى - بحم عسق - وأمتنى شهيداً - بكهيعص - » .

ثم لف جسده فى بارية ، وصب عليه النفط وأحرق ، وحمل رماده على رأس منارة لتنسفه الريح ، وفى السادس والعشرين من ذى القعدة سنة تسع وثلاثمائة هـ ٢٦ مارس ٩٢٢م .

ونصب رأسه يومين على الجسر ببغداد ، ثم طيف به فى خراسان ، ثم أخذته ام الخليفة المقتدر ، فحنطته وعطرته ، وأبقته فى خزائنها عاماً كاملا» .

(١) مرآة الزمان ، للسبط ابن الجوزى
(٢) أخبار الحلاج طبع باريس ص ٢٤

مشاهد روحية

ويروى ماسنيون : «(1) أن الشبلى رأى الحلاج فى المنام بعد قتله فقال له :

مافعل الله بك ؟ قال : أنزلنى وأكرمنى ، قال : فى أى محل ؟ قال : قد غفر لكلتا الطائفتين ، المشفقين على ، والمعادين لى ، فأما من أشفق على فلأنه عرفنى ، فأشفق على لله ، وأمامن عادانى ، فلأنه لم يعرفنى ، فعادانى لله أيضاً ، فهما معذورون !!» .

وتروى المخطوطات الصوفية : «(2) أن أخته ظلت تبكى عليه أمداً ، ثم نامت ذات ليلة ، فرأت فى المنام أخاها حسينا ، وهو يقول لها :

يا أختى إلى كم تبكين على . . ؟ فقالت له : كيف لا أبكى وقد جرى عليك الذى جرى . ؟ فقال لها :

يا أختى لما قطعوا يدى ورجلى كان قلبى مشغولا بالمحبة ، فلم أدر إلا هى طيبة .

فلما صلبونى كنت مشاهداً ربى ، فلم أدر مافعلوا بى . . فلما أحرقونى نزلت على ملائكة ربى من السماء ، صباح الوجوه ، فاختطفونى إلى تحت العرش ، وإذا بالنداء من العلى الأعلى : ياحسين رحم الله من عرف قدره ، وكتم سره ، وحفظ أمره فقلت :

أردت التعجيل إلى رؤيتك فقال : تملأ بالنظر ، فإنى لا أحتجب عنك .

يا أختى إذا كنت فى رياض وبساتين ، وأثمار وأنهار ، هل يطلب أحد بدل ذلك العمار ، هذا الخراب ؟ قالت : لا ، قال : كذلك أرى » .

---

(1) شخصيات قلقة فى الإسلام ص ٧٧ — ٧٨

(2) مخطوطات صوفية نشر ماسنيون . باريس

بين محي الدين والحلاج

ويحدثنا العلامة المناوى ، عن مشهد روحى بين الحلاج والشيخ الأكبر محي الدين بن عربى .

فقد سأل محي الدين ، الحلاج فى عالم الروح قائلا : « لماذا تركت بيتك يخرب . ؟

فتبسم الحلاج وقال :

« لما استطالت عليه أيدى الأكوان ، حين أخليته ، وخلفت هارون فى قومى ، استضعفوه لغيبتى ، فأجمعوا على تخريبه ، فلما هدموا من قواعده ما هدموا ، وكنت قد فنيت ، رددت إليه بعد الفناء ، فأشرفت عليه ، وقد حلت به المثولات ، فأنفته نفسى ، وقلت : لا أعمر بيتا تحكمت فيه الأكوان ، فانقبضت عن دخوله ، فقيل : مات الحلاج ؟ والحلاج ما مات ، ولكن البيت خرب ، والساكن ارتحل[1] » .

وهو مشهد روحى يلقى بالأضواء على حياة الحلاج ، وعلى أسرار مصرعه .

فمحي الدين يعاتب الحلاج ، على أنه قد كشف من الأسرار الروحية ، ما مكن خصومه من دمه ، كما يعاتبه أيضا على أنه استسلم لمصرعه ، ولم يحاول النجاة منه .

والحلاج فى إجابته ، يروى قصته كاملة ، فهو يتحدث عن سيره فى الطريق المضىء إلى الله ، ورحلته الروحية على أجنحة الحب والوجد ،

---

(١) الكواكب الدرية ج٢

من الأكوان إلى المكون سبحانه . لقد حاول فى تجربة روحيه فذة أن يصل إلى مرتبة الفناء الكامل .

الفناء عن نفسه ، وعن كونه ، ليبقى فى عالم النور والمشاهدة ، وليظفر بمقام الإنسان الربانى ، الذى يكون الله جل جلاله ، هو سمعه وبصره ويده ولسانه وحركاته وسكناته .

وبذلك يذوق مذاقا من القرب ، أو مذاقا من الحب ، يفنى بشريته ، فيحقق بهذا الفناء ، وثبة بالإنسان إلى أعلى أفق يتطلع إليه ، أفق القرب ، إلى أبعد حدود القرب ، بين العبد والرب ، والحلاج هو أجرأ وأقوى ، من حاول هذه التجربة فى عالم التصوف .

ثم يقول الحلاج :

إنه فى جهاده الروحى ، لم يستطع أن يتخلص تماما من جسده ، ومن العلاقات التى للكون على هذا الجسد .

فرحل بروحه إلى الله ، وترك العقل أو بقية منه ، ليخلفه فى تدبير هذا الجسد ، كما رحل موسى عليه السلام إلى الله ، وترك هارون فى قومه ليخلفه فيهم .

وهنا تحكمت الأكوان فى جسده لغيبته عنه ، واستضعفوا خليفته ، فأدى ذلك إلى تقويضه .

ولما كان الحلاج قد فنى عن نفسه ، وبقى بربه ، رد بحكم البقاء بعد الفناء إلى البيت — الجسد — ، فلما وجد أن الأكوان قد تحكمت فيه وحلت به المثولات ، أنفته نفسه ، ومن ثم ، زهد هذه الحياة ، فزهدته الحياة ، فكان العذاب ، وكان القتل أبشع ما يكون القتل .

وانقبض الحلاج عن دخول البيت . وقيل مات الحلاج . . ؟ وما مات الحلاج . ؟ ولكن البيت خرب . والساكن ارتحل . ارتحل إلى البقاء والخلود :

فى أعقاب المصرع

وفى أعقاب المصرع انطلق خيال بغداد ، ليضفى على البطل الشهيد، نسيجا أسطوريا من أنسجة القداسة والخلود .

وإن لم يتسق هذا النسيج الموشى مع الحقيقة ، فإنه ليرشد ويومىء ، إلى صور من الحب والإجلال خفق بها قلب بغداد ، وهى تبكى بطلها الشهيد.

يقول ابن خلكان[1] وجعل أصحابه يعدون أنفسهم برجوعه بعد أربعين يوما ..

واتفق أن دجلة زادت فى تلك السنة زيادة وافرة ، فادعى أصحابه ، أن ذلك بسبب إلقاء رماده فيها » .

ويقول ابن كثير : «[2] وادعى بعض أصحابه أنه لم يقتل . وإنما ألقى شبهه على عدو له . . . »

ثم أخذ تلاميذ الحلاج ، يكونون فى الخفاء جماعات روحية حلاجية ، تتدارس تعاليمه ، وتحافظ على تراثه ، وتحاول جاهدة أن تبقى ذكراه حية نامية فى ضمير التاريخ، متحدية فى ثبات ، وفى فدائية ، الخلافة العباسية، بكل مالها من سلطان ساحق ونفوذ لا يقاوم .

---

(١) وفيات الأعيان جـ١ ص ٤٠٧

(٢) البداية والنهاية جـ ١١ .

سر المأساة !؟

ذلك مصرع الحلاج ، وتلك مأساته !! ويوم المصرع عندى ، هو نقطة الإنطلاق فى حياة الحلاج ، وهو سر خلوده وسحره التاريخى .

وإن كانت آراء الحلاج ، قد اختلف الناس فيها وتجادلوا ، وأطالوا الإختلاف والجدال ، فإن بطولة الحلاج وثباته الأسطورى المعجز ، وإيمانه الصاعد فى يوم مصرعه ليرسم صورة بطولة خالدة متألقة ، أعلى من أن يتجادل الناس فيها أو يختلفوا .

ومن أراد أن يحلق حول شخصية الحـــلاج ، ويلمس إيمانه وحبه ، وعقيدته ورسالته ، فليبحث عن هذه المعانى الشامخة فى يوم مصرعه ، وليلتمسها على آلة صلبه وعذابه .

إن هذه البطولة الخارقة ، وهذا الثبات المعجز ، وهذا الإيمان الأعلى إنها مذاقات ومقامات ، لا تفاض إلا على الصديقين والشهداء من أصحاب المبادىء والرسالات .

إنها مواقف ليست من عقائد الأرض ولا من شهواتها ، إنها من إيمانيات السماء ووحيها .

وما كان لأبناء الدنيا ، وأصحاب الهوى فى آفاقها ، أن يثبتوا ثبات الحلاج ، وأن يصمدوا لما صمد له .

وما أحسب أن تاريخ البشرية الطويل العريض ، ضم بين صحفه وأحداثه ، إيماناً وثباتاً تحت هول العذاب الصاعق ، كثبات الحلاج وصبره وفدائيته وبطولته .

إن يوم المصرع ، هو عنوان الحلاج وتاريخه ، وعنده يلتمس علماء

النفس ، وأساتذة الفكر ، شخصية الحلاج ومقامه فى أروقة الخالدين ، من المجاهدين المؤمنين .

إن يوم المصرع ، هو يوم النصر للحلاج ، ويوم الهزيمة الكبرى للخلافة العباسية ، بكل ما تمثله وتصوره فى تلك الحقبة من التاريخ .

لقد هزم الحلاج الخلافة العباسية ، فى حياته وفى استشهاده ، وفى حركة التاريخ وضميره ، من بعد حياته واستشهاده .

لقد حرقت جسده وأحالته رماداً ، ثم نثرت هذا الرماد فى أقطار السماء تريد له الفناء ، فكتب له البقاء .

البقاء الحى أشد ما تكون الحياة ، وأعصى ما تكون هذه الحياة على الزوال والفناء .

لقد أطلقت الخلافة حول سيرته سرادقاً من نار ودخان ، ثم أطلقت المنادين يأمرون الناس ، أن يحرقوا آثاره ، وان لا يبيعوا كتبه ، وأن يمحوها من الوجود ، وأطلقت من وراء هذا وذاك ، الإقلام المأجورة تملأ كتب التاريخ إفكا وزوراً .

وعجز كل هذا الدخان والضباب ، والتزوير والإفتراء ، عن أن يحجب عن عين التاريخ وذاكرته وصحفه البرق المتلألىء من أسطورة البطل الشهيد ، والسنا المتألق من تراث المعارف المحب .

يقول المستشرق نيكلسون «[1] قتل الحلاج وأحرقت رفاته كما تنبأ ، وعبثت برماد جسده الرياح العاصفة والمياه الجارية ، ولكن بقيت آراؤه من بعده تعمل عملها ، خلال العصور الوسطى جميعها ، وتحاول أن تحيا حياة جديدة .

وإننا لنتبين قوة هذا الرجل ، وحيويته الروحية ، من الأثر العظيم الذى كان له فى نفوس الأجيال التى أعقبته» .

---

(١) فى التصوف الإسلامى وتاريخه : ص ١٣٢

لقد أعجز الحلاج الخلافة العباسية ، حياً ومصلوباً وشهيداً ، وأحدث أثراً خالداً فى التاريخ .

حتى التهم البغيضة الغليظة ، التى قذفوا بها الحلاج يوم المحاكمة ، أخذت تتساقط سطراً فسطراً ، لتفسح الطريق لوجه الفجر الصادق ، يمحو بنوره كل فجر كاذب ، وكل ادعاء فاجر .

لتفسح الطريق للحقيقة ، الـــكامنة وراء المأساة الدامية ، فلم تكن الخلافة العباسية ، لتصب كل هذا الهول الفاجر على الحلاج ، لشطحه الصوفى ؟ أو لمروقه الإلحادى ؟ أو لقوله — أنا الحق ؟ — كما حاولت أن تكره الشهود ، وأن تكره القضاة ، وأن تكره التاريخ ، على هذا البهتان والتزوير .

بل صبت هذا الهول الغليظ الفاجر ، دفاعاً عن نفسها ، وعن وجودها . وعما تمثله ويمثله وجودها ، من شهوات وفجور ، وفساد واستغلال ، ومحاربة للدين والإيمان .

كانت محاكمة سياسية ، وكان قتلا سياسياً ، لبس زوراً ثوب الدين ، وتقنع كذباً بقداسته وحمايته .

يقول المستشرق ماسنيون : «فلولا أن الحلاج قد زج بنفسه ، فى التيارات السياسية المضطربة فى عصره ، واتصل بالسياسة ورجالها ، لما حدث له ما حدث ، من تعذيب وصلب ، وما كانت الإتهامات الدينية ، إلا اتهامات رسمية ، لتكون تكأة يستند إليها السلطان » .

ويقول العلامة آدم متز : « (١) وأغلب ما انتهى إلينا من أخبار الحلاج ، إنما ذكره خصومه ، ويؤخذ من هذه الأخبار بوضوح ، أن الحلاج قد أثر فى كبراء أهل بغداد ، تأثيراً قوياً نادر المثال ، ويدل على عظيم شأنه ، أن كلا من الذهبى وابن الجوزى ، كتب عنه كتاباً خاصاً .

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ٢ ص ٤٣

ولكن يظهر أن هذين الكتابين ، قد فقدا مع الأسف ، ولم ينل هذا الشرف — أعنى تخصيص كتاب فى حياة رجل — إلا العدد القليل بين رجال الإسلام ».

وكما لمس رجال الإستشراق سر المأساة الحلاجية ، وأنها مأساة سياسية لا دينية ، لمس هذا السر أيضاً بعض رجال التاريخ الإسلامى من قدامى ومحدثين ، لمسوه رغم الجهود الهائلة ، التى بذلتها الخلافة العباسية ، لتشويه تاريخه ، وتزوير أحداثه ، وتمزيق تراثه .

فابن النديم : يعلل المأساة بأن الحلاج ، كان على اتصال بالرضا من آل محمد (١)

وابن خلكان : يفسرها بصلات الحلاج بالقرامطة وبالعلويين ، وبتهديده للخلافة القائمة (٢)

وأما صاحب ظهر الإسلام ، فيفسح صفحات للمأساة ، متهماً الخلافة العباسية بالتزوير والإفتراء .

يقول الأستاذ أحمد أمين : « (٣) والظاهر من كل هذا أن الرجل والمرأة اللذين شهدا على الحلاج ، كان موعزاً إليهما بالشهادة ، وأن القضاة تلكأوا فى الحكم عليه ، فاستعجلهم الوزير حامد ! ؟

ثم يقول : ويظهر أن أكبر تهمة وجهت إليه ، هو أنه من شيعة أهل البيت ، الذين يريدون أن ينحوا الخلفاء العباسيين ومن إليهم ، ويوسعوا دائرة خلافة أهل البيت ، فانتشرت دعوتهم فى العراق وخراسان وجزيرة العرب وغير ذلك ! .

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٦٩
(٢) وفيات الأعيان ج ٦ ص ٢٠٨
(٣) ظهر الاسلام ج ٢ ص ٧٥ — ٧٦

ثم يقول : فنعتقد أن هذا سر قتله لا غير ذلك ، فدعوة كهذه نقض مضاجع خلفاء بنى العباس ووزرائهم ، فلا يبعد أن يكون الخليفة العباسى ووزيره حامد ، قد رتبا هذه المؤامرة ضده ، وزوروا الشهود ، واستحثا القضاة على قتله ، وإلا فما بالهم قد تركوا الصوفية الآخرين ، كالجنيد ، وأبى يزيد البسطامى ، وذى النون المصرى ، من غير قتل ، فهى مسألة سياسية بحتة ، اتخذت شكلا دينياً ، لعلمهم أن الدين أفعل فى الشعوب من السياسة .

فكم من صوفية ادعوا وحدة الوجود ، فلم يلتفت إليهم ، وتركوا وشأنهم !

ومما لفت عامة المسلمين إليه ، ما تواتر عن الحلاج من إتيانه بالأعاجيب ، فيظهر أنه كان له قدرة كبعض الأشخاص اليوم ، على استحضار ما يريده من الأشياء من أماكنها ، كالذهب ، والمسك ، والفاكهة ، وأنه كان له قدرة على التنويم المغناطيسى ، وقدرة أخرى كيماوية بهر الناس بها لجهلهم بالكيمياء .

وعلى العموم ، فهو شخصية قوية كشخصية ذى النون وأشد منها ، كان له أثر كبير فى المسلمين » .

ذلك ضمير التاريخ ، أو ذلك بعض ضميره .

معوثات الحلاج

بين السحر والكرامة ؟ ؟

الآن وقد مضى بنا القلم طويلا حول الحلاج السياسى ، وصراعه مع الخلافة العباسية ، ومصرعه البطولى الدامى ! !

الآن آن لنا ، أن نعود إلى الحلاج الصوفى ، لنواصل دراسته . ولنحيا مع حبه ووجده وأشواقه ، وتحليقاته فى الأحوال والمقامات الروحية ، وما حققه فى تجربته الصوفية ، من فتوحات ووثبات ، فى عالم المشاهدة والمعرفة .

ولا بد لنا ، قبل أن نحيا مع الحلاج فى تجربته ، من أن ندير الحديث حول نقطة فى تاريخه ، لا تزال غامضة محيرة ، يكثر حولها الجدل والحوار .

تلك هى المغوثات الحلاجية ، التى كانت سمة من سماته ، وطابعاً عرف به فى حياته ، من بداية أمره حتى يوم مأساته .

ولقد امتلأت حقائب التاريخ الصوفى ، وغيره من تاريخ الرجال والطبقات بالحديث عن عجائب الحلاج وخوارقه ، واختلف الناس فى أمرها ، ودندنوا طويلا حولها .

نسبها قوم إلى السحر والنيرنج والشعوذة ، والبراعة فى الطب والكيمياء والقدرة على تسخير الجن ! !

وآمن بها آخرون على أنها كرامات وآيات ، تدل على صدقه وولايته ، ومقامه وإيمانه .

يقول صاحب تاريخ بغداد : «[1] اختلف الناس فى أمره ، فقال قوم . ساحر ؟ وقال قوم : مجنون ؟ وقال قوم : له الكرامات ، وإجابة الدعوات » .

وأصدقاء الحلاج وخصـــومه ، قد أجمعوا جميعاً على حدوث هذه الخوارق ، فابن كثير ، وابن خلكان ، والخطيب البغدادى ، وابن النديم ، من رجال التاريخ العام ، والشعرانى والمناوى والسلمى ، من مؤرخى الطبقات الصوفية ، قد أجمعوا على أنه كان يخرج فاكهة الشتاء فى الصيف ، وفاكهة الصيف فى الشتاء ، ويمد يده فى الهواء فيعيدها مملوءة دراهم ، قد كتب عليها — قل هو الله أحد — ويسميها دراهم القدرة ، ويخبر الناس بما أكلوا ، وما صنعوا فى بيوتهم ، ويتكلم بما فى ضمائرهم ؟ ؟

كما تحدثوا عن قدرته على شفاء المرضى ، بالرقية حيناً ، وبقراءة القرآن أحياناً ، بل تحدثوا عن إحيائه للموتى ، كما حدث لببغاء ولى عهد الخلافة العباسية ؟ ؟

حتى اسمه دارت الكرامة والخارقة حوله ، يقول أبو عبد الله السلمى «[2] إنما سمى الحلاج لأنه دخل مدينة واسط فتقدم إلى حلاج وبعثه فى شغل له ، فقال له الحلاج : أنا مشغول بصنعتى ؟ فقال : اذهب أنت فى شغلى ، حتى أعينك فى شغلك ؟ فذهب الرجل ، فلما رجع وجد كل قطعة فى حانوته محلوجة ، فسمى بذلك الحلاج » .

ويقول ابن كثير : «[3] ويقال : أنه أشار بالمرور فامتاز الحب عن القطن » .

(١) تاريخ بغداد ج٨
(٢) طبقات الصوفية
(٣) البداية والنهاية ج١١ ص ١٣٣

ويقول ابن خلكان : « [1] كان يتكلم فى ابتداء أمره من قبل أن ينسب إليه مانسب من الأسرار ، فيكشف عن أسرار المريدين ويخبر عنها ، فسمى بذلك حلاج الأسرار ، فغلب عليه إسم الحلاج »

وكتب الطبقات الصوفية تموج موجاً بكرامات الحلاج وعجائبه، وترويها بلغة اليقين الذى لا يدنو منه الشك ؟ .

يقول الحلوانى : « [2] كنت مع الحلاج وثلاثة من تلاميذه ، فى قافلة من واسط إلى بغداد ، وكان الحلاج يتكلم ، فجرى فى كلامه ، حديث الحلاوة ، فقلنا : على الشيخ الحلاوة ؟ فرفع رأسه وقال :

يا من لم تصل إليه الضمائر ، ولم تمسه شبه الظنون والخواطر ، وهو المتراثى عن كل هيكل وصورة ، من غير مماسة ومزاج ، وأنت المتجلى عن كل أحد ، والمتحلى بالأزل والأبد ، لا توجد إلا عند البأس ، ولا تظهر إلا حال الإلتباس ، إن كان لقربى عندك قيمة ، ولإعراضى لديك عن الخلق مزية ، فائتنا بحلاوة يرتضيها أصحابى ؟

ثم مال عن الطريق مقدار ميل ، فرأينا هناك قطعاً من الحلاوة الملونة ، فأكلنا ولم يأكل منها ، فلما استوفينا ورجعنا ، خطر ببالى سوء ظن بحاله ، وكنت لا أقطع النظر عن ذلك المكان ، وحافظته أحوط ما يحافظ مثله .

ثم عدلت عن الطريق للطهارة وهم ذاهبون ، ورجعت إلى المكان ، فلم أر شيئاً فصليت ركعتين وقلت :

اللهم خلصنى من هذه التهمة الدنية ، فهتف بى هاتف : يا هذا أكلتم

---

(١) وفيات الأعيان

(٢) أخبار الحلاج ص ٢٢ .

الحلاوة ، وتطلب الشك . ؟ أحسن ظنك ، فما هذا الشيخ إلا ملك الدنيا والآخرة » .

ويروى فريد الدين العطار : «[1] أن الحلاج رسم على حائط السجن، صورة مركب ثم أمر المسجونين بأن يركبوا فيها ، وأن يذكروا إسم الله سبحانه ؟ فلما فعلوا ، غابوا عن الحبس « ونجوا جميعاً » .

ويحدثنا الشيخ الأكبر محي الدين عربي فى الفتوحات ، وحجة الإسلام الغزالى فى الإحياء ، أن الحلاج كان يدخل فى بيت له يسميه — بيت العظمة — وكان يتطور فينتفش وينتفخ حتى يملأ هذا البيت ؟؟

أما كتب التاريخ العام ، فتروى عجائب الحلاج ، ثم تحاول فى أثناء روايتها ، أن تعللها متدخلة فى الرواية حيناً ، وملقية بالشك عليها أحياناً .

« . يروى مسعود بن ناصر قال : سمعت أبا يعقوب النهر جورى يقول[2] :

دخل الحسين بن منصور مكة ومعه أربعمائة رجل ، فأخذ كل شيخ من شيوخ الصوفية جماعة ، قال : وكان فى سفرته الأولى كنت آمر من يخدمه ، قال : فى هذه الكرة أمرت المشايخ وتشفعت إليهم ليحملوا عنه الجمع العظيم .

قال : فلما كان وقت المغرب جئت إليه ، وقلت له : قد أمسينا فقم بنا حتى نفطر ، فقال تأكل : على أبى قبيس ؟ فأخذنا ما أردنا من الطعام وصعدنا إلى أبى قبيس ، وقعدنا للأكل ، فلما فرغنا من الأكل ،

(١) تذكرة الاولياء ج ١

(٢) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٥ — ١٢٦

قال الحسين بن منصور ، لم نأ كل شيئاً حلوا ، فقلت: أليس قد أ كلنا التمر؟ فقال : أريد شيئا قد مسته النار ! .

فقال وأخذ ركوته وغاب عنا ساعة ، ثم رجع ومعه جام حلواء ، فوضعه بين أيدينا وقال : بسم الله ، فأخذ القوم يأ كلون ، وأنا أقول مع نفسي ، قد أخذ في الصنعة التي نسبها إليه عمرو بن عثمان ! .

قال : فأخذت منه قطعة ونزلت الوادي ، ودرت على الحلاويين أريهم ذلك الحلواء وأسألهم هل يعرفون من يتخذ هذا بمكة ؟ فما عرفوه ، حتى حمل إلى جارية طباخة فعرفته وقالت : لا يعمل هذا إلا بزبيد ، فذهبت إلى حاج زبيد — وكان لي فيه صديق — وأريته الحلواء فعرفه ، وقال : يعمل هذا عندنا إلا أنه لا يمكن حمله ، فلا أدري كيف حمل ، وأمرت حتى حمل إليه الجام . وتشفعت إليه ليتعرف الخبر بزبيد . هل ضاع لأحد من الحلاويين جام . علامته كذا وكذا . فرجع الزبيدي إلى زبيد.

« وإذ أنه حمل من دكان إنسان حلاوي . نصح عندي أن الرجل مخدوم ! ! » .

وأبو يعقوب النهرجوري راوي القصة . من الصوفية الذين خاصموا الحلاج ، خصومة مرة عنيفة . ومن الذين أثاروا حوله الصيحات المرعدة. واتهموه بالسحر والشعوذة ! .

ونمشي مع الجانب المخاصم للحلاج خطوة أخرى . لنستمع إلى شاهد آخر . يروي قصة ثانية نسبها إلى مجهول ، أسماه بالمنجم .

وهي قصة كما يقول راويها . لم تذكر في حياة الحلاج . وإنما ذكرت بعد مصرعه ! .

يقول : صاحب تاريخ بغداد « حدثنا على بن أبى على . حـدثنى أبى
قال : أخبرنى أبو بكر محمد بن إسحاق بن إبراهيم الشاهد الأهوازى قال :
أخبرنى فلان المنجم — وأسماه ووصفه بالحذق والفراهة — قال : بلغنى
خبر الحـلاج وما كان يفعله من إظهار تلك العجائب التى يدعى أنها
معجزات ، فقلت أمضى وأنظر من أى جنس هى من المخاريق ، فجئته
كأنى مسترشد فى الدين ، فخاطبنى وخاطبته ثم قال لى : تشه الساعة
ما شئت حتى أجيئك به ! وكنا فى بعض بلدان الجبل التى لا يكون فيها
الأنهار ، فقلت له : أريد سمكا طرياً فى الحيـاة الساعة ! فقال : افعل ،
إجلس مكانك فجلست ، وقام فقال : أدخل البيت وأدعو الله أن يبعث
لك به .

قال : فدخل بيتاً حيالى وغلق بابه ، وأبطأ ساعة طويلة ثم جاءنى وقد
خاض وحلا إلى ركبتيه وماء ، ومعه سمكة تضطرب كبيرة ، فقلت
له : ما هذا ؟ فقال : دعوت الله فأمرنى أن أقصد البطائح وأجيئك
بهذه ، فمضيت إلى البطائح ، فخطت الأهواز ، فهذا الطين منها حتى
أخذت هذه !

فعلمت أنها حيلة ، فقلت له : تدعنى أدخل البيت فإن لم ينكشف لى
حيلة فيه آمنت بك ، فقال : شأنك ، فدخلت البيت وغلقته على نفسى
فلم أجد فيه طريقاً ولا حيلة ، فندمت وقلت : إن وجدت فيه حيلة
فكشفتها ، لم آمن أن يقتلنى فى الدار ، وإن لم أجد طالبنى بتصديقه ،
كيف أعمل ؟

قال وفكرت فى البيت فرفعت تأزيره — وكان مؤزراً بإزار ساج —
فإذا بعض التأزير فارغاً ، فحركت جسريه منه خمنت عليها ، فإذا هى قد
انقلقت . فدخلت فيها فإذا هى باب ممر . فولجت فيه إلى دار كبيرة . فيها

---

(١) ج ٨ ص ١٢٣ .

بستان عظيم ، فيه صنوف الأشجار والثمار ، والريحان والأنوار ، التي هي وقتها ، وما ليس هو وقته ، مما قد غطي وعتق ، واحتيل في بقائه ، وإذا الخزائن مفتوحة فيها أنواع الأطعمة المفروغ منها ، والحوائج لما يعمل في الحال إذا طلب ، وإذا بركة كبيرة في الدار فخضتها فإذا هي مملوءة سمكاً كباراً وصغاراً ، فاصطدت واحدة كبيرة وخرجت ، فإذا رجلي قد صارت بالوحل والماء إلى حد ما رأيت رجله !

فقلت : الآن إن خرجت ورأى هذا معي قتلني ، فقلت : احتال عليه في الخروج ، فلما رجعت إلى البيت أقبلت أقول : آمنت وصدقت فقال لي : مالك ؟ قلت : ما ها هنا حيلة ، وليس إلا التصديق بك ، قال : فاخرج فخرجت ، وقد بعد عن الباب ، وتموه عليه قولي ، فحين خرجت أقبلت أعدو أطلب باب الدار ، ورأى السمكة معي ، فقصدني وعلم أني قد عرفت حيلته ، فأقبل يعدو خلفي فلحقني ، فضربت بالسمكة صدره ووجهه ، وقلت له : أتعبتني حتى مضيت إلى البحر ، فاستخرجت لك هذه منه ! !

قال : واشتغل بصدره وبعينه وما لحقهما من السمكة ، وخرجت فلما صرت خارج الدار طرحت نفسي مستلقياً لما لحقني من الجزع والفزع ، فخرج إلي وضاحكني وقال : أدخل ، فقلت : هيهات والله لئن دخلت لا تتركني أخرج أبداً ، فقال : اسمع ، والله لئن شئت قتلك على فراشك لأفعلن ! ولأن سمعت بهذه الحكاية لأقتلنك ، ولو كنت في تخوم الأرض ، وما دام خبرها مستوراً . فأنت آمن على نفسك . امض الآن حيث شئت ، وتركني ودخل ، فعلمت انه يقدر على ذلك ، بأن يدس أحد من يطيعه ويعتقد فيه ما يعتقده فيقتلني ، فما حكيت الحكاية إلى أن قتل ! ! » .

وقصة ثالثة ، يبدو فيها الراوية ، متهكماً ماجناً ساخراً من كل القيم الإنسانية .

يقول صاحب تاريخ بغداد[1] « أخبرنا على أبن بى على عن أبى الحسن أحمد بن يوسف الأزرق : أن الحسين بن منصور الحلاج ، لما قدم بغداد يدعو ، استغوى كثيرا من الناس والرؤساء ، وكان طمعه فى الرافضة أقوى لدخوله من طريقهم .

فراسل أبا سهل بن نوبخت يستغويه . وكان أبو سهل من بينهم مثقفاً فهماً فطناً ، فقال ابو سهل لرسوله : هذه المعجزات التى يظهرها قد تأتى فيها الحيل . ولكن أنا رجل غزل . ولا لذة لى أ كبر من النساء وخلوتى بهن . وأنا مبتلى بالصلع . حتى أنى أطول قحفى وآخذ به إلى جبينى وأشده بالعمامة . وأحتال فيه بحيل . ومبتلى بالخضاب لستر المشيب . فإن جعل لى شعرا ورد لحيتى سوداء بلا خضاب . آمنت بما يدعونى إليه كائنا ما كان ! .

إن شاء قلت : إنه باب الإمام ! وإن شاء الإمام ! وإن شاء قلت إنه النبى . وإن شاء قلت : إنه الله ! .

قال فلما سمع الحلاج جوابه آيس منه ، وكف عنه . قال أبو الحسن : وكان الحلاج يدعو كل قوم إلى شىء من هذه الأشياء التى ذكرها أبو سهل ! » .

ثم يقول : « وأخبرنى جماعة من أصحابنا أنه لما افتتن الناس بالأهواز وكورها بالحلاج : وما يخرجه لهم من الأطعمة والأشربة فى غير حينها . والدراهم التى سماها دراهم القدرة . حدثت أبو على الجبائى بذلك . فقال لهم : هذه الأشياء محفوظة فى منازل يمكن الحيل فيها . ولكن أدخلوه بيتا من بيوتكم لا من منزله هو . وكلفوه بأن يخرج منه جزرتين فإن فعل فصدقوه .

---

(1) ج ٨ ص ١٢٤-١١٢٥-١٢٦

فبلغ الحلاج قوله . وأن قوما قد عملوا على ذلك . فخرج عن الأهواز ! » .

وتمضى قصص الخصوم هادفة مجرحة . يصعد بها الرواة إلى راوى أخير . لا يذكر اسمه . وإنما يذكر نعته . وهو أنه من الثقاة ! .

يقول الخطيب البغدادى[1] : « أنبأنا على بن أبى على المعدل عن أبى الحسن أحمد بن يوسف الأزرق ، قال : حدثنى غير واحد من الثقات من أصحابنا : أن الحسين بن منصور الحلاج ، كان قد أنفذ أحد أصحابه إلى بلد من بلدان الجبل ، وافقه على حيلة يعملها ، فخرج الرجل فأقام عندهم سنين يظهر النسك والعبادة ، ويقرأ القرآن ويصوم ، فغلب على البلد حتى إذا علم بأنه قد تمكن أظهر أنه قد عمى ، فكان يقاد إلى مسجده ، ويتعامى عن كل أحد شهورا .

ثم أظهر أنه قد زمن ، فكان يحبو ويحمل إلى المسجد حتى مضت سنة على ذلك ، وتقرر فى النفوس زمانته وعماه ، فقال لهم بعد ذلك : نى رأيت فى النوم كأن النبى صلى الله عليه وسلم يقول لى : إنه يطرق هذا البلد عبد صالح مجاب الدعاء ، يكون عافيتك على يده وبدعائه ، فاطلبوا إلى كل من يجتاز من الفقراء ، أو من الصوفية ، فلعل الله أن يفرج عنى على يد ذلك العبد وبدعائه ، كما وعدنى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فتعلقت النفوس إلى ورود العبد الصالح ، وتطلعته القلوب ، ومضى الأجل الذى كان بينه وبين الحلاج ، فقدم البلد فلبس الثياب الصوف الرقاق ، وتفرد فى الجامع بالدعاء والصلاة ، وتنبهوا على خبره ، فقالوا

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٨ ص ١١٢ ـ ١٢٣

للأعمى ، فقال : احملونى إليه فلما حصل عنده وعلم أنه الحلاج ، قال له : يا عبد الله إنى رأيت فى المنام كيت وكيت ، فتدعوا الله لى ، فقال : ومن أنا وما محلى ؟ فما زال به حتى دعا له ثم مسح يده عليه ، فقام المتزامن صحيحاً مبصراً ! فانقلب البلد وكذا الناس على الحلاج ، فتركهم وخرج من البلد ، وأقام المتعامى المتزامن فيه شهوراً ، ثم قال لهم : إن من حق نعمة الله عندى ، ورده جوارحى علىّ أن انفرد بالعبادة انفراداً أكثر من هذا ، وأن يكون مقامى فى الثغر . وقد عملت على الخروج إلى طرسوس ، فمن كانت له حاجة تحملتها ، وإلا فأنا أستودعكم الله ، قال : فأخرج هذا ألف درهم فأعطاه ، وقال أغزيها عنى ، وأعطاه هذا مائة دينار ، وقال . أخرج بها غزاة من هناك وأعطاه هذا مالا ، وهذا مالا ، حتى اجتمع ألوف دنانير ودراهم ، فلحق بالحلاج فقاسمه عليها ! » .

ولا يكتفى خصوم الحلاج بهذا ، بل يضعون على لسانه ، كلمات يتهم فيها نفسه ، بأنه يتعلم السحر ، ولماذا يتعلمه ، ليدعو به الخلق إلى الله !

يقول صاحب تاريخ بغداد(1) « سمعت على بن أحمد الحاسب قال . سمعت والدى يقول : وجهنى المعتضد إلى الهند لأمور أتعرفها ليقف عليها ، وكان معى بالسفينة رجل يعرف بالحسين بن منصور ، وكان حسن العشرة طيب الصحبة ، فلما خرجنا من المركب ونحن على الساحل ، والحمالون ينقلون الثياب من المركب إلى الشط ، فقلت له : إيش جئت إلى هناك ؟ قال : جئت لأتعلم السحر ، وأدعو الخلق إلى الله تعالى .

قال : وكان على الشط كوخ وفيه شيخ كبير ، فسأل الحسين بن منصور هل عندكم من يعرف شيئاً من السحر ؟ قال : فأخرج الشيخ كبة غزل ، وناول طرفه الحسين بن منصور ، ثم رمى الكبة فى الهواء ، فصارت طاقة

---

(1) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٠ .

واحدة ، ثم صعد عليها ونزل ، وقال للحسين بن منصور : مثل هذا تريد ؟ ثم فارقني ولم أره بعد ذلك إلا ببغداد » .

ويقول أيضاً(١) : « .. أنبأنا إسماعيل بن أحمد الحيرى قال : قال المزين : رأيت الحسين بن منصور في بعض أسفاره فقلت له : إلى أين ؟ فقال : إلى الهند أتعلم السحر ، أدعو به الخلق إلى الله عز وجل ! » .

يقول الأستاذ عبد الحكيم حسان : « (٢) يحمل على تكذيبهما أنهما مما روى بعد محنة الحلاج ، ومما يرجح ذلك أن الراوى الأول ، وهو والدعلى ابن أحمد الحاجب ، كان موظفاً في قصر المعتضد ، ومركزه يحتم عليه نصرة المذهب السنى الذى يعمل القصر والحكومة على حمايته ، وأن الراوى الثانى ، هو أبو الحسن على بن محمد المزين ، وهو من خصوم الحلاج » .

حتى الروايات التاريخية ، التى تنطق بصدق الحلاج وترفعه ، ونفوره عما ينسب إليه من الخوارق ، يحاول الرواة إرضاء للسياسة العامة ، أن يعقبوا عليها بكلمات الشك والتجريح ! !

يقول الخطيب البغدادى(٣) : « أنبأنا على بن أبى على البصرى ، أخبرنى أبى قال : حدثنى أبو الحسن محمد بن عمر القاضى ، قال : حملنى خالى معه إلى الحسين بن منصور الحلاج ، وهو إذ ذاك فى جامع البصرة يتعبد ويتصرف ويقرأ ، قبل أن يدعى تلك الجهالات ويدخل فى ذلك ، وكان أمره إذ ذاك مستوراً ، إلا أن الصوفية تدعى له المعجزات من طريق التصوف ، وما يسمونه مغوثات ، لا من طريق المذاهب .

قال : فأخذ خالى يحادثه وأنا صبى جالس معهما أسمع ما يجرى ، فقال لخالى : قد عملت على الخروج من البصرة « فقال له خالى : لم ؟ قال : قد

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٠ .

(٢) التصوف فى الشعر العربى ١٤١ .

(٣) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١١٩ — ١٢٠ .

ضير لى أهل هذا البلد حديثاً ، فقد ضاق صدرى وأريد أبعد منهم ، فقال له مثل ماذا ؟ قال : يرونى أفعل أشياء فلا يسألونى عنها ، ولا يكشفونها ، فيعلمون أنها ليست كما وقع لهم ، ويخرجون فيقولون : الحلاج مجاب الدعوة وله مغوثات ، قد تمت على يده ألطاف ، ومن أنا حتى يكون لى هـــذا ؟ بحسبك أن رجلا حمل إلى منذ أيام دراهم وقال لى : اصرفها إلى الفقراء فلم يكن يحضرنى فى الحال احد ، فجعلتها تحت بارية من بوارى الجامع إلى جنب أسطوانة عرفتها ، وجلست طويلا فلم يجئنى أحد ، فانصرفت إلى منزلى وبت ليلتى ، فلما كان من غد جئت إلى الأسطوانة وجعلت أصلى ، فاحتف بى قوم من الفقراء ، فقطعت الصلاة وشلت البارية فأعطيتهم تلك الدراهم ، فشنعوا على بأن قالوا . إنى اذا ضربت يدى إلى التراب ، صار فى يدى دراهم ، قال وأخذ يعدد مثل هذا ، فقام خالى عنه وودعه ولم يعد إليه وقال: هذا ممنمس وسيكون له بعد هذا شأن . فما مضى إلا قليل حتى خرج من البصرة وظهر أمره » .

يقول طاهر بن أحمد التسترى : «[1] تعجبت من أمر الحلاج ، فلم أزل أتتبع وأطلب الحيل ، وأتعلم النيرنجات لأقف على ما هو عليه ! فدخلت عليه يوماً من الأيام ، وسلمت وجلست ساعة ، ثم قال لى :

يا طاهر لا تتمن ، فإن الذى تراه وتسمعه من فعل الأشخاص لا من فعلى ، لا تظن أنه كرامة ، أو شعوذة ؟ فصح عندى أنه كما يقول :

ويقول أبو العباس الرزاز : « قلت لأبى العباس بن عطاء : ما تقول فى الحسين بن منصور ؟ فقال : ذاك مخدوم من الجن ؟ قال فلما كان بعد سنة ، سألته عنه ، فقال : ذاك من حق ؟ فقلت له :

قد سألتك عنه قبل هذا فقلت : مخدوم من الجن ، وأنت الآن تقول

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٦ .

هذا ! فقال : نعم ، ليس كل من صحبنا يبقى معنا ، فيمكننا أن نشرفه على الأحوال ! وسألت عنه وأنت فى بدء أمرك ، وأما الآن وقد تأكد الحال بيننا ، فالأمر فيه ما سمعت[1] » .

وأبو العباس بن عطاء ، يزيد الأمر غموضاً وإبهاماً ، فيجعل من عجائب الحلاج ، أو من كراماته سراً يجب أن يصان ، وأن يضن به على غير أهله .

ومصرع الحلاج أيضاً ، تحيط به الخوارق أو الكرامات ، كما يتحدث الرواة ، فجسده يبقى ساعات حياً بعد قطع رأسه ؟ ودمه يخط على الأرض .. لا إله إلا الله !

وعندى أن أروع خوارق الحلاج أو كراماته ، هى فدائيته وبطولته الصادرة فى إيمان عميق ، وثبات رهيب ، وصبر معجز ، أمام هول من العذاب لا يحتمله بشر !

لم يضعف ، ولم يهن ، ولم يتراجع ، ولم يغفل لسانه أو قلبه ، لحظة أو سانحة عن ذكر الله ، والتغنى بحبه .

والحلاج بعد هذا من أصحاب الرياضات والمجاهدات ، بل هو قمة شامخة فى المجاهدات والرياضات الروحية ، حمل نفسه فيها على الصعب الأشق ، وهى طريق ينبت دائماً ، هذه الخوارق ، أو هذه الكرامات .

والخارقة أو الكرامة ، من الأمور التى يكاد الإجماع ينعقد على جوازها للصفوة الممتازة المختارة ، من المؤمنين البررة ، يجريها الله سبحانه على أيديهم ، تثبيتاً لهم ، أو إظهاراً لمقامهم ، فضلا منه سبحانه وكرماً .

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ١٢٠

والصوفية يجعلون الكرامة ، من طبيعة حياتهم الروحية المضيئة ، ويقولون أن الولاية لم يدعها فى الإسلام سواهم ، وهى آية صدقهم وتقواهم .

ولكن الصوفية مع هذا لا يكبرون من شأن الكرامة ، ولا يعتزون بالخارقة ، بل يرونها من أنواع الإبتلاء ، وأن الوقوف معها من علامات النقص .

والكرامة الكبرى عندهم ، هى ترقيهم فى معارج الكمال الخلقى والروحى ، وثباتهم فى هذه المعارج ، وتذوقهم لها ، مع حفظ جوارحهم وقلوبهم وألسنتهم حفظاً ربانياً ، هو علامة الرضا ، وآية القبول ، ودليل الكرامة الأعلى .

يقول سهل بن عبد الله التسترى : « أكبر الكرامات ، أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاق نفسك بخلق محمود » .

ويقول أبو القاسم الجنيد : « إن الإتكال على الكرامات أحد الحجب التى تمنع المختار من النفوذ إلى صومعة الحق المحجبة » .

ويقول أبو الحسن الخرقانى : « الكرامات أول مراحل ألف فى الطريق إلى الله . » .

الحلاج والحب الالهى

مفتاح شخصية الحلاج هو حبه الإلهى ، فهو سمته وطابعه ، وهو الذى شكل ملامحه الروحية ، وكون معارفه الذوقية ، وهو معراجه الذى صعد عليه ، مستهدفاً الوصول إلى شيء يدق على التعبير ، ويسمو على التصور والتصوير ، إلى الفناء فى المحبوب الأسمى ، فناء يمنحه الخلود والبقاء ، ويضفى عليه بهاء الرجل الإلهى .

عاش الحلاج بالحب وللحب ، فهو قوته الروحى ، وغذاؤه القلبى ، وهو ملهب أشواقه ، ومبدع مواجيده ، ومطلق ألحانه . وهو أفقه الفسيح المتلألىء ، الذى تترقرق فيه الأنوار ، وتتجلى فيه الأسرار .

والحب هو التصوف ، والتصوف هو الحب ، ولقد حاول رجال المنهج الصوفى ، قديما وحديثاً أن يعرفوا التصوف ، فابتدعوا وابتكروا كلمات مضيئة ، تعبر عن الأخلاق ، وعن الزهد ، وعن التسامى ، وعن العبادة ، ولكنها عندى جميعها إنما تعبر تعبيراً جزئياً لا يصور المنهج الصوفى ، ولا يحيط به .

فالتصوف فى جوهره ، هو الصلة الدائمة اليقظة الحية بالله ، هو محاولة تجريبية لعودة الإنســـــان ، بكل جزئية فى كيانه الروحى ، إلى مبدعه ومولاه .

هو إيقاظ عين القلب ، لتتفتح بكل طاقاتها التى أودعها الله فيها ، لتكون مبصرة فى عالم المشـاهدة ، فترى الله فى كل شيء ، ومع كل شيء ، وقبل كل شيء .

والصوفى فى تجربته الكبرى ، مسافر فى ملكوت السماء والأرض ، يسلك طريقاً روحياً تتوالى فيه وتتتابع ، الأحوال والمقامات ، بإلهاماتها وأذواقها ومعارفها ، حتى يصل من المقام الأول . مقام التوبة ، إلى المقام الأعلى ، مقام الفناء بالله والبقاء به ، ليغدوا ربانياً سمعه بالله ، وبصره بالله ، وكل ما يصدر عنه ، وينبثق منه ، ويتحرك فيه ، إنما هو لله وبالله

وبراقه الصاعد ، ومفراجه ودليله وهاديه فى طريقه . هو حبه لربه ، ذلك الحب الذى يحرق فيـــه ، كل ما هو ترابى ، ليبقى كل ما هو روحى ربانى .

ذلك الحب الذى يغسل قلبه من الدنيا ، ويطلق كنوز روحه العليا ، ويمنحه مذاقات الأندلس والقرب ، وما إلى الأنس والقرب ، من هبات التجربة الصوفية وعطاياها .

ذلك الحب ، هو عنوان التصوف ، وهو البذرة الأم ، التى نمت منها أغصانه ، وانبثق زهره ، وأينع ثمره .

وقد جعل الصوفية من هذا الحب ، فلسفة تحيط بكل شىء فى الكون ، وتمتد أجنحتها إلى كل أفق الحياة .

فلسفة تمسح من وجه الكون الكبير قناعه المادى ، لتحيل الكون جميعه إلى أرواح حساسة عابدة مسبحة ، لأنها بالحب خلقت ، وبالحب قامت ، وبالحب تسبح وتهتف .

ثم تمشى إلى الأخلاق الإنسانية ، فتنفخ فيها من روح الله ، وتسمو بها إلى هداه ورضاه .

يقول جلال الدين الرومى ، شاعر التصوف الفارسى : « الحب دواء كبريائنا ، وغرورنا بأنفسنا ، وهو الطبيب لضعفنا كله ، ومن استعار

الحب ثوبه ، برىء أصالة من كل إثرته[1] » .

وعلى قدر محبة الصوفى لربه، تكون محبته لعباده ولكونه ، بكل ما فيه، وبكل ما ينطوى عليه .

والحب الإلهى ، يضفى على الكون الجمال المطلق : الله نور السموات والأرض ؛ ويضفى على أحداث الحياة الرضا ، فكل شيء جميل ، لأنه من قضاء الله ، ومن إرادته ، وقضاء الحبيب حبيب .

والحب كما يقول الصوفية : هو سكر المشاهدة ، وشجاعة الباذل ، وإيمان الولى ، والأصل الأصيل للتحقق الخلق ، والإدراك الروحى ، هو نبذ النفس وتضحيتها ، والتخلى عن كل مملوك من مال أو جاه ، أو إرادة أو حياة ، وعن كل ما يضن به الناس ، لوجه المحبوب ، دون تفكير فى جزاء[2] » .

والحب الإلهى هو المصدر الحقيقى ، الذى استمدت منه الموجودات وجودها ، وهو سبيل المعرفة العليا ، فإذا فنيت النفس عن أوصافها بالحب انكشفت لها الأسرار ، ورفعت عنها الأستار .

يقول المستشرق جولدزيهر : «[3] فمحبة الله هى إذن خلاصة ما انتهى إليه هذا المجهود المركز الذى بذلته أرواح الصوفيين لكى يفنى خيال الوجود الشخصى ، فى حقيقة الكائن الإلهى ، الشاملة لكل شيء، وقد أنتجت هذه الفكرة فى كافة لغات الأمم الإسلامية الراقية ، أدباً شعرياً يعد فى مرتبة الدرر الفريدة فى الأدب العالمى ، وهذه الفكرة العامة كانت أساساً فلسفياً كافياً . لأن يدعم حياة النسك والتصوف » :

---

(١) الصوفية فى الإسلام لنيكلسون . ترجمة شريبة . ص ١٠٨

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٠٤

(٣) العقيدة والشريعة فى الاسلام ص١٥٦

والحب الإلهي شرعة عامة للناس جميعاً . إنما هو هبة الله للصفوة المختارة التي سبق له منها الحسنى .

قيل لمعروف الكرخي : «أخبرنا عن المحبة أي شيء هي؟ قال : يا أخي ليس المحبة من تعليم الناس ، المحبة من تعليم الحبيب[١]» .

ويقول أبو اليزيد البسطامي : « توهمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه . فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري ومعرفته سبقت معرفتي . ومحبته أقدم من محبتي . وطلبه لي أولا حتى طلبته[٢]» .

ويقول الإمام الغزالي : «[٣] إن لله تعالى شراباً يسقيه في الليل قلوب أحبائه ، فإذا شربوا طارت قلوبهم في الملكوت الأعلى ، حباً لله تعالى وشوقاً إليه » .

وسئل أبو سعيد الخراز عن المحبة فقال : « طوبى لمن شرب كأساً من محبته ، وذاق نعيما من مناجاة الجليل وقربه ، بما وجد من اللذات بحبه ، فملىء قلبه حباً ، وطار بالله طرباً ، وهام به اشتياقاً ، فيا له من وامق سف بربه ، كلف دنف ، ليس له سكن غيره ، ولا مألوف سواه[٤]» .

ويقول أبو القاسم الجنيد : « سألني السري السقطي يوماً عن المحبة ؟ فقلت : هي الموافقة ، وقال قوم : الإيثار ، فأخذ السري جلدة ذراعه ومدها فلم تمتد ! ! ثم قال : وعزته تعالى لو قلت : إن هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقت ، ثم غشي عليه » .

ويقول جلال الدين الرومي عن الحب : « هو الكحل الذي تكتحل به عين القلب فيتجلى بصرها[٥]» .

---

(١) قوت القلوب للمكي ج ٣ ص ١٠٠

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٨٩

(٣) إحياء علوم الدين باب المحبة

(٤) اللمع لأبي نصر السراج الطوسي : طبع القاهرة

(٥) المثنوي لجلال الدين : طبع طهران .

والحب فى منطق الصوفية ، هو أسمى العبادات وأزكاها . وهو معراج المعرفة . وبراق القرب يقول فريد الدين العطار : « ما لم أتجه بقلبى إليك أعد صلاتى غير جديرة بأن تعد صلاة » .

ويقول الشبلى : « لأن تحس أنك واحد مع الله خير من عبادة الناس جميعاً . من بدء الدنيا إلى غايتها » .

والحب الإلهى فى التصوف الإسلامى . يدين للحلاج دينا كبيراً . فقد ترك فى المحبة وما يتصل بها . ويدور حولها . ثروة خصبة حية غدت مادة الصوفية فى هذا المنهج . ودستورهم المتلألىء فى هذا الأفق .

بل يرى ماسنيون : أن الحلاج هو الشخصية الكاملة التى تمثل أصدق تمثيل أسمى ما وصل إليه الحب الإلهى . فى التصوف الإسلامى .

ويقول نيكلسون : «لقد نمت على يد الحلاج أكبر حركة تطور فى تاريخ التصوف. فهو المبتكر الأول للمصطلحات الصوفية. التى وسعت آفاق التصوف وهو الذى جعل من الحب الإلهى فلسفة كاملة . ومنهجا متماسكا . وأن كل من جاء بعده إنما كان ينسج ويقلد » .

ويقول الأستاذ عبد الحكيم حسان . متحدثا عن نمو التصوف وتطوره . من الزهد إلى المحبة : «[2] أما حين انتهى أمر الحب الإلهى إلى الحلاج . فإنه اتخذ شكلا قويا لما رتب عليه الحلاج من مذاهب صوفية كثيرة .

فقد تكلم صراحة فى اتحاد المحب بالمحبوب. اتحاداً يزيل صفة البشرية

(١) فى التصوف الإسلامى وتاريخه

(٢) التصوف فى الشعر العربى ص ٢٩٢

عن المحب . باستبداله بصفاته صفات الله عز وجل . وصحب هذا كلام فى اللاهوت والناسوت لأول مرة فى تاريخ التصوف .

كما استتبع كلامه فى الحب الإلهى ، كلاما آخر فى ـ النور المحمدى ـ لأن من أحب الله ، فقد أحب حبيبه محمداً . وانتهى به كلامه فى الحب إلى القول بوحدة الأديان .

وهكذا ترك الحلاج فى الحب الإلهى وما يتصل به ، ثورة ضخمة من بين منظوم ومنثور » .

ويقول المستشرق بروان : «كان ظهور الحلاج إيذانا ببــــدء مرحلة جديدة فى التصوف الإسلامى نثره وشعره على السواء . خاصة فى الحب الإلهى » .

ولا جدال فى أن أخذ صفات الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى ، هى الصفات التى كتبها الحلاج نثراً ونظماً . كتبها بذوب قلبه . وبقطرات روحه . وبأشد حرقة ووجد . عرفا عن محب أفنى وجوده وكيانه وروحه فى محبوبه الأسمى .

يقول الحلاج : «حقيقة المحبة . قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك والاتصال بأوصافه » .

لقد استهدف الحلاج بحبه الفناء الكامل . ليخرج من بشرية صفاته ، إلى بهاء التخلى بأوصاف القدس الأعلى .

استهدف الإرتفاع بالبشرية . إلى مرتبة الحقيقة الربانية التى يكمن وراء سترها المقدس سر الوجود . وسر الخلق .

فالخلق أصلا برز من عالم الغيب بالحب ، وخلق بالحب ، وتشكلت حقائقه وصفاته بالحب . ومن هنا أصبح الحب هو سر الكون ؟

وبهذا الحب وحده يمكن الإنسان أن يتصل بالحقيقة العليا ، وبالمعرفة العليا ، وأخيراً يمكنه به أن يحقق فى ذاته الإنسان الكامل : الإنسان الذى يتخلى عن ترابيته ، ليتحلى ببهاء الرجل الربانى ، الذى يعيش فى فيض من نور ربه وحبه .

يقول الحلاج :

«كان الله قبل أن يخلق خلقه ، يتحدث إلى نفسه فى أحديته ، حديثاً حمدياً ، وهو يتأمل روعة ماهيته ، وتأمله لذاته فى بساطة ، هو الحب .

والحب فى ماهيته ، هو ماهية الماهية ، وهو فوق كل تشكل بأشكال الصفات ، وهكذا يحب الله ذاته فى انفراده بحمد ذاته ، ويتجلى فى الحب .

وعن هذا التجلى الأول للحب ، فى المطلق الإلهى ، ظهرت صفاته وأسماؤه .

فبالحب تجلى لنفسه فى نفسه ، فلما أحب أن يرى ذلك الحب بعيداً عن الغيرية والثنوية فى صورة ظاهرة ، أخرج من العدم صورة لها جميع صفاته وأسمائه ، فكانت هذه الصورة الإلهية آدم الذى تجلى الحق فيه[1] .

وهذا ارتفاع بالإنسان والإنسانية ، تنبثق منه فلسفة إيمانية ربانية ، هى الفلسفة التى شكلت أبدع وأضوأ جوانب الحياة الروحية ، فى تاريخ التصوف الإسلامى .

ومن هنا كانت نظرية الحلاج ، التى اعتنقها الصوفية جميعاً ، تلك النظرية التى جعلت الحب ، والحب وحده هو المعراج الموصل لمعرفة الله .

يقول الحلاج : « لاسبيل إلىمعرفة الله بالعلم ، بل إن الحب هو الطريق إليها ، إذ ليست المعرفة الفكرية للقضاء الإلهى هى التى تقربنا من الله ، بل إنما هو خضوع القلب للأمر الإلهى فى كل لحظة » .

ومن هنا يقول الحلاج : « ما من أحد يعبد الله بفعل ، يكون أحب إلى الله من حبه تعالى » .

وقد عبد الحلاج ربه سبحانه بهذا الحب ، عبادة حارة مضيئة أحاطت بحياته ، وبثت فيها مذاقات وإلهامات ، وعرضت على عين قلبه صوراً

---

(١) طاسين الازل .

من التجليات والمشاهدات ، جعلته فى شوقه ووجده يحس إحساساً روحياً بأنه مع من يحب ، بل يحس إحساساً لا شعورياً فى حيرته وذهوله ، أن بشريته قد احترقت وفنيت فى هذا المحبوب الأسمى .

يقول ما سنيون : «[1] وليس هناك من متصوف أكثر عشرة مع الله يتصل فى حديثه معه — أنا وأنت ونحن — دون إشارة إلى رموز الحب البشرى ، من الحلاج .

ثم يقول : « وليس هناك من شعر صوفى أشد حرارة ، وأكثر بعداً عن المادة من شعر الحلاج » .

يقول الحلاج[2] :

تباركت مشيئتك ياربى وسيدى
تباركت مشيئتك ياقصدى ومرادى
يا ذات وجودى وغاية رغبتى
يا حديثى وإيمانى ورمزى
ياكل كلى ياسمعى ويا بصرى
يا جميعى وعنصرى وأجزائى

لقد فنى الحلاج عن كل شىء ، وأعرض عن كل شىء ، واستغرقه حبه لربه ، استغراقاً جعله يحس بأن هذا الحب ، قد ملأ وجوده وقلبه وروحه .

إنه ليحب بكل ذرة من ذرات جسده ، وبكل طاقة من طاقات روحه ، حتى لم يعد كيانه كله ، إلا حباً وتجلياً لمولاه وحبيبه .

---

(١) مقدمه الطواسين طبع باريس
(٢) الصوفيه فى الاسلام ص ١٥٠

حويتُ بكلي كلّ حبك ياقدسي تكاشفني حتى كأنك نفسي
اقلب قلبي في سواك فلا أرى سوى وحشتي منه ومنك به أنسي
فهل أنا في حب الحياةُ بمجمع
من الأنس فاقبضني إليك من الحبس[1]

ثم يقول[1] :

مكانك من قلبي هو القلب كلُّه فليس لخلق في مكانك موضع
وحطتك روحي بين جلدي وأعظمي فكيف تراني إن فقدتك أصنع

ثم ينف في ضراعة باكية[2] :

ياموضع الناظر من ناظري ويا مكان السر من خاطري
يا جملة الكل التي كلها أحبّ من بعضي ومن سائري
تراك ترثى للذي قلبه معلق في مخلبي طائر
مدله حيران مستوحش يهرب من قفر إلى آخر
يسرى وما يدرى وأسراره تسرى كلمح البارق الثائر
كسرعة الوهم لمن وهمه على دقيق الغامض الغابر
في لج بحر الفكر تجرى به لطائف من قدرة القادر

والحلاج لا يكتم حبه ، فأطيب الحب وأعذبه ما سار الحديث به ، وتناقلته الرواة .

الحب مادام مكتوماً على خطر وغاية الأمن أن تدنو من الحذر
وأطيب الحب ما نم الحديث به كالنار لم تؤت نفعاً وهي في الحجر
من بعد ما حضر الأحباب واجتمع الـ أعداء واختط إسمى صاحب الخبر

---

(١) ديوان الحلاج المقطوعه رقم ٣٠
(٢) » » » ٣
(٣) » »

أرجو لنفسى برءاً من محبتكم إذا تبرأت من سمعى ومن بصرى[1]

وهو قلق فى حبه ، تتقاذفه أمواج الوجد والشوق ، إلى محيطات ليس لها شط .

ما زلت أطفو فى بحار الهوى يرفعنى الموج وأنحط
فتارة يرفعنى موجها وتارة أهوى وأنغط
حتى إذا صيرنى فى الهوى إلى مكان ماله شط
ناديت يا من لم أبح باسمه ولم أخنه فى الهوى قط
تقيك نفسى السوء من حاكم ما كان هذا بيننا شرط[2]

والحلاج فى حبه يخاطب محبوبه الأسمى مواجهة ، يقول ما سنيون : « إن أسلوب الحلاج فى الحب ، أسلوب مجرد من المظاهر المادية ، فهو لا يستعمل الطريقه الرمزية — ليلى ، لبنى — التى تتخذ شكلا من أشكال الحب الدنيوى .

سكنت قلبى وفيه منك أسرار فليهنك الدار بل فليهنك الجار
ما فيه غيرك من سر علمت به فانظر بعينك هل فى الدار ديار
وليلة الهجران طالت وإن قصرت فمؤنسى أملى فيها وتذكار
إنى لراض بما يرضيك من تلفى يا قاتلى ولما تختار أختار[3]

ثم يوغل الحلاج فى حبه ، وفى قربه ، وفى طاعته . وفى أنسه بربه ، حتى يكون الله سبحانه ، بصره وسمعه ، ويده وبدنه ، فيهتف فى نشوة وجده ، وحرقة فنائه :

لبيك لبيك ياسرئى ونجوائى لبيك لبيك يا قصدى ومعنائى

---

(١) ديوان الحلاج مقطوعة ٢٤
(٢) « « « ٣٤
(٣) « « « ٢٣

أدعوك بل أنت تدعونى إليك فهل ... ناديتُ إياك أم ناجيت إيائى
يا عين عين وجودى يا مدى همى ... يا منطقى وعباراتى وإعيائى
يا كل كلى ويا سمعى ويا بصرى ... يا جملتى وتباعيضى وأجزائى
يامن به علقت روحى فقد تلفت ... وجداً فصرت رهيناً تحت أهوائى
أبكى على شجنى من فرقتى وطنى ... طوعاً ويسعدنى بالنوح أعدائى
أدنو فيبعدنى خوفى فيقلقنى ... شوق تمكن فى مكنون أحشائى
فكيف أصنع فى حب كلفت به ... مولاى قد مل من سقمى أطبائى
قالوا تداو به منه فقلت لهم ... ياقوم هل يتداوى الداء بالدائى
حبى لمولاى أضنانى وأسقمنى ... فكيف أشكو إلى مولاى مولائى
إنى لا أرمقه والقلب يعرفه ... فما يترجم عنه غير إيمائى
ياويح روحى من روحى فوا أسفى ... علىَّ منى فإنى أصل بلوائى
كأننى غرق تبـــدو أنامله ... تغوثا وهو فى بحر من الماء
وليس يعلم ما لاقيت من أحد ... إلا الذى حل منى فى سويدائى
يا غاية المسئول والمأمول ياسكنى ... يا عيش روحى يا دينى ودنيائى
قل لى فديتك ياسمعى ويا بصرى ... لماذا اللجاجة فى بعدى وإقصائى
إن كنت بالغيب عن عينى محتجباً ... فالقلب يرعاك فى الإبعاد والنائى(1)

ويمشى خطوات على لهيب وجده المقدس ، معتزاً فخوراً بتحليقاته التى عجزت عنها أجنحة المحبين من قبل .

لقد وسم الحب قلبه بميسم الشوق العنيف الجبار ، حتى غاب عن شهود ذاته ، لقد استغرقته أنوار يرى معها سواها :

وخضت فى لج بحر فكرى ... أمر فيـــه كمر سهم
وطار قلبى بريش شوق ... مركب فى جناح عزمى

(1) ديوان الحلاج المقطوعة رقم 1

إلى الذى إن سئلت عنه رمزت رمزاً ولم أسمى
حتى إذا جزت كل حد فى فلوات الدنو أهمى
نظرت إذ ذاك فى سجال فما تجاوزت حد رسمى
فجئت مستسلماً إليه حد قيادى بكف سلمى
قد وسم منه الحب قلبى بميسم الشوق أى وسم
وغاب عنى شهود ذاتى بالقرب حتى نسيت اسمى(١)

وحب الحلاج هو كل آماله وأحلامه ، هو دينه ودنياه . إنه حب قلب أبصر فعشق فاحترق .

كانت لقلبى أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
ما لامنى فيك أحبابى وأعدائى إلا لغفلتهم عن عظم بلوائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بحبك يا دينى ودنيائى
أشعلت فى كبدى نارين واحدة بين الضلوع وأخرى بين أحشائى

ثم يقول مترنماً :

ولا هممت لشرب الماء من عطش إلا رأيت خيالا منك فى الماء
النار أبرد من ثلج على كبدى والسيف ألين من هجران مولائى(٢)

ومن مناجاته :

غبت وما غبت عن ضميرى وصرت فرجتى وسرورى

---

(١) ديوان الحلاج ص ٥٧ طبع باريس
(٢) « « طبع باريس

وانفصل الفصـــل بافتراق فصار في غيبتي حضـــوري
فأنت في سر غيب همى أخفى من الوهم في ضميرى
تؤنسني بالنهـــار حقاً وأنت عنـــد الدجى سميرى[1]

ومن ألحانه :

لى حبيب حبه وسط الحشا لو يشا يمشى على قلبى مشا
روحه روحى وروحى روحه إن يشا شئت وإن شئت يشا[2]

ومن ترنيماته :

مزجت روحك فى روحى كما تمزج الخمـــرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسنى فإذا أنت أنا فى كل حال[3]

ومن مواجيده:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا[4]

وفى لحظات يقظته الروحيه ، يشرح لنا فى أدق عبارة ، وأبين منطق ، حقائق كلماته ، فى سبحاته نشوته ، واحترافات وجده ، ولحظات فنائه عن ذاته .

إنها كلمات من استغراقات المشاهدة ، لاتقصد لذاتها ، وإنما تعبر فى لحظات التجلى ، عن فناء صفاتها فى لهيب وجدها ، فلا ترى فى الكون إلا هو سبحانه .

---

(١) ديوان الحلاج ص ٦١
(٢) « « ص ٦٩
(٣) الطواسين ص ١٣٤
(٤) المصدر السابق

عجبت منـــك ومنى يا منيـــة المتمنى
أدنيتنى منـــك حتى ظننت أنـــك أنى
وغبت فى الوجد حتى أفنيتنى بـــك عنى
يا نعمتى فى حياتى وراحتى بعـــد دفنى
مالى بغـــيرك أنس من حيث خوفى وأمنى[1]

ومنهج الحلاج فى الحب هو العذاب لا اللذة ، هو التضحية ، التضحية الكاملة بالنفس ، وهذه التضحية ، هى أسمى درجات الحب ، لأنها أكبر الآيات على صدق المحب فى حبه .

يقول نيكلسون : «[2] أما الحلاج فيرى أن محبة الله لعباده ورحمته بهم ، فوق كل شىء ، وأن أساس المحبة التضحية ، وأن المحب يجب أن يشقى من أجل محبوبه ، من غير أن يسأل عن الأسباب ، وأن الواجب على أولياء الله أن يتوجهوا إلى الله وحده ويتحققوا بمعنى العبودية الكاملة ويطيعوا أمره مهما كلفهم ذلك من عنت وشقاء» .

ويقول الحلاج : «[3] المحبة لذة ، والحق لا يتلذذ به ، لأن مواضع الحقيقة دهش وحيرة ! !

ثم يقول : محبة العبد لله تعظيم يحل الأسرار ، فلا يستجيز تعظيم سواه ، ومحبة الله للعبد ، هو أن يبليه فلا يصلح لغيره ! ! » .

---

(١) ديوان الحلاج ص ٣٠
(٢) الصوفية فى الإسلام ص ١٣٦
(٣) نفس المصدر ص ١١٠ .

مقام الفناء الصوفى

وشبهات الاتحاد والحلول

وانتهى الحب الإلهى بالصوفية ، إلى ذروة التجربة الروحية ، إلى مقام الفناء . ففنوا فى محبوبهم الأعلى ، فناء لم يشاهدوا خلاله غـــير جمال الحبيب ، وهم فى بحر الفناء الزاخر ، لايحسون بشىء من الموجودات ، لأن الإحساس قد فنى بالنسبة لهذه الموجودات ، واتجه بكليته لمطالعة جمال المحبوب[1].

وبالفناء يفقد الصوفية عالم الناس ، ليعيشوا فى عالم آخر ، هو عالم الجمال المطلق ، والخير المطلق ، والحق المطلق ، وفى عالمهم هذا ، ترفع الأستار عن الأسرار ، وتتجلى لهم الحقائق ، حق اليقين . وعين اليقين .

وهم فى عالمهم هذا ، ليسوا على درجة سواء ، فمنهم من يشاهد الحبيب وهو فى حالة رهبة أو خشية ، ومنهم من يشاهده وهو فى حاله أنس به ، أو مناجاة له .

وقد تزداد درجة القرب ، ثم تزداد حتى يتحدث المحب عن الله بصيغة المتكلم ، فقد غاب عن نفسه ، وعن كونه ، فلم يعد يرى إلا الأول والآخر والظاهر والباطن سبحانه ، أو كما يقول الصوفية : يغدو الـكلام إشارة منه به إليه ! .

يقول معروف الـكرخى : « إذا انفتحت عين بصيرة العارف ، نامت عين بصره « فلا يرى إلا الله » .

---

(١) التصوف فى الشعر العربى ص ٢٩٩

ويقول الحلاج : «من أسكرته أنوار التوحيد ، حجبته عن عبارة التجريد ، بل من أسكرته أنوار التجريد ، نطق عن حقائق التوحيد ، لأن السكران هو الذى ينطق بكل مكتوم» .

ويقول شارح المواقف للنفرى : «أقل علوم القرب — القرب من الله — أنك إذا نظرت إلى أى شخص محسوس أو معقول ، أو غير ذلك فسوف ترى الله فيه رؤية أبين من رؤية الشىء نفسه . والدرجات فى ذلك متفاوتة .

فبعض الصوفية يقولون : إنهم لايرون شيئاً إلا ويرون الله قبله ، وبعضهم يقول : إنهم لايرون شيئاً إلا ويرون الله بعده، وآخرون يقولون: إنهم لايرون شيئاً إلا ويرون الله معه ، ويقول غيرهم : ما رأينا شيئاً غير الله» .

والفناء هو غاية الصوفية ، ففيه يشربون رحيق الحب الأعلى ، وينعمون فيه بمتع ولذائذ روحية ، تنسيهم دنياهم وأخراهم ووجودهم ، وكل شىء سوى المحبوب الأعلى .

والفانى كما يقول الصوفية ، لايحس بما حوله ، ولا يحس بنفسه ، فقد فنى عما سوى الله ، ومن هنا جاء كلام الصوفية الذى لايفهمه ولا يتذوقه سواهم ، حينما يقولون فى نشوة الفناء ، ووقدة الحب ، ليس فى الوجود إلا الله .

والفناء كما يقول الجرجانى : فناءان أحدهما ذوقى ، والآخر خلقى ، فالذوقى هو عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت ، بالإستغراق فى عظمة البارى ومشاهدة الحق .

والخلق ، هو سقوط أوصافه المذمومة ، واستبدالها بالأوصاف المحمودة[1].

ويصف أبو القاسم الجنيد الفناء : بأنه دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب ، أى التخلق بأخلاق الله وصفاته ليكون ربانياً .

ويقول المستشرق نيكلسون : «[2] والصوفية كلها تقوم على القول بأنه إذا فقدت النفس الفردية ، فقد وجدت النفس الكلية ، والجذب يهيء الأسباب التى بها تتصل الروح مباشرة بالله .

والزهد والتطهر من الآثام ، والحب والمعرفة والولاية ، بل جميع الأفكار الأساسية فى الصوفية ، تنبع من هذا الأصل الجامع » .

والفناء كما يقول - الجامى - يتهيأ بجعل القلب واحداً ، وذلك بتطهيره وحبسه عن الاتصال بشىء خلا الله ، سواء فى الإرادة أو العلم أو المعرفة ، ورغبة الصوفى أو إرادته ، لابد أن تصرف صرفاً عن الأشياء جميعاً المرغوب فيها والمراد .

ولا بد كذلك أن تطرد من خياله الواعى ، كل موضوعات العلم والعرفان ، ولا بد أن توجه أفكاره جميعاً إلى الله لاغير ، وألا يذكر معه غيره » .

ويقول العلامة ، زين الدين الخافى : «[3] العبد إذا تخلق ثم يحقق ، ثم جذب ، اضمحلت ذاته ، وذهبت صفاته ، وتخلص من السوى ، فعند ذلك تلوح له بروق الحق بالحق ، فيطلع على كل شىء ، ويرى الله عند كل شىء ، وهذا أول المقامات .

---

(١) التعريفات ص ١١٣

(٢) الصوفية فى الاسلام ص ٦٢ و٦٣

(٣) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩٢

فإذا ترقى عن هذا المقام ، وأشرف على مقام أعلى منه ، وعضده التأييد الإلهى ، أى أن الأشياء كلها فيض وجوده تعالى ، لاعين وجوده ».

ويقول الدكتور عبدالرحمن عزام : «[1] الفناء عند الصوفية هو خلاص الإنسان من نزعاته وأهوائه وإرادته الخاصة ، فيكون كل فكره وعمله لله وبالله .

وبهذا ينبغى أن يفسر ما يقول الصوفية فى الفناء ، إنه ليس بموت ، لأن الذى يسمونه فانياً يعيش على هذه الأرض ، وليس هو حلول الله فى الإنسان ، كما فى بعض النحل » .

ويقول العلامة الهجويرى : (٢)هو درجة كمال يبلغها العارفون ، الذين انتهى بهم الطلب إلى الكشف ، فرأوا كل مرئى ، وسمعوا كل مسموع . وأدركوا كل أسرار القلب ، وأعرضوا عن كل شىء وفنوا فى مقصدهم ، وفنيت فى هذا المقصد ، كل مقاصدهم » .

والصوفية كما يقول المستشرق — جولد زيهر(٣) : « بإبرازهم للمثل الأعلى لكمال النفس الإنسانية ، وتحديدهم للخير الأسمى ، فى هذا المقام ، يزيدون على الفلاسفة خطوة ، ويسبقونهم درجة » .

وكما يقول العلامة ابن سبعين المرسى : « إن الفلاسفة الأقدمين رأوا أن الغاية المثلى هى التشبه بالله ، بينما الصوفية يدأبون على الفناء فى الله ، وذلك بأن يكون الصوفى قابلا لأن يدع السنن الإلهية تغمره وتفيض عليه ، وأن يمحو انفعالات الحواس ، ويظهر مشاعر الروح » .

---

(١) فريد الدين العطار والتصوف ص ١١٢ .
(٢) كشف المحجوب
(٣) العقيدة والشريعة فى الاسلام

والحلاج عند صوفية ما وراء النهر جميعاً ، وعند الكثرة من رجال الإستشراق ، أبرز وأقوى الشخصيات الصوفية ، التي عاشت هذا المقام وتحققت به ، وتذوقت إلهامه ، وكشفت الأستار عن أسراره .

يقول شاعر الإسلام محمد إقبال في حديثه عن تطورات التفكير الديني في الإسلام : «[1] وقد بلغ تطور هذا المقام ذروته في تاريخ الإسلام ، في عبارة الحلاج المشهورة « أنا الحق » ولا مجال للشك في أن الولي الشهيد لم يكن يقصد من عبارته ، أن ينكر على الله صفة التنزيه ، فالحلاج لم يستهدف بكلمته فناء الذات الإنسانية ، واختفاءها في ذات الله ، ولكنه إدراك لحقيقة النفس الإنسانية ، وتأكيد جزئي لدوامها في شخصية أعمق ، بعبارة قوية باقية على الدهر :

ثم يقول : وهذه التجربة في تاريخ الرياضة الدينية في الإسلام ، تجعل الإنسان كما قال الرسول يتخلق بأخلاق الله .

وقد عبر عنها بعبارات مثل — أنا الحق — الحلاج — وأنا الدهر — النبي محمد — وأنا القرآن الناطق — علي بن أبي طالب .

وفي التصوف الإسلامي الرفيع ، ليس معنى أن إرادة الإنسان هي عين إرادة الله ، إن النفس الإنسانية تمحو شخصيتها هي ، بنوع من الإستغراق في الذات غير المتناهية .

بل الأحرى أن الذات غير المتناهية ، تدخل بين أحضان محبها المتناهي وهي حياة وقوة لا حد لها ولا عائق ، تجعل الإنسان قادراً على إقامة الصلوات آمناً مطمئناً ، والرصاص يتساقط من حوله » .

لقد انتهت الرياضة الروحية الرفيعة بالصوفية ، إلى مقام الفناء ، وذاق

---

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام ص ١١٠ — ١١٦ .

الصوفية فى هذا المقام ، بروق التجليات وأنوار الهبات ، ثم تخلوا فيه عن إرادتهم ومشيئتهم وصفاتهم ، ليفنوا فى إرادة الله ومشيئته وصفاته ، ثم ليتخلقوا بأخلاقه .

فخرجوا بذلك من نطاق البشرية الترابية ، إلى أفق الربانية العلوية ، التى تقوم بالله ، وتتكلم بالله، وتتحرك بالله ، ولا ترى فى الكون سواه .

ومن هذا الأفق ، كانت كلماتهم التى عبرت عن الله سبحانه ، بأنه الظاهر فى كل شئ ، فلا وجود فى الحقيقة لغيره.

ومن هذا المقام ومن أفقه ، انطلقت الإتهامات المجنحة قديماً وحديثاً ، تحاول أن تحيل هذا المقام الروحى الإيمانى، إلى ما أسموه ، بالإتحاد والحلول حيناً ، وإلى ما أسموه بوحدة الوجود أحياناً .

وسر الإتهام ، هو عجز الأقلام المادية ، مع علمها ومكانتها ، عن تذوق فلسفة مقام الفناء .

إنها فلسفة تنبع من السفر الصوفى الطويل ، فى الطريق المضىء الصاعد إلى الله .

وهى فلسفة بنيت على تذوق ، وعلى مشاهدة ، وعلى محبة ، فاستعصى فهمها على العقول ، التى لم تتذوق ، ولم تشهد ولم تحب .

يقول المستشرق نيكلسون : « إنه مقام أعلن الذين تمرسوا به أنه فوق التعبير والتصوير ، فهو غاية لطريق تتحرر فيه الروح شيئاً فشيئاً من كل ما هو غير ربانى ، طريق يتلاشى فيه الصوفى عن وجوده الحسى » .

ويقول العلامة الكلاباذى فى التعرف : « مشاهدات القلوب ، ومشاهدات الأسرار ، لا يمكن العبارة عنها على التحقيق ، بل تعلم بالمنازلات والمواجيد ، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال » .

ويقول العلامة القونى فى شرحه للتعرف : « إذا كمل انقطاع العبد إلى الله ، وفناؤه عن فعله أصبح متحدثاً بلسان الحقيقة .

ثم يقول : وأ كثر ما يقع فى كلام هذه الطائفة من الإشارات. محمول على هذا النوع من الإستعارات ومن حملها على ظاهرها ، أشكلت عليه معانيها ، فأساء الظن بهم .

فأحياناً يتكلمون بلسان الحقيقة ، كقول الحلاج : أنا الحق ، وكقول ابن الفارض :

وإن عبد النار المجوس وما انطفت كما جاء فى الأخبار فى ألف حجة
فما عبدوا غيرى وما كان قصدهم سواى وإن لم يضمروا عقد نيتى

وكقول الرسول صلوات الله عليه فى حديث البخارى عن أبى هريرة: « ما لعبدى المؤمن عندى جزاءاً إذا قبضت صفيه من أهـــل الدنيا ثم احتسبه ، إلى الجنة » .

إنما قاله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه ، وإن لم يصرح به ، وقال : وما منا إلا له مقام معلوم : فهذا على لسان الملائكة ، وقال : وما نتنزل إلا بأمر ربك : فهذا على لسان جبريل،وهذا نوع لطيف حررت الـكلام فيه فى الإتقان ، ومثال قول على وفا .

كمالك طاعتى فى كل حال ونقصك أن تعاندنى مرادى

فإن هذا قاله على لسان الحقيقة » .

ويقول الشيخ نجا فى كتابه ــ كشف الأسرار ــ: « ذلك لأنه يشهدك تجلياته بسائر مخلوقاته ، لـكن بغير حلول ولا مماسة ، ولا نوع من أنواع التجسيم والتشبيه ، كما وقع لسيدنا موسى فى تجليه سبحانه على النار ، التى رآها موسى عليه السلام فى جانب الشجرة ، حيث سمع النداء ، إنى أنا الله لا إله إلا أنا » فلم ينكر موسى عليه السلام تجليه سبحانه ، فى النار ، بل آمن وصدق » .

ويقول السهروردى : « [1] فإذا نظر العاشق المسكين إلى نفسه لا يبصر بعد شيئاً ، إذا وجده مملوء بهذا النور ،

---

(١) شخصيات قلقة فى الاسلام ص ١٢٧

هنالك يصيح بأمثال تلك العبارة الوجدانية الإلهية المشهورة التى قالها الحلاج : أنا الحق » .

ويقول الحلاج : « لا يستطيع أحـــد أن يقول أنا على الحقيقة ، إلا الله وحده » .

ويقول العلامة الهجويرى متحدثاً عن مقام الفناء : «[1] إنه توجه الفكر إلى المطلوب ، وقصره عليه ، وهكذا كان شأن مجنون ليلى ، وجه فكره إلى ليلى ، وقصره عليها ، يراها فى كل شىء ، ويرى فيها كل شىء وقد جاء بعضهم إلى صومعة أبى يزيد البسطامى وسأل : أهنا أبو يزيد ؟ فأجابه : أهنا أحد غير الله :

ثم يقتبس عن الحلاج قوله :

تباركت مشيئتك يا ربى وسيدى
تباركت مشيئتك ياقصدى ومرادى
يا ذات وجودى وغاية رغبتى
يا حـــديثى وإيمائى ورمزى
يا جميعى وعنصرى وأجـــزائى

ويحدثنا حجة الإسلام الإمام الغزالى عن التوحيد ومراتبه فى كتابه الأحياء وبعد شرحه للمراتب الأولى الثلاث يقول :

«[2] والرابعة ألا يرى فى الوجود إلا واحداً ، هى مشاهدة الصديقين ، وتسمية للصوفية : الفناء فى التوحيد : لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً ، فلا يرى نفسه أيضاً ، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيـــد ، كان فانياً عن نفسه فى توحيده ، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق ، وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد .

---

(١) الصوفية فى الاسلام ١٤٩

(٢) إحياء علوم الدين ج ٤ ص٢١٢ ، ٢٣١

وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور فى الأسفار ، فقال : لى ماذا أنت ؟ فقال . أدور فى الأسفار ، لأصحح حالى فى التوكل . فقال الحسين : لقد أفنيت عمرك فى عمران باطنك ، فأين الفناء فى التوحيد ؟

فكأن الخواص كان فى تصحيح المقام الثالث فطالبه بالمقام الرابع ، ثم يقول الغزالى :

« العارفون بعد العروج إلى سماء الحقيقة اتفقوا على أنهم لم يروا فى الوجود إلا الواحد الحق ، ولكن منهم من كان له هـــذه الحالة عرفاناً علمياً ، ومنهم من صار له ذوقا وحالا ، وانتفت عنهم الكثرة بالكلية ، واستغرقوا بالفردانية المحضة ، فلم يبق عندهم إلا الله ، فسكروا سكراً وقع دونه سلطان عقولهم ، فقال بعضهم : أنا الحق ، وقال الآخر : سبحانى ما أعظم شأنى . وقال الآخر : ما فى الجبة إلا الله ؟ وكلام العشاق فى حال السكر يطوى ولا يحكى »

ثم يزيد الإمام الغزالى هذه المعانى إيضاحا ، فيعقد فى كتابه معراج السالكين فصلا عن المعراج الرابع عند تفسيره لقوله تعالى : « الله نور السموات والأرض » فيقول :

« (1) فأثبت أن المراد ليس النور الذى كالشعاع ، ولا النور الذى هو مادة ، ولا كنور البصر ، ولا نور الشمس ، ولا نور العقل ، ولا نور العلم ، وإنما هو النور الذى تظهر به الأشياء ، وتقوم به الأشياء ، وتعرف به الأشياء ، وهو نور لا يوصف بالكثافة والتجسيم ، وقد وصف الله تعالى ذلك بأن قال : « نور على نور » .

ويفيض الغزالى فى شرح الآيه الكريمة ، وفى شرح معنى القيومية ،

---

(1) معراج السالكين ص ٧١

ثم يقول : فمن حقق من الصوفية . وعلم وقوف الأشياء عليه ، وأن الأمور لا قوام لها دونه قال : ما فى الجبة إلى الله ، وقال : أنا الحق ، مبالغة فى التوحيد » .

ومن عجب أن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، وهما علما السنة يتحدثان عن مقام الفناء حـــديثاً يتفق ويتسق تماماً مع المنهج الصوفى بألحانه ومواجيده وتعبيراته .

يقول ابن القيم : « (١) الفناء الذى يشير إليه القوم ، ويعملون عليه ، أن تذهب المحدثات فى شهود العبد ، وتغيب فى أفق العدم ، كما كانت قبل ان توجد ، ويبقى الحق تعالى كما لم يزل ، ثم تغيب صورة المشاهد ورسمه أيضاً ، فلا يبقى له صورة ولا رسم ، ثم يغيب شهوده أيضاً فلا يبقى له شهود . ويصير الحق هو الذى يشاهد نفسه بنفسه ، كما كان الأمر قبل إيجاد المكونات ، وحقيقته أن يفنى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل » .

ويقول ابن تيمية : « (٢) وقد يعرض لبعض العارفين فى مقام الفناء والجمع والاصطلام والسكر ، بقوة استيلاء الوجد والذكر عليه ، من الحال ما يغيب فيه عن نفسه وغيره ، فيغيب بمعبوده عن عبادته ، وبمعروفه عن معرفته ، وبمذكوره عن ذكره ، وبموجوده عن وجوده ، ومثل هذا قد يعرض لبعض المحبين لبعض المخلوقين ، كما يذكرون أن رجلا كان يحب آخر ، فألقى المحبوب نفسه فى اليم ، فألقى المحب نفسه خلفه ، فقال له : أنا وقعت فما الذى أوقعك ؟ فقال . غبت بك عنى ، فظننت أنك أنى . وينشدون :

---

(١) مدارج السالكين ج ١ ص ٨٠

(٢) مجموعة رسائل ابن تيمية ص ٤٤ — ٤٦

رق الزجاج ورقت الخمر وتشا كلا فتشابه الأمر
فـــكأنما خمر ولا قدح وكأنمـا قدح ولا خمر

وهذا الحال تعرض لـكثير من السالـكين . ثم يقول : وأما قول الشاعر فى شعره :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

وقوله :

إذا كنت ليلى وليـــلى أنا

فهذا إنما أراد به الشاعر الإتحاد الوضعى ، كاتحاد أحـــد المتحابين بالآخر ، الذى يحب أحدهما ما يحب الآخر ، ويبغض ما يبغضه ، ويقول مثل ما يقول ، ويفعل مثل ما يفعل ، وهو تشابه وتماثل ، لا اتحاد العين بالعين ، إذا كان قد استغرق فى محبوبه ، حتى فنى به عن رؤية نفسه كقول الآخر :

غبت بك عنى فظننت أنك أنى

ثم يقول : « [1] فهذه الحال تعترى كثيراً من أهل المحبة والإرادة فى جانب الحق ، فإنه يغيب بمحبوبه عن حبه ، وعن نفسه ، وبموجوده عن وجوده ، فلا يشعر حينئذ بالتميز ولا بوجوده ، فقد يقول فى هذه الحال : أنا الحق : أو سبحانى ، أو ما فى الجبة إلا الله ، ونحو ذلك ، وهو سكران بوجد المحبة ! » .

ولم أجد فى الدفاع عن الحلاج وتبرئته من تهمة الحلول والإتحاد أبلغ من كلام ابن تيمية خصم الصوفية الـكبير .

---

(١) المصدر السابق ص ٦٤

من هذا المقام الذى جلاه لنا ابن تيمية . كانت ألحان الحلاج .

ومواجيده التى عبر فيها عن صلته بالله ، تعبيرات حارة ملتهبة تضج بوجده ، وتنبض بفناء ذاته ، وتدندن بالقرب الذى يبيح له أن يتكلم بلسان الحقيقة فيهتف :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

ثم يعود إلى لسان بشريته فيترنم :

أنا سر الحق ما الحق أنا   بل أنا حق ففرق بيننا (١)

سأل النهروانى الحلاج أن يفيده بكلمة من التوحيد فقال الحلاج : « إعلم أن العبد إذا وحد ربه تعالى فقد أثبت نفسه ، ومن أثبت نفسه فقد أتى بالشرك الخفى ، وإنما الله تعالى هو الذى وحد نفسه على لسان من شاء من خلقه (٢) » ثم ترنم :

يا سرّ سر يدق حتى   يخفى على وهم كل حىّ
وظاهراً باطناً تجلى   لكل شىء بكل شىّ
إن اعتذارى إليك جهلٌ   وعظم شكى وفرط عىّ
ياجملة الكل لست غيرى   فما اعتذارى إذاً إلىّ ؟

وما أصدق هذا اللحن وأروعه .

وظنوا بى حلولا واتحاداً   وقلبى من سوى التوحيد خال

(١) الطواسين ص ١٨٤
(٢) أخبار الحلاج طبع باريس ص ٥٠

الحلاج والحقيقة المحمدية

ووحدة الأديان

يقول ماسنيون : «[1] إن الحلاج وقف فى مفترق الطرق ، بين عصرين من أهم عصور التصوف ، كان للعصر الأول أثر فى تكوين مذهبه ، كما كان لمذهبه أثر فى توجيه التصوف فى العصر الثانى» .

ولا جدال فى أن الحلاج ، قد وجه خطو الحياة الروحية فى الإسلام ، إلى معارج وآفاق لم تعرفها من قبله ، وكان فى طليعة هذه المعارج والآفاق ، فكرة الحلاج أو نظريته ، عن الحقيقة المحمدية ، أو النور المحمدى .

فلأول مرة فى تاريخ التصوف ، نرى الحب الإلهى عند الحلاج يتجاوز ذات الله سبحانه ، إلى أول مخلوقاته ، وهو نور محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وتنادى النظرية الحلاجية ، بأن للرسول عليه السلام صورتين مختلفتين ، صورته نوراً قديماً كان قبل أن تكون الأكوان ، ومنه يستمد كل علم وعرفان .

وصورته نبياً مرسلا ، وكائناً محدثاً ، تعين وجوده فى زمان ومكان محدودين .

وتجعل النظرية النور المحمدى ، مصدر الخلق جميعاً ، فمنه صدرت الموجودات ، ، ومن نوره ظهرت أنوار النبوات ، وما سائر الأنبياء

---

(١) التصوف الاسلامى وتاريخه لنيكلسون

إلا صور من ذلك النور الأزلى ، وقد كانت الصورة الكاملة فى سدنا محمد خاتم النبيين ، أول خلق الله أجمعين .

وقد عقد الحلاج لشرح هذه النظرية فصلا فى كتابه - الطواسين - أسماه : طاسين السراج : قال فيه .

« طس سراج من نور الغيب بدا وعاد ، وجاوز السراج وساد ، قمر تجلى من بين الأقمار ، برجه فى فلك الأسرار ، سماه الحق - أميا - لجمع همته ، و - حرمياً - لعظم نعته ، و - مكياً - لتمكينه عند قربه .

شرح صدره ، ورفع قدره . وأوجب أمره ، فأظهر بدره ، طلع بدره من غمامة اليمامة ، وأشرقت شمسه من ناحية تهامه ، وأضاء سراجه من معدن الكرامة

ما أخبر إلا عن بصيرته . ولا أمر بسنته إلا عن حق سيرته ، حضر فأحضر ، وأبصر فأخبر ، وأنذر فحدد .

ما أبصره أحد على التحقيق ، سوى الصديق ، لأنه دافعه ، ثم رافعه ، ماعرفه عارف إلا جهل وصفه (والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعملون) .

ثم يقول : أنوار النبوة من نوره برزت « وأنوارهم من نوره ظهرت ، وليس فى الأنوار نور أنور وأظهر من نور صاحب الكرم ، همته سبقت الهمم ، وإسمه سبق القلم ، لأنه كان قبل الأمم .

ثم يقول : العلوم كلها قطرة من بحره ، الحكم كلها غرفة من نهره ، الأزمان كلها ساعة من دهره » .

فرسول الله إذن فى نظرية الحلاج . هو أول تعين من تعينات الذات الإلهية ، وعنه فاضت المخلوقات الأخرى ، فهو أصل الوجود وعماده ، ولولاه ماكان شمس ولا قمر ، ولا نجوم ولا أنهار .

ولو لم يبعث محمد صلوات الله عليه كما يقول الحلاج ، لم تكمل الحجة على جميع الخلق ، وكان يرجو الكفار النجاة من النار » .

وعن الحلاج تطورت هذه النظرية ، على أيدى الصوفية ، حاملة أسماء مختلفة ، مثل الإنسان الكامل ، أو القطب الباز ، ولكن جوهر النظرية ظل كما وضعه الحلاج فى القرن الثالث .

وقد أثرت هذه النظرية فى توجيه المدائح النبوية ، إلى تلك الصور التى تتسق مع هذه النظرية ، فمداح الرسول عليه السلام يستقون كما يقول ماسنيون : من معين الحلاج ، وينسجون على منواله .

ومن المعارج والآفاق ، التى ابتكرها الحلاج وأضافها إلى المعرفة الصوفية قوله بوحدة الأديان .

فهو يرى أن الأديان وجهات نظر إلى حقيقة واحدة ، لأن أهل كل دين قد نظروا إلى الله نظرة تخالف نظر الآخرين ، والجميع ينشدون شيئاً واحدا ، وهم فى ذلك محقون ، لأن الإختلاف لا بد أن يكون اختلافاً فى الأسماء والألقاب ، والمقصود فى الجميع لايختلف .

وقد انبثقت من هذه النظرية ، نظرية حلاجية أخرى فى الجبر ، لأنه نتيجة طبيعية لهذه الوحدة .

فالحلاج يرى أن الله شغل بكل دين طائفة ، لا اختياراً منهم ، بل اختياراً عليهم ، فمن لام أحداً ببطلان ما هو عليه ، فقد حكم بأنه اختار ذلك لنفسه .

والجبر يقتضى الفرق بين الإرادة والأمر ، والحلاج لهذا لا يقسو على إبليس بل يشفق عليه فى رفضه السجود لآدم .

لأن الله سبحانه أراد عدم السجود فى الأزل ، رغم الأمر بالسجود ، وإبليس رأى أن هذا الأمر ظاهرى فقط ، وهو فى حقيقته ابتلاء ! ! والله وحده سبحانه ، هو الحقيق بالسجود له.

يقول الحلاج : « [1] لما قيل لإبليس أسجد لآدم ، خاطب الحق : أرفع شرف السجود عن سرى إلاك حتى أسجد له ؟ إن كنت أمرتنى ، فقد نهيتنى .

قال : فانى أعذبك عذاب الأبد ! ! فقال : ألست ترانى فى عذابك لى ؟ قال : بلى ؟ فقال : فرؤيتك لى تحملنى على رؤيه العذاب ، إفعل لى ما شئت » .

وإبليس عند الحلاج من أهل الفتوة لأنه هدد بالعذاب الخالد فلم يرجع عن دعواه التى آمن بها ! ! ؟

(١) الطواسين ص ١١

عقيدته التوحيدية

مذهب الحلاج فى التوحيد . أن الذات الإلهية وراء الإدراك ، وفوق التصور ، لاينالها البصر ، ولا يدركها الفكر ، وكل مايصف به الناس ربهم ، فانما يصفون به أنفسهم .

والعقل الإنسانى لا يدرك الله سبحانه ، فالوجد وحده هو الذى يدرك الله تعالى ، وجذبة الوجد ، وحرقة الحب ، هما طريق الوصول .

والوجود الحقيقى لله سبحانه ، وهو سبحانه غير محدود ، فلايوجد وجوداً حقيقياً سواه .

وهذا الوجود الظاهر للعالم ، متصل بالله اتصالا يجعل إدراكه بغير إدراك الله متعذراً ! يقول الحلاج : « ما انفصلت البشرية عنه ، ولا اتصلت به » .

والوحدة التى تأتى فى كلمات الحلاج ، ليست من الحلول ، ولا من الإتحاد ولا من وحدة الوجود .

فالحلاج يفرق بين الله والعالم ، ولكنه يرى ، كما يرى الصوفية جميعا أن هذا العالم الظاهر لا وجود له حقاً ، وإنما الوجود الحق لله ، فليس هو العالم ولا العالم هو ، لأن العالم لا وجود له .

فالله سبحانه ليس فى العالم ، ولا العالم خلو منه،ليس محدوداً فيه ، وليس خارجه ، فما العالم إلا تجليه ، فهو فى كل مكان ، وليس فى مكان فى كل جهة وليس له جهة ، أو كما يقول الحلاج فى مواجيده : « أين أنت ؟ وأين مكان لست فيه ؟ » .

ويقول الحلاج وهو من أبلغ الكلم فى جلاء مذهبه التوحيدى :

«(١) الحق تعالى أوجد هذه الهيا كل على رسم العلل . منوطة بالآفات ، فانية فى الحقيقة ، وإنما الأرواح فيها إلى أجل معدود ، وقهرها بالموت . وربطها فى وقت إتمامها بالعجز .

وصفاته تعالى باينة عن هذه الأوصاف من كل الوجوه ، فكيف يجوز أن يظهر الحق فيما أوجده بهذا النقص والعلة ؟ كلا وحاشا ، وثبت أن الحق سبحانه وتعالى ألزم فى كتابه وصف العبودية للخلق أجمع فقال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، وقال : « إن كل ما فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً ، فكيف يجوز أن يحل فيما ألزمه وصف النقص ، وهو العبودية ، فيكون مستعبداً معبوداً ، أيتهم الحلاج بعد ذلك بالحلول ! ! ؟ ؟

قال المزنى : « دخل الحسين بن منصور رحمه الله مكة ، فسئل عن شهادة الذر للحق بالوحدانية وعن التوحيد ، فتكلم فيه حتى نسينا التوحيد ، فقلنا : هذا يليق بالحق ؟ فقال : هذا يليق به ، من حيث رضا به نعتا ، ولا يليق به وصـــفا ولا حقيقة ، كما رضى بشكرنا لنعمه وأنا يليق شكرنا بنعمه » .

ويقول السلمى فى حقائق التفسير . « سئل الحسين بن منصور هل ذكره أحد على الحقيقة فقال :

ليس له دراك ، ولا لغيبه هناك ، له من الأسماء معناها ، والحروف مجراها « إذ الحروف مبدوعة ، والأنفاس مصنوعة ، والحروف قول القائل .

رجع الوصف إلى الوصف ، وعمى العقل عن الفهم ، والفهم عن

---

(١) أصول الملامتية ، وغلطات الصوفية ، للسلمى ص٩٤

لدرك ، والدرك عن الإستنباط ، وانتهى المخلوق إلى مثله »

ويقول مسعود الواسطى : «[1] سمعت الحسين بن منصور ، يقول لإبراهيم بن فاتك ، وأنا أسمع : يا إبراهيم إن الله تعالى لا تحيط به القلوب ، ولا تدركه الأبصار ، ولا تمسكه الأماكن ، ولا تحويه الجهات ، ولا يتصور فى الأوهام ، ولا يتخايل للفكر ، ولا يدخل تحت كيف ، ولا ينعت بالشرح والوصف ، ولا تتحرك ، ولا تسكن ، ولا تتنفس إلا وهو معك ، فانظر كيف تعيش »

ويروى الكلاباذى عن الحلاج قوله : « [2] البادى من المكونات معروف بنفسه بهجوم العقل عليه ، والحق أعز من أن تهجم العقول عليه ، وأنه عرفنا نفسه أنه ربنا فقال : « ألست بربكم » ولم يقل من أنا ، فتهجم العقول عليه حين بدا معرفا ، فلذلك انفرد عن العقول ، وتنزه عن التحصيل غير الإثبات » .

ومن وراء أستار الغيب يقول الحلاج :

هذا وجودى وتصريحى ومعتقدى	هذا توحيد توحيدى وإيمانى
هذا عبارة أهل الانفراد به	ذوى المعانى فى سر وإعلان
هذا وجود وجود الواجدين له	بنى التجانس أصحابى وخلانى

---

(١) أخبار الحلاج ص ٣٢ .
(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٦٥

الحلاج بين أنصاره وخصومه

يقول الإمام الشعرانى : « إن الله سبحانه قد ابتلى هـذه الطائفة — الصوفيه — بالخلق كما ابتلى الأنبياء من قبل بعداوة الناس وخصومتهم » .

ولقد اختص الحلاج وحده فى الأفق الصوفى ، بأكبر قسط من هذا الإبتلاء ، أو هذا الإفتراء .

فلم تختصم الأقلام حول رجل فى الحياة الروحية ، كما اختصمت صاخبة مدوّية ، حول الحلاج وسيرته وعقيدته ؟!

حتى ليقول اليافعى : « الحلاج ثالث ثلاثة ، أحبهم قوم فكفروا بحبهم ، وأبغضهم قوم فكفروا ببغضهم ،والإثنان الآخر ، عيسى بن مريم، وعلى بن أبى طالب » .

وروى العارف زورق عن شيخه النورى ، أنه سئل عنه فقال : اختلف فيه من الكفر إلى القطبانية ، ومن لم يذق ماذاقه القوم . ويجاهد مجاهداتهم ، لا يسعه إلا الإنكار عليهم » .

وجاء فى مطلع كتاب — مفاتيح العيوب ، وتعمير القلوب — : « اعلم أن الحلاج عند محقق العلماء ، مجمع على ولايته ، ومعرفته بربه عز وجل ، وما ينسب إليه من غير هذا كذب وبهتان عليه ، فيجب اعتقاد ولايته وصدقه وأنه ركن من أركان طريق الحق سبحانه ، وإمام من أئمة المسلمين ، ولكنه كان له أعداء أغراهم إبليس به ، فآذوه وافتروا عليه ، ولا تلتفت إلى هذه المخالفات المزورة عليه ، وقد وصفه بالولاية والجمع بين العلم والعمل ، غير واحد من أكابر الأئمة » .

وعن عيسى القزوينى قال : « سألت ابن خفيف ما تعتقد فى الحلاج ؟ قال : أعتقد ولايته ، قلت : قد كفره المشايخ . قال : إن كان الذى رأيت فى الحبس لم يكن توحيداً ، فليس فى الدنيا توحيد » .

ويقول العلامة السلمى : « سمعت إبراهيم بن محمد النصراباذى قد عوتب فى شىء حكى عن الحلاج فى الروح فقال : إن كان بعد النبيين والصديقين موحد ، فهو الحلاج » .

ويقول الشعرانى[1] : « وقد كان الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه يقول : أكره من الفقهاء خصلتين ، قولهم بكفر الحلاج ، وقولهم بموت الخضر عليه السلام ، أما الحلاج فلم يثبت عنه مايوجب القتل ، وما نقل عنه يصح تأويله نحو قوله — على دين الصليب يكون موتى — ومراده أنه يموت على دين نفسه ، فإنه هو الصليب ، وكأنه قال : أنا أموت على دين الإسلام ، وأشار إلى أنه يموت مصلوباً وكذلك كان » .

وقيل للقطب الرفاعى : إن أهل بغداد يقولون : مشايخ العراق كانوا فى زمان الحلاج ، لأنه لما احترق وذرى فى الماء شربوه فصهروا مشايخ وأخذوا بقوله :

وما شرب العشاق إلا بقيتى　　وما وردوا فى الحب إلا على وردى

فقال : لو كان مشايخ العراق مشايخ ، لأخذ السيف جنوبهم ، كما أخذ الحلاج ! ! » .

وذكر الكلاباذى فى التعرف : « أن الخضر عليه السلام عبر على الحلاج وهو مصلوب ، فقال له الحلاج : هذا جزاء أولياء الله ، فقال له الخضر : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت لو طارت منى شرارة لأحرقت مالكاً وناره ؟ » .

---

(١) لطائف المنن ج ٢ ص ٨٤ .

ويروى السلمى : أن بعض أهل الكشف زار قبر الحلاج فرأى نورا ساطعاً من قبره إلى السماء ، فقال : يارب ما الفرق بين قوله « أنا الحق » وبين قول فرعون « أنا ربكم الأعلى » فألهم أن فرعون رأى نفسه وغاب عنا ، وهذا رآنا وغاب عن نفسه » .

ويقول صاحب فصل الخطاب : « الإجماع منعقد عند المشايخ على كون الحسين بن منصور شهيداً » .

ويقول أبو حيان[1] : « وكان شيخ الحنابلة فى عصره أبو الوفا بن عقيل يتعصب للحلاج ويمجده ، وعزلته الخلافة العباسية واضطهدته لذلك » .

ويقول العلامة ابن سبعين عن الحلاج : « إنه ولى وشفيع لا تناقض عنده ، مؤمن بالتوحيد الأول الكلى الذى يتجاوز نطاق الإسلام » .

ويقول الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى فى الفتوحات ، معقباً على كتاب الحلاج — الصيهور والديهور —

« لم أر متحداً أوثق وفتق ، وبربه نطق ، وأقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، وركب طبقاً على طبق مثله ، فإنه نور فى غسق ، منزلة الحق عنده منزلة موسى من التابوت ، ولذلك كان يقول : باللاهوت والناسوت ، وليس هو ممن يقول — العين واحدة — ويحيل الصفة الزائدة .

وأين فاران من الطور ، وأين النار من النور ، والعرض محدود ، والطول ظل ممدود ، والفرض والنقل شاهد ومشهود » .

وقد عقد الإمام الغزالى فى كتابه — مشكاة الأنوار فصلا طويلا دافع فيه عن الحلاج وشرح ألفاظه وأقواله ، واعتبره من الصفوة الهداة الداعين إلى الله .

---

(١) أبو حيان التوحيدى للأستاذ عبد الرزاق محيى الدين .

ويقول الأستاذ أبو الوفا التفتازانى ، فى كتابه عن ابن عطاء الله السكندرى : « إن الشاذلية جميعاً يجلون الحلاج ويعتقدونه إماماً » .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية[1] : « قل بين المسلمين من ثار حوله الجدل مثل الحلاج ، وذلك أن الرأى العام ، وضعه موضع التقديس والولاية ، رغم ما أثار خصومه حوله » .

ثم تضع دائرة المعارف سجلا شاملا ، لمن كفره ، ولمن اعتقد بولايته ، ولمن توقف فى أمره ، فتقول :

« فمن عده من الأولياء من الفقهاء : الشوشترى ، والعاملى ، والعبدرى ، والدلنجاوى ، والنابلسى ، والمقدسى . واليافعى ، والشعرانى ، والهيتمى ، وابن عقيلة ، وسيد مرتضى الزبيدى .

ومن المتكلمين : ابن خفيف ، والغزالى ، وفخر الدين الرازى ، والمدرستين السالمية ، والماتردية .

ومن الحكماء : ابن طفيل ، والسهروردى ، والحلبى ، ومن الصوفية : الشبلى ، وفارس ، والكلاباذى ، والنصراباذى ، والسلمى ، والدقاق ، والقشيرى ، والصيدلانى ، والهجويرى ، وأبو سعيد الهروى ، والفارمذى ، وعبد القادر الجيلانى ، والبقلى ، والعطار ، وابن عربى ، وجلال الدين الرومى .

وأما الذين تنادوا بتكفيره ، فابن داود ، وابن حزم ، وابن تيمية ، والطوسى ، والحلى ، وابن خلدون ، والجبائى ، والباقلانى » .

ثم تقول دائرة المعارف : « وقد حاول الحلاج بوصفه من أهل الجدل والوجد ، أن يوفق بين الدين والفلسفة اليونانية ، على أساس من التجربة الصوفية ، وهو فى هذا يعد رائداً للغزالى ، وقد جعل الصوفية من الحلاج ، أعظم شهدائهم » .

---

(١) المجلد الثامن ج ١ ص ١٧ .

الروح الخالدة

ذلك موقف التاريخ من الحلاج وحياته ، وتلك هى المعركة التى دارت حول رسالته .

وقد آن للضمير الإسلامى ، أن يتحرر من سحر التهاويل المفتعلة ، وضجيج الإفتراءات الكاذبة ، التى أحاطت بالحلاج وسيرته ورسالته .

ومن أدب القرآن ، أن من قتل نفساً ظلماً ، فقد قتل الناس جميعاً ، وكذلك من اتهم نفساً ظلماً فكأنما اتهم الناس جميعاً .

إن عرض الإنسانية وشرفها وكرامتها ، كل لايتجزأ ، والدفاع عن هذه المقدسات للناس كافة ، رسالة وأمانة فى أعناق الأقلام الحرة ، والقلوب المؤمنة .

ومن كلمات النبوة الخالدة : « من أرخ مؤمناً فكأنما أحياه » .

ونحن نأمل أن نكون قد وفينا حق هذه الأمانة ، وأقمنا على الصراط المستقيم المضىء حياة رجل يقف شامخاً على مرقاة مضيئة هادية ، ليرشد الإنسانية ، إلى معراج من الحب الإلهى ، يسمو بالوجود الإنسانى ، إلى سدرة الرجل الربانى ، الذى يرتفع فوق الحياة ، ليتخلق بأخلاق الله ، ويقتات قلبه بنوره ورضاه .

رجل عاش للمثالية الإيمانية ، بكل ما يتسع له أفقها الرحب ، وجاهد فى سبيلها ، وقدم دمه فداء لها .

عاش للمثل العليا ، تملأ نفسه ، وتغمر روحه ، وتضىء قلبه ، وتفتح له آفاقاً فسيحة ، فى عالم الخير والحب والكمال ، عاش ووجهه للسماء أبداً .

عاش ليقدم للإنسانية ، صورة من صور البطولة الروحية الشامخة ، تتضاءل حيالها ، كافة الصور البطولية ، التى تنبثق من كبرياء النفس وشهواتها .

عاش ليقدم البرهان المضىء على أن التصوف فى جوهره ، هو أعلى صور التسامى ، كما هو أعلى صور الجهاد والفداء .

عاش ليقدم الدليل الحى ، على أن الروح ، إذا ارتفعت إلى الله سبحانه صغرت الأكوان فى نظرها ، وهانت الأحداث فى منطقها ، فغدت بزهدها وترفعها ، أعظم قوة تهز عروش البغى . وتوجه أحداث التاريخ .

وبعد فعلى مرمى السهم من الفرات ، فى قلب بغداد ، يقوم ضريح لا تنطفىء أنواره ، ولا ينقطع رواده .

وإلى هذا الضريح تتجه قلوب الملايين ، عبر القرون ، وتحت قبابه أنشد جلال الدين الرومى روائعه ، ورتل فريد الدين العطار أقوى ملاحمه ، وترنم الجامى بنفحات أنسه ، وفى ردهاته عقد صوفية الفرس والترك حلقاتهم التاريخية ، وأنشد العابدون على ناى منصور ، أروع ألحان الروحانية الإسلامية .

ومن عجب أن الضريح لا يضم جسداً ، ولا يحوى رفاتاً ، لقد أقيم رمزاً وذكرى ، لروح لمع فى أفق الحياة ، كما يلتمع الشهاب فى أفق السماء ، ثم احترق كما يحترق كل شهاب ، يطل على الوجود ، بنور لا تحتمله العيون .

ذلك هو ضريح الحلاج الشهيد ، الذى لا يضم رفاتاً ، لأن الكون كله ، هو الذى ضم رفاته ، واحتضن ذراته .

وتلك آية من آيات الخالدين ؟

طه عبد الباقى سرور نعيم

٢٢ من ربيع الاول عام ١٣٨١ هـ

٢ سبتمبر عام ١٩٦١ م

من مراجع الكتاب

الطواسين	: للحسين بن منصور الحلاج
أخبار الحلاج	: لعلى بن أنجب الساعى
البداية والنهاية	: لابن كثير
تاريخ بغداد	: للخطيب البغدادى
وفيات الأعيان	: لابن خلكان
شخصيات قلقة فى الإسلام	: لماسنيون ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى
الفتوحات المكية	: محي الدين بن عربى
إحياء علوم الدين	: للغزالى
الطبقات الكبرى	: للشعرانى
الكواكب الدرية	: للمناوى
التصوف وفريد الدين العطار	: للدكتور عبد الوهاب عزام
التعرف لمذهب أهل التصوف	: للكلاباذى
اللمع	: للسراج الطوسى
الصوفية فى الإسلام	: لنيكلسون — ترجمة شريبة
فى التصوف الإسلامى وتاريخه	: « « أبو العلا عفيفى
المثنوى	: لجلال الدين الرومى
معجم البلدان	: لياقوت
دائرة المعارف الإسلامية	: . . . .
التصوف فى الشعر العربى	: لعبد الحكيم حسان
مخطوطات صوفية	: لماسنيون — نشر باريس
طبقات السلمى	: لأبى عبد الرحمن السلمى
ديوان الحلاج	: طبع باريس

الرسالة القشيرية : للقشيرى
ظهر الإسلام : لأحمد أمين
مرآة الزمان : للسبط الجوزى
مجموعة الرسائل : لابن تيمية
عوارف المعارف : للسهروردى
كشف المحجوب : للهجويرى

محتويات الكتاب

الصحيفة

الصحيفة

من كتب الحلاج الخطية

١ – بستان المعرفة
٢ – تفسير سورة الإخلاص
٣ – كتاب الأبد
٤ – كتاب الأحـــرف المحدثة والأزلية والأسماء الكلية
٥ – كتاب الأنسال
٦ – كتاب التوحيد
٧ – الجيم الأصغر
٨ – الجيم الأكبر
٩ – جمل النور والحياة والأرواح
١٠ – خزائن الخيرات
١١ – خلق الإنسان والبيان
١٢ – خلق خلائق القرآن والإعتبار
١٣ – الدرة إلى نصر القشورى
١٤ – الذاريات ذروا
١٥ – سر العالم والمبعوث
١٦ – السمرى وجوابه
١٧ – السياسة إلى حسين بن حمدان
١٨ – السياسة والخلفاء والأمراء
١٩ – شخص الظلمات
٢٠ – الصدق والإخلاص
٢١ – الصلاة والصلوات
٢٢ – الصهيون
٢٣ – طاسين الأزل . والجوهر الأكبر . والشجرة الزيتونة النورانية
٢٤ – الظل الممدود والحياة الباقية
٢٥ – العدل والتوحيد
٢٦ – علم البقاء والفناء
٢٧ – كتاب إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى ميعاد
٢٨ – قرآن القرآن والفرقان
٢٩ – القيامة والقيامات
٣٠ – الكبر والعظمة
٣١ – الكبريت الأحمر
٣٢ – كيد الشيطان وأمر السلطان
٣٣ – كيف كان وكيف يكون
٣٤ – لا كيف
٣٥ – المتجليات
٣٦ – مواجيد العارفين
٣٧ – والنجم إذا هوى
٣٨ – نور النور
٣٩ – الوجود والأزل
٤٠ – هو هو
٤١ – اليقين
٤٢ – اليقظة وبدء الخلق

للمؤلف

من مطبوعات دار نهضة مصر للطبع والنشر

١ – التصوف الاسلامى والإمام الشعرانى

٢ – من اعلام التصوف الإسلامى أول

٣ – « « « « ثان

٤ – دولة القرآن

مطبعة نهضة مصر
الفجالة . القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٦٥ / ١٩٦٩